إمِيل لُودفيغ

الحياة والحب

ترجمة

عادل زُعَيْتر



دار المعارف بمصر

١٩٥٩

إلى كِلير ڤُيولاَ شِفْتِل
المؤلف

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

مقدمة المترجم

هذا الكتاب من وَضْعِ الكاتب الألمانيّ الكبير إميل لُودْفِيغ ، وهو آخر ما أَخْرج للناس على ما نَعْلَم ، وقد أُلِّف باللغة الإنكليزية على ما يَظْهر ، فاعتمدنا في نقله إلى العربية على أصله الإنكليزيّ وترجَمته إلى الفرنسية .

وفي هذا الكتاب بَحَث لُودْفِيغ في أمور الحياة والحبّ بحثاً دقيقاً مستنداً إلى دِراساته وما انتهى إليه علم النفس وعلمُ وظائف الأعضاء من أصول ، فجاء بِدْعاً في بابه .

وفي هذا الكتاب سَلَكَ لُودْفِيغُ سبيلَ الإيجاز وأكثَرَ من المَجاز فبدَا بعض عباراته ضَرْباً من الإلغاز ، ويظهر أن لُودْفِيغ بَلَغَ الذِّروة من التعقيد في التعبير مع عدم خَفاء المَقْصِد فكانت الصراحةُ مع العُمْق والإبهامُ مع الدقة والغموضُ مع الوضوح آيةَ هذا الكتاب ، وللُودْفِيغ ما يَعْتذر به عن ذلك باشتمال الكتاب على موضوعات شائكة ونواحٍ حَسَّاسة لا بُدَّ من بيانها بشتى الكنايات والاستعارات ، وهذا ما أردنا جلاءه بالصَّقْل جُهْدَ المُستطيع مع المحافظة على حَرْفيَّة الترجَمة .

ومنْ يُنْعِم النظرَ في الكتاب يُبْصِرْ ما تَصير إليه الأُسْرة في الغرب من الانحلال فيَوَدُّ لو يقتصر الشرقُ ولا سيما العالمُ العربيُّ على اقتباس نواحي

العلم والفنّ من الغرب دون تقليده فيما يُصاب به الكيان الاجتماعىُّ من الأضرار الفادحة ، وكأنَّ لُودْڤيغ لم يُرِدْ أن يرى ما تصير إليه الأُسْرة الغربية من التفكك وعدم التماسك فيعالجَ موضوعه من الناحية الاجتماعية أيضاً ، بل نظر إلى المسئلة نظراً واقعياً تجريبيًّا من حيث الغرائزُ الجنسية واختلاجاتُ القلوب وسرائرُ النفوس مع مباحثَ طريفةٍ فى السعادة والعَظَمة والعُزْلة ، ولكلٍّ وِجْهةٌ .

أَعْرِض ترجمة كتاب « الحياة والحبّ » راجياً سَدَّ فراغ فى الأدب العربىّ به طامعاً أن يجدَ القارئ العربىُّ مُتعه من مطالعته .

« نابلس » عادل زعيتر

ديباجة

فى الصُّوَر التى رَسَمها كِبار الأساتذة تَجِدُ على الدوام أثراً لخُلُق المتفنن الشخصىِّ ، وهذا هو المثال الذى سعيتُ وراءه فى السنوات الثلاثين الأخيرة ، وذلك لأن التصويرَ المنظورَ غيرُ موجود ، وهو إن وُجِد كان عاطلاً من الطَّلاوة ، وسواءٌ على المصور اتَّخذ نسيجاً أم كتاباً للإعراب عما يدور فى خَلَده يَرْسُم ، أبداً ، بعضَ نَفْسه فى عمله فيمكن الناظرَ البصيرَ أن يَتَبيَّنَ هذا المتفننَ بفضل هذه السِّمَة الذاتية ، وهكذا يستطيع من يقرءون مَنْ أُتَرْجِم من الرجال أن يستدلوا به ، لا رَيْب ، على فلسفتى من خِلال إيثارى لوُجُوهٍ ونفورى من وجوهٍ ومن تفسيرى لبعض الوثائق ومن لَهْجَةِ كثيرٍ من شروحى المُحَشَّاة .

وقد مَرَّ خمسَ عشرةَ سنةً على آخر محاولة منى لرَفْع قِناع المترجم عنى ، واليومَ أعود إلى نفسى بشكلٍ أدبىّ آخرَ ، فبعد أن وصفتُ فى تراجمَ وروايات كثيراً من السجايا عَرَضْت فى هذه المرة رسوماً لنظَرَاتى فى الحياة غيرَ صائغٍ مبادئَ مجردةً ، واصفاً لأحوال روحية مُحْيِياً لأماثلَ ، وأَعُدُّ الرموزَ وسيلةً مثالية لإيضاح المسائل فأُدخلُ إلى هذا الكتاب بعض المناظر المقتبسة من تَجْرِبتى .

مِن الحُبّ

وفى الصَّفَحات التالية يُبْصِر القارئ فِىَّ تلميذاً لأبيقور[١] ، هذا الفيلسوفَ الذى لم يُدْرَكْ أمرُه كثيراً ، وهو الذى أَشْعُر بأنه أقرب إلى نفسى من كلّ مفكر إغريقىّ ، وفى الصَّفَحات التالية يُبْصِر القارئ أيضاً عالمَ رجل فردىّ ثابت جادّ فى التقدم من دِراسة القلب البشرىّ إلى دِراسة الطبيعة التى هى عالمٌ خالٍ من كل فاجعة خُلُوًّا قاطعاً ، وهذه الأفكارُ والمشاعر خاصةٌ بأوربىّ يَنْشُد السعادة الفردية أكثرَ من نَشْده المَلاذَّ الجَمْعِيَّة ، وهى هواجسُ رجلٍ يُعْجَب بالأعمال والهَوَى ويزدرى الحَصر .

وفى المُثُل العُلْيا الثلاثة التى يدور حولها كِيانى ، وهى الحبُّ والسعادةُ والعَظَمَة ، أبحث بحثاً خفيفاً جُهْد الاستطاعة ، وذلك بِنُبَذٍ مع أمثلة مختارة من مَظْهر الحياة الأَنْمَر[٢] أو بأحاديثَ خياليةٍ ، وفى الختام وَصَفْتُ يوماً لى شبيهاً بالأيام التى قضيتها فى العَمَل والعَطَل ، وقد يكون ذلك اليومُ موضوعَ درس للوجه الذى يَدْنُو به الإنسان من تلك المُثُل العُلْيا بزُهْده فى ضجيج العالَمَ وتفضيلهِ السكونَ على الحركة طالباً إياه .

ولذلك أدعو القارئ إلى السَّفَر معى على بُحَيْرة سويسرية عَزْلاء كما صَنَعْت ، لا فوق البحر المحيط ، وفى صباح من الصيف سنَزْلَق بين نسيم لطيف فنرى حولنا رُباً وغاباً وقُرًى ، وقد نرى فوق ذلك سُحُباً بيضاً .

لودفيغ　　　　كَلِيفُورنية

الربيع من سنة ١٩٤٥

---

(١) أبيقور : فيلسوف يونانى مشهور ، ويقال له أبيقوروس الكلبى ، وإليه تنسب فلسفة الشهوة ومتابعة الحواس ، وقيل إن أبيقور كان يهدف إلى لذة العقل والفضيلة فى الحقيقة (٣٤١ - ٢٧٠ ق . م) - (٢) الأنمر : الأرقط .

١

رجلٌ عُمْرُه غيرُ مُعين غادرَ مقعَده ، وقد كان يَشْعُرُ بخَدَرٍ فيرى أن يسير ، وفيما كان نَغَمُ المُغَنِّيَة الأولى المُثيرُ يُنَبِّه حِسَّه ، وفيما كان حَفيف ثوبها المُهتَزِّ يُرْهِف أُذُنيْه و يسترعى عَيْنَيْه ، وفيما كانت ألحان الـكَمان الـكبير ترتفع وتقَعُ فى فؤاده ، كان بدَنه يتحول إلى رَصاص كما يبْدُو ، ثم كان للنُّور والهُتاف من الأَثَر فيه ما للمَوْج المُسَكِّن وجاوز مجاور به وأرخى ساقيْه فأمسك بالأصابع سُتْرته وقَوَّم رَبْطته ، ثم تناول مِنظاره المزدوج فنظر إلى ما حوله مُتبرماً مُتَوتراً توتُّراً شاذًّا ، وما كان يبحث عن شخص بعينه ، وما كان وهو فى ذلك الإحساس الحادِّ يطلب رجلاً بذاته بين ذلك الجمهُور الذى صار شديدَ القُرْب منه بَغْتةً ، و إنما كان يَنْشُد دواماً لِما عَرَفه وسَمِعه منذ هُنَيْهة ، وكان جميع وجوده المُتَنَبِّه مستعدًّا منتظراً مُتَقبلاً لـكلِّ مُحَرِّض .

سَكن من فَوْره، فقد أبصر رأس امرأة بمِنظاره ، وكانت هذه المرأة من المَيْل إلى الوراء ومن إحاطة شَعْرها الأشقر بها ما كان معه نُور المِصْباح المُشَعَّب فى الجِدار يُوجِب التماع جانبها ، وكانت هيئة رأسها تدلُّ على جَمْع الحواسِّ والأفـكار ، وكان رأسها المائل إلى الكَتِف يَنِمُّ على استماعها لأصوات فى مكان ما خَلْفَها ، بيد أنه لا أَحَدَ هنالك ، فالشُّرْفة كانت خالية ، وقد ذهب رفقاؤُها إلى البَهْو حيث يتجاذبون أطرافَ الـكلام ، وما كان من انزواء هذا الرجل هنا ومن انزواءِ تلك المرأة هنالك فيُؤَلِّف بينهما الجِسْرَ الخفىَّ الأول ، وما زالت إحدى ذراعيها تستند إلى حافَة الشُّرْفة ، وكان ظلُّ ثوبها المُخْمليِّ الخَمْرىِّ يَسْتُر يدَها الأخرى ، وهى

لإمالتها الرأسَ كان يبدو على صُدْغها عِرْقٌ دقيق التكوين .

و بذلك المنظر غير المنتظر كَمَلَت جميع أحلام ذلك الرجل التى أثارتها المُوسِيقَى فيه ، وما كان لِيَفْتِنِ ذلك الرجلَ ما عند تلك المرأة المجهولة من جواهرَ وحُلِيّ وذكاء وابتسام ، ولا ما يُسَمَّى عادةً بالجمال ، ولكن الذى استهواه فيها هو ما يلائم روحَه من حال نفسية أَوْحى بها ذلك الرأس المائل وذلك الشعور بما وراء الزمان والمكان من رابطة بلغت من الشِدَّة ما ينتعش معه قلبُه الخافقُ الآن لدى رؤيتها ، وهكذا بدأت إحدى الروايات المُقَدَّرة التى لا تُنْكَر .

وفُتِحَت الأبواب فى المكان الأعلى فنَزَل الحُضُور من دَرَج الشُّرْفة وأزاحوا الكراسىَّ عن مَحَالِّها ، ورتَّبَتْ تلك المرأةُ نفسَها بسرعة ، و بدَتْ كما لو حُرِّرَت من سِحْر المُوسِيقَى فنهضتْ ، فظهر جميع وجهها ، وما كانت أهيفَ من جارتها ، ولكنها حين عَدَّلَت مَطَاوِيَ ثوبها بضَرَبات أصابعها الدقيقة مُترفقةً ساورتْ دماغَ ذلك الرجل سلسلةٌ من صُوَر الحبِّ ، وشابهت حركاتها اللحنَ الذى كان قد أنعشه بلطف فنَبَّه كلٌّ واحد منها حِسَّ الغرام فيه ، وقد انقلبت آية التفكير فى وجهه إلى ابتسامة عندما جَمَت سيدةٌ بجانبها شالَها ولم ، يَلْبَث أن غَمَر جنانَه موجٌ جديد من الإغراء والتَّجَلِّى ، فاستحوذت عليه رؤيا ابتسامةِ امرأةٍ وَدُودٍ غيرِ موجودة كان يُنْكِر حُبَّه لها بشدة فى الحقيقة السافرة .

وكُبِيَ[1] النُّورُ ، وعزَفَت الموسيقَى ، فطَوَّق الفصلُ الثالث ذلك الرجلَ بطَلٍّ[2] من الألحان ، فقامت لديه مقام الممثلة فى الرواية الفاجعة ، وإن شِئْتَ فَقُلْ انتصبت أمامه امرأةٌ مجهولة كظِلٍّ صامت .

(١) من كبى النار : ألقى عليها رماداً — (٢) الطل : المطر الخفيف وقيل الندى .

وفى ختام النَّغَم حينما جَلَسَت البَطَلة على مقعد وأمالت رأسها جانباً ، كما لو كانت تُصْغِى إلى النَّغَم الخافت ويَلُوح أنها تَسْكَر من الموسيقَى وتَشْرَب من رَحِيق[1] مصيرها ، كان يُصْهَر ما لديه من الرُّؤَى فى صورة مُنِيرة .

ومما عَزَم عليه أن يُهْرَع إلى مَدْخل الشُّرْفة فى نهاية التمثيل الغنائىّ ، فوَقَف هنالك خافقَ القلب كالغلام الذى يُوشِك أن يَرَى فى اليَقَظة تحقيق ما رأى فى منامه ، ولا بُدَّ من أن تمرَّ قريبةً منه ، ولا مَناص للنُّور من أن يكون ملائماً ، وقد أَبْصَرَ من سلوكها أنها لا تَسِير مُسْرِعة ، وقد غَفَلَت عنه حينما غادرت الشُّرْفة فى نهاية الأمر ، غير أن وَجْداً اعتراه من الطِّراز القديم الذى رَفَعَت به ثوبها قليلاً وهى تُمْسِكه فوق رُكْبتها .

وقد نَسِيَت كتابها الموسيقىَّ والحمدُ لله ، فنَزَل من الدَّرَج بالقرب منها تقريباً ، ثم سَبَقها بضعَ خُطُوات مُمْسِكًا عَمْرتَه[2] بيدٍ ومُقَدِّماً الكتابَ باليد الأخرى ، وهى إذ اقْتَرَب منها على هذا الوجه وكلَّمت بصَمْت اضْطُرَّت إلى الوقوف .

وقد رأت فوق سُتْرة قصيرة واسعة رأساً منتظماً وشعراً أشهبَ[3] قليلاً وشفتَيْن دقيقتين فى وجهٍ عَمِلَت فيه الحياةُ ونَظْرَةً ذات تسليم تامّ فى عينين ، وفى ثانيتين ارتبط أحدُ ذَيْنك الغريبين فى الآخر بكتاب عند انتقاله من يد إلى يد ، ولكن الرجل إذ لم يَنْطِق بكلمة لم يكن على المرأة غيرُ هَزِّ رأسها ، ثم توارت .

عَيَّنَت تلك الساعاتُ مصيرَ ذَيْنك الشخصين اللذين لم يتلاقيا من قبلُ ، وذلك لما لا مَحِيصَ عنه من تفكير أحدهما فى الآخر تفكيراً مستمرًّا عجيباً ، وذلك

(١) الرحيق : الخمر — (٢) العمرة : كل شيء على الرأس ، من عمامة وقلنسوة وتاج وغيره والبرنيطة هى المقصودة هنا — (٣) الأشهب : ما كان لونه الشهبة وهو بياض يخالطه سواد .

لأن نَظْرَة واحدة وفَيْنَةً[١] واحدة كانت من الكفاية ما تمازجت به سُبُلهما بعد اختلافٍ وما اتَّحَدَا به بعد تجانب ، وهل كانت الموسيقى واسطةً رَبَّانيَّة بينهما ؟ كان فى تلك الليلة قلبان وحيدان مع مغامرات كثيرة منفردان فى ذلك الدَّوْر من وجودهما يهتزان أملاً وتنزُّلاً ، وهما لما كان من نَبْضهما بانتظام وانسجام نشأ فيهما حُبٌّ متبادل .

٢

ثَبَت أن الحبَّ فى كل دَوْر وتحت كلِّ سماء ولدى كلِّ جيلٍ حادثٌ جُثْمانِىٌّ ، وقد يكون الحُبُّ غيرَ ذى نتائجَ روحيةٍ ، والحبُّ قد حَدَث على هذا الوجه فى ألوف المرَّات ، ولكن الحب لم يَحْدُث قط بلا نتائجَ جُثْمانية ، حتى إن بَطَلَة أشدِّ ما وُجِد من الحبِّ الرُّوحانِىِّ ، حتى إن بِيَاتْرِيس[٢] تَمَّ لها الفوز بمنظرها الجُثْمانى ، وذلك حينما رآها الشابُّ دَانْتِى[٣] على الجِسْر فسُحِر بمظهر هذه المرأة المجهولة ، فنَقل هذه الرؤية فى أثَره ، وما فى الأنف من قنًا خفيف وما فى الجيد من لِين وما فى الرِّداء من دَكَن فما كان يؤدى إلى جمود ذلك الشاعر فى ذلك الحين الحَرِج وعَوْق تحليقه فى الخيال ، ومما لا مِراء فيه أن رُوح بِيَاتْرِيسَ كانت تتراءى من نظرها ، غير أن شكل بِيَاتْرِيسَ النِّسْوِىَّ هو الذى كان يُثِير دانْتِى ، غير أن بِيَاتْرِيس هى التى كان يَغْمُرها دانْتِى بأحلامه ويَمْضِى بها إلى السماوات كمَلَك طاهر ، وإن كانت تَحْمِل فى نفسها أولاداً لرجل آخر ، وتَجِدُ عالَماً بين طرفى الهوَى ، أى بين بِيَاتْرِيس السَّلِيمة الروحانية والسيدة السوداء التى وَصَف

(١) الفينة : الحين — (٢) بياتريس : هى فلورنسية مشهورة خلدها دانتى فى مهزلته الإلهية ، ويرى كثير من النقاد أنها شخص رمزى (١٢٦٦ — ١٢٩٠) — (٣) دانتى : أعظم شعراء الطليان ، وله دواوين وروايات كثيرة أشهرها « المهزلة الإلهية » (١٢٦٥ — ١٣٢١) .

شَكْسبِير[١] فى قصائده حتى اللاذعَ من شَهَواتها ، وتَجِدُ بينهما مع ذلك ما يشتركان فيه من كون جسم المرأة اجتذب إليه رجُلًا فأيقظ فيه شاعراً ، وذلك كما أدى إليه وَضْعُ تلك المرأة المائلُ فى دار التمثيل .

وهكذا لا ينمُو حُبٌّ بلا كفاح ، ففى تعاقب الحوادث البطىء يتقارب شخصان ويَحُوز أحدُهما الآخرَ فى نهاية الأمر ، وهذا ما يقع على الدوام ، وهذا ما نشاهده كلَّ يوم فى سلوك الحيوانات الغَرَامِىِّ على الوجه الأَصْفَى ، وليس الكفاحُ تنافساً بين نفوس يَفُوز فيه أكثرها إقداماً أو غِنًى أو نُبْلًا ، وإنما هو صِرَاعٌ بين بَدَنَيْن ، ومن يُنْكِرْ أصل الحبِّ هذا أو يُعْرِضْ عنه يُحْكَم عليه بعدم إدراكه له أبداً ، والإنسانُ العاشِقُ ، حين يكافح ويصارع معاً ، يبلغ أكثرَ صُوَر الحياة حُرِّيَّةً ، أى أكثرَها سُمُوًّا ، فيغدو بذلك أدنى إلى الآلهة ، ويتألف من الاختيار والكفاح عنصرا الحبِّ الأساسيَّيْن .

وما تَهَبُه مغامراتنا من حِسِّ الكفاح هذا فيَصْدُر عن دائرة النَّفْس على العموم ، وقُلْ مثل هذا فى أمر الحبِّ أيضاً ، ولكنك بينما تُبْصر القِدِّيسَ والفيلسوف ورَجُل العِلم والأبَ والصديق ينهضون بالكفاح إلى مستوى الروح المَحْض فلا يَعْرِفون أحياناً غيرَ الموت غايةً قاهرة ترى العاشق وَحْدَه يَظَلُّ مرتبطاً فى العالم الجُثْمانى قَسْراً ، ولم تُعْطَ لغير العاشق ، إذَنْ ، قوةُ الوُصول إلى ذُروة الانطلاق التى لا يؤدى إليها كفاحٌ آخر حيثُ ينتهى القتال بهزيمة أحد المحارِبَيْن ، فاصطراعُ العاشقَيْن فريد فى بابه لختامه بنصرهما معاً .

وبَدْء الصِّراع نَظْرةٌ ، فالذى يدفع أحد العاشقَيْن إلى الآخر فى دار التمثيل ،

(١) شكسبير : أكبر شعراء الإنكليز (١٥٦٤ — ١٦١٦) .

والذى يجعل من الغريبيْن شخصيْن مُحَوِّليْن لحياتهما مُبادلةً مُؤثِّراً أحدُهما فى الآخر مُقابَلةً ، ولو لِهُنَيْهَةٍ على الآقل ، يكون فى أول الأمر تبادلَ نظرتَيْن ناطقتَيْن عند التقائهما بالكلمة : « أُحِبُّك » ، والخيارُ فى الحبِّ للعَيْن ، وسواءٌ على العين أنَظَرتْ إلى الشخص كما هو فى الحقيقة أم أبْصَرتْ ظاهرةً فقط تَغْدُو رسولَ ذلك الانجذاب الذى يمكن أن يُدْعَى بالسِّرِّ بين الأرواح والذى يمكن قياسُه ولَمْسه فى العالمَ الجُثْمانى، ومن النادر جدًّا أن يَفْتِن شخصٌ آخرَ بالصوت وَحْده غِناءً كان هذا الصوت أو نداءً فى غابة أو كلاماً بالهاتف أو حديثاً فى المِذْياع .

ومِنْ قَوْل غُوته[1] :

« وَىْ ، ما أكثر الحواسَّ ! وفى السعادة تأتى الحواسُّ بالكَدَر ، فأوَدُّ أن أكون من الصُّمِّ إذا ما رأيتُك ومن العُمْىِ إذا ما سمعتُك » .

وفى فكرٍ عميق ارتفع به كازانوفا[2] إلى مرتبة فيلسوف على الرغم منه تَجِدُه يتكلم عن تَجْريب قاطع فى النَّظَر والتعبير ، فقد ذكر أن مما لا يُهَيِّجنا منظرَ امرأةٍ عارية مبطوحة أمامنا مع رأس مستور ، وأن منظر امرأة كاسية[3] مع قَسَماتٍ بادية قد يُثير فينا ذلك الاختلاجَ الغرامىَّ الذى يبدأ به كلُّ غرام .

وإذا حَدَث أن رجلًا لا يَحُوز امرأة إلا مُبَرْقَعة ، ولا يستطيع حَوزَها إلا على هذا الوجه ، فإن هذا الرجل يصبح مجنوناً عند تفكيره فى جهله لمَنْ يَهَب نفسَه لها ، وعكسُ ذلك ما يَقع لكلِّ رجل حين تَنَوَّره سِحْرَ امرأةٍ كاسية تماماً من خلال عينيْها وابتسامها ، فهو يستنبط من هذه الجاذبية ما فى جسمها من ممكنات غرامية ،

(١) غوته : أعظم شعراء الألمان (١٧٤٩ – ١٨٣٢) – (٢) كازانوفا : رحالة من البندقية ، وكان قصاصاً ماجناً (١٧٢٥ – ١٧٩٨) – (٣) الكاسية : خلاف العارية .

وإذا حَدَث أن عُرِّض لنظَر امرأة بَدَنُ شابٍّ نائم على الشاطئ مع مِنْدِيل يَقِى رأسَه وَهَجَ الشمس فإن هذا الشابَّ يَفْتِنها بأقلَّ من افتنانها بفَتًى ممشوق يَمُرُّ فى ذلك الحين بادىَ التبسم أو التفكير لابساً بِذْلةً رياضية .

وللحركة أهميةٌ بالغة فى ذلك ، فالشخصُ النائم يُوحِى بالإجلال كالشخص الميت، حتى إن آلهة اليونان عندما كانت تَترَقَّب من البنات من هنَّ عارياتٌ نائمات لم تَجْرُؤْ على غير تقبيلهن فى الأكثر ، والحبُّ عند الحركة يلوح صِراعاً ، وإذ أن كلَّ حركة تثير أعصاب المُشْتهِى فإن السكون يُبْطِل هذه الإثارة ، وعن الحركة يَصْدُر أقسى ما يُحَقِّق وأسْرَعُه ، ومن الممكن أن يَرْبِط فتيان بشجرةٍ فى الغابة حصانيهما اللذيْن يرْشَحان عَرَقاً بعد عَدْو طويل ، وأن يَتَمَرَّغا فى الكلأ وأن يُحْرِز أحدُهما الآخرَ مُواصِلَيْن قصيدةَ الجَوَلان ، فإذا أتمَّا نشيد كُرُوتْسِر[1] امتزج الجَوَلان والهِجْران فى ختامهما السريع الشامل .

٣

أين يكون سِرُّ الاختيار ؟ وأىُّ شىء يجتذبنا ؟ آلقرابةُ أم الغَرَابة ؟ وأىُّ شىء نتمناه ؟ آلتَّغيُّرُ أم الحُبّ ؟

كلاهما ممكن ، ويمكن كليهما أن يكون مثمراً ، وتَجِدُ غيرَ شخصٍ فى ألْفته قد احتفظ مدى حياته بصديقين ظَلَّ أحدهما غريباً عن الآخر ، وذلك لِما كان من اجتذاب الأول له بمشابهاته واجتذاب الثانى له بمخالفاته ، وهكذا يُمْكِن رجلًا

(١) كروتسر : كمانى وملحن فرنسى (١٧٦٦ – ١٨٣١) .

أسمرَ أن يبحث عن امرأةٍ شقراءَ حمراءَ عادة ، ولكنه قد ينجذب ذات يوم بما يوجب حيرته إلى سمراءَ تَغْدُو أختاً له .

ويكون الحبُّ بين مثالَيْن مختلفيْن أقصرَ من سواه وأعنفَ كما أن صداقة شخص ذى منازعَ متماثلةٍ تكون على العموم هادئةً وطيدة أكثرَ من صداقة شخص ذى سَجِيَّة معاكسة ، ولا يكون الزواج الممتاز بين أقصى الحدَّيْن ممكناً ، إذَنْ ، إلا بفضل التَّطبُّع والإخلاص فيتنزَّل كلٌّ منهما عن جزء من نفسه للآخرِ مع أن الاختلاف سببُ تجاذبهما فى بدءِ الأمر حينما كان أحدهما يَفْتِن الثانى .

ولا يكون للقول بأن الحدَّيْن يتجاذبان أىُّ معنًى حقيقىّ إلا إذا قُصِد بذلك تيَّاران كهْرَبيان ، وذلك لأن شرارة الشَّهوة تنشأ عن تماسِّ طَبْعَيْن مختلفيْن فى وضع خيالىّ لا يستطيع أيُّهما أن يقول به إنه القُطْبُ الإيجابىُّ أو القطبُ السَّلبىُّ .

وإذا ما أنعمنا النظر فى الحال المِثالية وفى بدئها المُشْرِق لم نَجِد الكفاح الغرامىَّ فى أى موضع طبيعياً رائعاً مثلَه فى هذه الحال ، ومن النادر أن يتوارى آخرُ أثر للحياء ، وهذا إذا ما حدث كان الزوجان منعزليْن انعزالاً تامّاً فلا يراهما أحدٌ ، والعاشقُ يشابه المتفننَ فيظلُّ وَحْدَه شاعراً بنفسه قادراً على تحليل الأُوَيْقات العابرة ، ويا لَمَنْظَر التَّدْرُج(١) الذهبىِّ والتَّدْرُجَة ! هو ينقضُّ عليها مُنْتَصِبَ العُرْف فتُكايده وتَدْفعه وتُجانبه ، ثم تَفِرُّ إلى أن يُكْرِهَها على الالتجاء إلى ركن صَخْرِىّ ، ويَنْفُض ريشَه العَسْجَدِىَّ الأحمرَ فوق الزَّغَب الأزرق فيزْقُو(٢) زُقَاء المنتصر فى أشد هياجه ، وتُذْعَر وتمايل مفتونةً على الخصوص ، فهذه صُوَرٌ ذاتُ بهجة لا تُبْصر مثلَها فى الناس ، وما كان من إمساكها وغَشْيها ورَجِّها ووِصالها فلا يدلُّ

(١) التدرج : طائر حسن الصورة طويل الذنب . – (٢) زقا الديك : صاح .

على أن عمل الحيوان دون عمل الإنسان ، وذلك لأن الإنسان وحدَه يُعِدُّ نفسه لكلِّ إمكانٍ بسلسلة لا حدَّ لها من الأفكار والأحلام، فيستطيع وحدَه أن يُنْمِيَ هذه الأفكارَ والأحلام فيُمْتِعَ نفسَه بأعظم المَلاذِّ .

وكلما ارتقى الوَلَع غدا كلُّ شىء بَدَنيًّا ، ومن الحين الذى تَقُود فيه قدرة خفية أحدَ الغريبيْن إلى الآخر بفِعْل اختلاط نَظَراتهما تَجِدُ كلاًّ منهما قد جُرِف طَوْعاً أو كَرهاً فى عاصفة من المُؤثِّرات البَدَنيَّة فتَطْبَعهما هذه المؤثِّراتُ بطابعها معاً ، فيبْغى الرجلُ أن يَرُوق المرأة كلُّ شىء يَرُوقه ويَفْتِنه ، وبينما تُحَلِّل نظرة أحدهما الآخرَ ، كمنظرٍ يُرْقَب من فوق جبل ، يَشْعُر كلٌّ منهما بأن الآخر يَرْصُده فيحاول بكلماته وحركاته أن يجعل الآخر يُدْرِك أمْرَه إدراكاً مطلقاً فيصيرَ أكثرَ مشابهةً له من قَبْل .

ويُقَيَّد الاندفاع الأول فى كل وقت تقريباً بحضور أناس من الغرباء وَفْقَ ما يُقِرُّه المجتمع من عادات وأحكام ، وتنطوى على مصيرٍ بأَسْره تلك الفَيْنَةُ التى يلتقى فيهما شخصان فيُقَدِّم شخصٌ ثالث أحدَهما إلى الآخر وإن اقتصرا فى تحيتهما على هَزِّ الرأس دون المصافحة على ما يحتمل ، وقد ينحرف فى تلك اللحظة طريقا حياةٍ عن مِحْوَرَيْهما ليتمازجا ، فيتقرر أمرُ ليالٍ وسنواتٍ ووَجْدٍ ويولَدُ أولادٌ وتَنْشأ أجيالٌ ، وإذا كان كلٌّ من ذَيْنِك الشخصيْن قد اختار الآخرَ من تلقاء نفسه ليَتَحابَّا فبَعْد انتفاضٍ كالذى يشاهد فى التَّدْرُج الذهبىِّ وإن دار حديثهما حول الحرب أو العازف على البيان ، وإذا كان كلٌّ منهما دَرِباً بالحُبِّ غيرَ حديثٍ فيه شَعَر من فَوْره بما يَعْرِفه الآخرُ ويُحِسُّه .

وترْفَع المرأة يدها الناعمة بتُؤَدةٍ إلى فَتْحة الصدر من ثَوْب السهرة ، وذلك

لتُعَدِّل قطعةً من الشَّرِيط المُخَرَّم المَوْضون[١] وَضْناً خفيفاً يَجْذِب نَظَر الرجل ، والآن تُثير هذه الحركةُ أفـكارَ الرجل فيَقِفُ نظرَه عند الصدر و يتمثل ما تُحِسُّه أصابعها الغَضَّة من دِفء .

وفى بدء الحُبِّ حتى فى جميع الزمن الذى يدوم فيه الارتباط الغرامىُّ لا تَجِدُ ما يَجْتذب خيالَ الرجل أ كثَرَ من صَدْر المرأة، ولا شيء من جسمه ما يجتذبها إليه بمثل هذا ، وهذه الظاهرة الصادقة فى كلِّ زمان ومكان هى العِلَّة فى أن المرأة لا تهْتز بصورة الرجل الكاسية اهتزازَه بما لديها ، وفيما ترى الطبيعة تُزَيِّن الذَّكر من طيورٍ وغيرِ طيور بما يجعله أ كثَرَ فتنةً للأنثى ترى الزِّيَّ فى كلِّ وقت يُجَمِّل المرأةَ أ كثر من تجميله الرجلَ، واليومَ إذا كانت أزياء النُّبَـلاء السابقين الحريرية الملونة تَبهَرنا فى المَسْرَح فإن هؤلاء النبلاء كانوا يَرَوْن حولهم نساءً كثيراتٍ لابساتٍ ثياباً يَتفَّق لهنَّ بها من الفِتْنة ما لا تُبْصِر نظيرَه فى عصرنا .

وجسمُ الرجل مما يُخِيف الفتاة ، ولـكنك ترى صَدْر المرأة يجتذب الفتى اليافع بما لا يستطيع مقاومَته حتى قَبْل أن يكون عارفاً بسرِّ أعمال الغرام ، وصَدْرُ المرأة ، لأنه لم يُخْلَق فى الأصل للعمل الجنسى ، تَجِدُه أدعى لشهوة الرجل من عُضو الجنس نفسه ، ومن ناحيةٍ تبصر اتصال عُضْوَيْن ، ومن ناحية أخرى ومن طرف واحد تُبْصِر اجتذاباً لطيفاً لا يحتمل غيرَ التدليل ، والمتفنن فى منطقة الحُبِّ الثانوية البارزة تلك عِوَضٌ من توارى عُضْو التأنيث ، فتجد يدَه فى كلِّ جيلٍ تُبْرِز راضيةً صَدْرَ المرأة فى النحت والتصوير ، وما كان من أن أيدى الإنسان هى التى تُبْدِع تلك التصاويرَ فيُؤيِّد ما بين الفنِّ والحبِّ من صِلَة وثيقة .

(١) وضن الشيء : ثنى بعضه على بعض .

وفى الحقيقة قد يكونُ الخِيار بكلِّ شيء يَبْدُو لعَيْن الجنس الآخر ، وذلك كنظر امرأة إلى المَفْرِق الذى يَفْصِل بين شَعْر الرجل ، أو إلى الأنف فى وجه مجهول ، أو إلى الطريقة التى يَضَعُ الرجل بها يدَه فى جَيْبِه ، أو إلى الشكل الذى يُمْسِك الرجلُ الثِّقَابَ[١] به ، أو إلى الصورة التى تَتَجنب رِجْلُه بها حجراً ، أو إلى الحِذاء الذى يَلْبَسه، وفى لَحَظات الترددِ هذه التى تَسْبِق الاختيارَ ينشأ فى الغالب امتزاج مصيرَيْن عن الأسلوب الذى يُمْسِك به الرجلُ صَوْلَجَانَ اللَّعِب ويستعمله أمام المرأة أو عن أسلوبِ رفعِ المرأة ذراعَها من بين شَرِيط ثوبها لتَتَّكئَ بها على مَدْفأ ، والمصايرُ تفترق فى الأ كثر حتى قبل الامتزاج الأول المُقَدَّر ، وذلك لِما يَنْجُم عن نَمَطِ بَلِّ المرأة لشفتيْها من إقصائه أو لِما يَنْجُم عن ضِحْك الرجل غيرِ المناسب من تَبدُّد أحلامها ، والتناهى فى الرِّقَّة حين يكونان فى العَرَبةِ معاً ، وسَبْقُ المحاولة الأولى لموعدها نصفَ ساعة ، وقُضِيَ الأمر .

٤

إذا لم يكن الحبُّ كفاحاً فـكيف تَغَنَّى الشعراء منذ عَهْد الفراعنة البعيدِ حتى يومنا ، ويَتَغنَّوْن فى المستقبل ، بسلسلةِ مختلفِ الوسائل التى لا حَدَّ لها والتى تَرْبِط بين الاختيار الأصلىِّ والتسليم الأول ؟ ليس مما يُحْصِيه عَدٌّ علائمُ الصَّبابة المُبْكِرة التى تبدأ حتى قَبْلَ ربيع الحُبِّ ، فى فبراير الحُبِّ ، هى تمتدُّ من السَّذاجة إلى الهَزْل ، من الحَنان إلى المُجُون ، وهى تُفْضِى فى الوقت نفسه إلى الفاجع ، إلى التلاعب بالألفاظ والإشارات تلاعباً جَرِيئاً خبيثاً دَنيئاً فى الغالب .

(١) الثقاب : ما تشعل به النار من دقاق العيدان .

والكتابُ والقِرْطاس والزَّهْرة التى تُقَبَّل قبل إرسالها هى رِهانٌ تَشُقُّ عُباب العالَم ، وهى تدَعُ أقلَّ الشّباب خيالًا يُبصر من خلالها فى أُوَيْقات نادرة دُنْيا الشاعر ، وذلك لأن الحبَّ هو العمل الفنىُّ الوحيد الذى يُسْهِم فيه أكثرُ الناس تجرداً من الذوق الفنىِّ ولو مرةً واحدةً فى الحياة .

وبين الاختيار والتسليم تلوح معانى الكلام المزدوجة ، وبالمُضْمَرات تُسْتَبَر مناحى الآخر وتُسْتَشَفُّ مع إثبات تشابه الأذواق ، ومن ذلك أن يَقِفَ زوجان فى رُكْنٍ ويتحاورا فى مَعْرِض فَنّ ، فالرجلُ إذا ما امتدح جادًّا مُعَرَّيات مالُّو(١) عَرَف كلاهما أنه يُفكِّر فى صَدْرِ صاحبته ، وهو إذا ما أدْخَل يديْه إلى جيبيْه فى ذلك الوقت ووقف مُفَرْشِداً(٢) مُبْدِياً أمامها هَيَفَه الرُّجُولِىَّ ضاحكًا بما تَظْهَر به أسنانُه الحسنة الاتِّساق دَلَّ على أنه يَرُوم إثباتَ نشاطه وعافيته .

وتكون الحيواناتُ طاهرةً عاهرة معاً فتَسْتُر تحت رِيشها وصُوفها عُضْوَىْ تناسلها ، وذلك إلى أن تَبْلُغ أنثاها من الحرارة ما تستسلم معه فى نهاية الأمر ، فهنالك تستحوذ الغريزة على الحيوانات فى دَوْر هيجانها وفى دَوْر هيجانها فقط ، وترى الرجال الذين لا يَعْرِفون تلك الأدوار إلا نادراً ولا ينقادون لها انقياداً تامًّا مرتبطين فى طائفة من التقاليد مع ذلك مهما كانت سِمَةُ الحرية التى ينتحلونها ، ولِذَا يبدأ كفاح الإنسان الغرامىُّ أبطأَ من ذلك حتى عند خُلُوِّه من تلك السَّفْسطة التى تحاول عَوْقَه بها إرْجاءً لكلِّ لذة من أَرِيج الرَّاح أو طَعْم الثَّمَر إلى قَصْد البيت رُجُوعاً من نُزْهَة على تُؤَدة .

(١) مالو : مصور فرنسى (١٨٢٩ – ١٨٨٨) – (٢) فرشد : باعد بين رجليه .

وبعد الخِيار تَصْدُر عن كلٍّ من الزوجين(١) أعمالٌ تَسْبِق حَوْزَه لجسم الآخر ، ومن ذلك وُثُوب الرجل ليساعدَ المرأةَ على لُبْس مِعْطَفها مَسًّا لكَتِفيها ، ومن ذلك ما تُبْديه المرأة من غُنْج فى رَمْى مِنْديلها قاصدةً لَمْس يد الرجل حين التقاطه لها ، ومن ذلك مرورهما من باب يُضْطَرَّان به إلى التَّماسّ ، فلَحَظاتٌ كهذه تَمُرُّ فى الساعات الأولى عَقْباً للخِيار هى من الإثارة ما لا يَزِيد عليه هيجانُهما عند الالتحام التامّ ، وما يلازم الرياضةَ اليوم من شِبْه العُرْى يَحْرِم الشّباب ما يلازم اللقاء الأول من ذلك الاختلاج الذى كان العاشق يَتَرَدد فيه بين المِرْية(٢) والأمل ، فيَفسح فى مَجال الحبِّ البَيِّن المنطقىّ ، الآلِىّ تقريباً .

ولا يُمَثِّل العقلُ والقول فى ذلك غيرَ دَوْر الوسيط ، وهما كالأُطُر التى لا يَثِب منها فارِسُو المَلْعَب إلا ليَقْفِزوا من فَوْرهم ثانيةً على خَيْلهم ، ويتَذَرَّع الرجل بالمَكْر والمَهْر فيُغَيِّر براهينه بلا انقطاع حتى تَقَعَ المرأة فى الشَّرَك فتَهَبَ نفسها بكلمةٍ تنطوى على إذعان دَانٍ(٣) ، وهما إذا ما افترقا للمرة الأولى مساءَ خِيارهما الصامت فلكى يَذْكُر كلٌّ منهما فى عُزْلةِ غُرْفته كلَّ كلام وكلَّ نغَم وكلَّ تبَسُّم وكلَّ وَضْع ليد الآخر عند هذا اللفظ أو ذلك ، وذلك لِما لا يزال يُخامر كلا القلبين من شكٍّ فى كون ما حَدَث حقيقةً أو خيالًا ، ويسأل كلٌّ منهما نفسَه باتِّزانٍ عما يؤدى إليه جميعُ ذلك ، فتلك هى ساعةُ الفصل الفاجر للرجل على الأقل ، وذلك حين

(١) الزوج : هو كل واحد معه آخر من جنسه وهو ما تقابله فى الفرنسية والإنكليزية كلمة Couple وتقول للاثنين هما زوجان وأنت تعنى ذكراً وأنثى ، ولا نقصد هنا الزوجين المرتبط أحدهما فى الآخر بعقد النكاح وفق ما جاء فى الشرائع ، فلينتبه القارئ إلى ذلك فى مواضعه (المترجم) – (٢) المرية : الشك – (٣) الدانى : القريب .

يفـكِّر على ما يحتمل كما فعل عِفريت شُوبِنْهاور(١) وقتما قال : « هى ليست عندى خيراً من غيرها ولا أسوأ من سواها » .

والشكُّ يساورها أيضاً ، فهى تسأل أمام مرآتها قائلةً : « أيُحِبُّنى بالحقيقة ؟ » مُمهِّدةً جَعْدةً كما لو كانت تستطيع أن تُصَحِّح ما تركته من أثرٍ فى ناظرَيْه ، بَيْدَ أنها فى ذلك الوقت تسأل نفسها بقولها : « أأُحِبُّه حقًّا ؟ » ، ويخالط الكَرَى جَفْنَيْها فتنامُ بين مئات الأجوبة المتناقضة فيجيب عنها من بعيد مُفَوِّضاً تبليغها إلى أمواج لا تُدْركها الأبصار ، وقد يتَّخِذ هذه الأمواجَ بالفعل فيَمُدُّ يده مترددةً إلى سَمَّاعة الهاتف ، ويُبادهها(٢) النداءُ فتأتيه بأجوبة زهيدة ويتبادلان الابتسام حائريْن ، ويغدو الهاتف مُغْرِياً كبيراً ، والهاتفُ فى زماننا من ألطف الوسائل فى مطارحة الغرام ، والأسلوبُ الذى تُجيب به والنَّمَط الذى يَذْكر به أشـياءَ تافهةً مع طائفة من الصَّمْت الظاهر وما يدور فى ذهنه من تَنَوُّر الحال التى بهـا تَبْدُو له لو قُيِّض له أن يراها فى ذلك الحين ، وما يَرِدُ خاطِرَه من فكر جُنُونِىّ فى وجوب دعوتهـا له من فَوْره كلُّها أمورٌ تُثير وَجْدها ، ومن شأن هذا الـكفاح الغرامىّ الذى تَقُوده الآن إحدى الحواسِّ الخمس ، هـذا الكفاحَ الذى يَقَع بين أُذُن وأُذُن ، أن يُرْهِف شعورَ الرَّيْب .

وفى اللقاء التالى تُركَت للحواسِّ الخمس حريةُ السَّيْر فى تلك المسارب الجديدة التى فُتِحَت أمامها ، ومن القديم قيامُ الرجل بدَوْر الزعيم ، والويلُ للجيل الذى يَقْلِب الفُصول ، وليس حقُّ المبادرة للمرأة المُترجلة ولا للمرأة العَبْقرية ، فيجب أن

(١) شوبنهاور : فيلسوف ألمانى قامت فلسفته على الإرادة وكان كثير التشاؤم (١٧٨٨–١٨٦٠) – (٢) بادهه : فاجأه .

يكون الرجلُ أصلَ كلِّ شىء ، « هـذا ما كانت تقوله العَرَّافة وما كان يقوله الأنبياء » ، ولوِجْهة النظر هذه ترى السيطرةَ للتَّدَرُّج الذهبىِّ أو يَجِب أن يلوح أنه هو المهيمن ، والواقعُ أنها أبصرت كلَّ شىء يُرَغِّبه فيها ويُدْنيه منها ، وهو إذ اختار لون رَبْطة عُنُقه بما يَرُوقها اختارتْ كلَّ ما يروقه من طِيبها وجُزْئيَّات زينتها وألطف ثيابها الداخلية وإن كانت تَعْرِف أنه لا يستطيع الآن غيرَ تَصَوُّرها ، ولكنها تَعْرِف سِحْر المستور حين تَمُوج الحواسُّ طليقةً ويقتفى بعضها أثرَ بعض .

وفى الحين نفسه يتخابران(١) مع شخص ثالث تِلْقاءَ شخص رابع وشخص خامس ، فهو يقابلها من ناحيته ، مُتفرساً فيها عن كَثَب ، بامرأة أخرى دخلت منذ هُنَيْهَة ، فيشتعل قلبُه لِما يَجِده من أنها أجمل من هـذه الداخلة وأجذب بمراحل ، وهى تقابله من ناحيتها بزوج إحدى الصَّدائق فيَهْتَزُّ فؤادها من طِراز إجابته عن سؤال ، وتُهَلِّل صامتةً وتُسَرُّ من اختيارها عند ما تُبْصره يَبُزُّ الآخرَ روحاً وسَيْراً ، ويغدو اتفاقهما الخفىُّ أشدَّ مما كان عليه عند انصراف الزائرين .

ويَعْرِض مَوْعداً لمشاهدة شَريطٍ أو للغَداء فى مكان عامٍّ ذات يوم صافٍ ، ويكون هذا حين وَقْفه سيارةً فيَضْطربان لتَمَكُّنه من شَدِّ يدها أول مرة .

ويبدأ الفَتْح البَدَنىُّ بتلك الحركة التى انْتُظِرَت منذ زمن والتى لم يَسْبِقها غيرُ تماسِّ الأرجل تماسًّا خفيفاً ، ومن الممكن أن يكون أجرأ الآراء وأدقُّ الأفكار قد أُبْدِيا قبل ذلك ، ومن الممكن أن يكون الحديث حَوْلَ الربِّ والخلود قد دار قبل ذلك ، بَيْدَ أن تَماسَّ اليديْن الأولَ سيكون لهما إشارةً أو إنذاراً فيُورِثُ المرأةَ ضَرْباً من الدُّوَار فتزول كلُّ رُوحانيةٍ طَرْفةَ عَيْن ، وقبل الفتح قد تَمْضِى ساعات

(١) تخابرا : اختبر كل منهما الآخر .

وشُهُور مع ذلك ، فقد يُمْسِك المرأةَ ، أو الرجلَ بالحقيقة ، ما يكون من شعورٍ بأن الحين الملائم لَمَّا يَحِلّ أو ما يكون من ضَعْفٍ نَفْسِيّ على ما يحتمل .

وكلاهما يَشْعُر بأن تَماسَّ أيديهما فى تلك السيارة ينطوى على عَزْم من الطِّراز الأول و يشتمل على أساسٍ ما يَحْدُث فيما بعد ، ولا شىء يشابه هذه الحركة فى حياة الآدميين معاً ، ولا إحساسَ كالذى يَحْدُث فى الرجل عندما يُقبِّل يدَ المرأة التى تُقدِّم إليه و إن كان فى هـذه الحال قريباً من امرأة غريبة عنه ، واليومَ يَعْنِى مَسُّه قُفّازَها تسليماً يرُجُّهما .

أفلم تُقبِّلْ فى مساء الأمس خدَّ أبيها وخدَّ أخيها فتبَسَّما لها عن مَوَدَّة ؟ أفلم يتصافحْ آنئذٍ ألوفُ الناس فى تلك المدينة وفى جميع العـالم من غير أن يأخذ أيُّهم شيئاً من الآخر ؟ بَيْدَ أن جزءاً من جسمٍ يُسَلَّم هنالك للمرة الأولى مع غَمّ كالذى يساور الإنسان ولو لبِضْعِ ثَوانٍ عندما يَتَنَزَّل لشخصٍ آخرَ عن مال عزيز عليه .

٥

على الإنســان أن يَرَى من فوْره للمرة الثانية منظراً أو أثراً فَنِّيًّا أو شخصاً محبوباً ، فالخجلُ والوَجَل والدهشة والاستطلاع والشكُّ والاجتذاب مما يَحُول دون التمتع بعِيان رومة و بسَمْع أُغْنِيَة رُباعِيَّة و بصولةِ غرامنا الأول ، ولا تكون المقارنة التى يذهب بها العَجَب حتى لدى الولد وثقةُ الإنسان بألا يَضِلّ والخشيةُ الأولى القَصِفة التى تنقلب إلى ابتسامة لطيفة إلّا فى مقابلتنا الثانية لِما يستهوينا أولَ وَهْلةٍ من أناسٍ وأشياء .

وفضلًا عن ذلك ترانا نُعانى سلطان العادة فترانا فى كلِّ تجرِبة فُجائيَّة كالسَّبَّاح

الذى يُبْصِر من فَوْره فى بحار الجَنوب مساءً نجماً ساطعاً قد يأتيه بالخير أو الشَّرّ .

ولـكن الذى كان بالأمس بُداءةً مُثِيرة فتحَول اليومَ إلى إنجاز منتظر يَهَبُ لنا أولَ مَوْطِئٍ صغير نستطيع أن نتمسك به ، وهو كالدرجة الأولى التى نَنْحَتها فى الصخرة حينما نَتَسَلق جبال الألب ، واليومَ نَعُود من حَيْرة الأمس ومن رَجَّة الأمس إلى عالَمنا العادىّ الذى يجب علينا أن نَضُمّ إليه تلك التَّجْرِبة الجديدة بعض الضَّمّ .

ونَشْوَةُ اللقاء ثانيةً ! لا شىء فى الحُبّ يَعْدِل ما يَعْرِضه بتْهُوفِن[1] من الوَجْد فى ختام « الآلهة » ، ولـكننا نَجِدُ بعض هذا الوَجْد فى اللقاء الأول الذى يأتى بعد خِيارنا ، و يبتسم الآخر عندما نَدْخُل ، ولا تَلْبَث الفُيُوض والرؤَى والأَخْيلة أن تستحوذ علينا كمَوْج مُؤَيِّدَة حِيازةَ ذلك الشخص المختار بالأمس والمُزَيِّن بكلِّ فِتْنة بعدئذ ، والآن يَعْمَل عمله بينهما سِرُّهما الذى ظَلّ مكتوماً حتى ذلك الحين ويَعْظُم سريعاً بنَظَرَاتٍ لا يُدْرِك معناها أحد ممن حولهما ، وفى حالٍ نفسية كتلك إذ نَنْزِع إلى تفسير كلِّ شىء بما يلائم اختيارنا و إذْ نُقدِّرُ أن ذلك السِّرّ الوسيط جاء فى أثناء الخِيار بحُـكْم واضح وقام بتحليل منطقىّ وقَلَّب الأمور بحكمةٍ فأيَّدَ ذلك الخِيار فإن فؤادنا فى اللِّقاء الثانى يَصِيح فينا صارخاً بأننا لم نُخْدَع .

والآن يحاول كلٌّ منا فى لِباسه وأوضاعه وأحاديثه أن يأتىَ بكلّ ما يمكن أن يُؤَكِّد خِيار الآخر ويَزِيدَ فى إعجابه ، وتبلغ إرادة الاطِّراد فى التقدم لدى الشخصيْن من الشِّدَّة ما لا يُباليان معه بالنُّذُر الأولى كاستعمال عبارة نابية أو إشارة

(١) بتهوفن : من أشهر موسيقيى ألمانية والعالم (١٧٧٠ – ١٨٢٧) .

غريبة ، و باستحسان ثابت يَميل كلٌّ منهما بالسؤال ، و بالسؤال الذى لا ينقطع ، إلى كشف ماضى الآخر فضلاً عن طبيعته .

وما بينهما من ذلك الجُهْد النامى فأقلُّ علاقةً بعالَمِ الفكر مما بالذوق وأقلُّ علاقةً بالآراء مما بالأوضاع ، وهذه الظاهرة هى نتيجة للأساس الجُثْمانى والعامل البدنىّ فى خِيارهما الأصلىّ ، وهذا هو سبب أهمية الزيارة فى بيت المختارة التى لم يصادفها الرجل قبل ذلك إلّا بين أناس من الغرباء ، فهنالك يَكْتَنِهها من خِلال ذوقها بأحسنَ مما مضى ، ولا سيما فى خِدْر بسيط ، لا فى مسكن فاخر ، وعند الزيارة الأولى فى حجرته تبصر من جهتها ومن فَوْرها ما يَعُوزُه وكيف يمكنها تلافيه ، والرجلُ فى مثل هذه الحال يكون ظاهرياً أكثرَ منها على العموم ، فله بيانٌ فى استحسانها اللونَ الأحمر أعظمَ مما له فى دفاعها عن الديموقراطيات ، وهى إذا ما كان لديها طيورٌ فى قَفَص دَلَّته بذلك على ممكناتها العاطفية وعلى أثَرَتِها معاً ، وللرجل المُغْتَبِط فى طريقة التقاطها القِطَّ و إجلاسِه على رُكبتيها وطِرازها فى تحريك أصابعها كشفٌ لها أكثرَ مما له فى أفكارها حول الوضع العالمىّ ، ومن النادر أن تساعد المزايا الذهنية على إنماء الحبِّ الناشئ ، وهى تَقْتُلُه فى بعض الأحيان .

وقلما يُلْتزَم جانب الصمت فى غضون تلك المقابلات الأولى المُكرَّرة ، ويُتجاذَب أطرافُ الحديث ، ولكن مع كلِّ ما يحتمله اللسان من المُضْمَرات ، ومتى انتقل هذا اللسان من كلمة « أنتم ، أنتُنَّ » الاصطلاحية إلى كلمة « أنتَ ، أنتِ » الصميمية ، وهى لَحْظةٌ مؤثِّرة مُهِمَّةٌ أهميةَ أولِ شدٍّ لليد ، اكتسبت الرغبةُ الجُثْمانية فى امتلاك كلٍّ منهما للآخر منظراً رُوحانياً للمرة الأولى ، ولا يَعرِف الأنغلوسكسون غيرَ ضمير الجَمْع المخاطب فتراهم يَفقِدون تلك الفَيْنات اللطيفةَ فى الغَرام الناشئ ، وفى

اللغات التى يُزْلَق فيها من ضمير الجمع المخاطب إلى ضمير المفرد المخاطب ، زَلَق شوبر[1] من المَقام الموسيقىِّ الأكبر إلى المقام الموسيقىِّ الأصغر ، يمكن هذا الإحساسَ الجرىء أيضاً أن يزول فى بضع ثوانٍ ، وفى فرنسة تُبْصِر بعض الأزواج المتأهِّلين يعودون إلى ضمير الجَمْع المخاطب ، وفى تَقَلبات الحبِّ عَرَف كلٌّ ألمانىَّ من الأُوَيْقات ما رَغِب فيه أن يلجأ إلى أَمْنِ ضمير الجَمْع المخاطب .

والشِّفاه التى تُقَبَّل هى فى الغالب أولُ ما يَصُوغ ضميرَ المفرد المخاطب ، ولكن السُّبُلَ هنالك ذاتُ مهالكَ ، وما فى الرجل من تَرَدُّد ، وما فى المرأة من حياء ، وما فيهما من بطوء هوائىّ ، أمورٌ يمكنها نقلُ القُبْلة الأولى إلى موضع فى العُنُق أو الشعر كان مركزَ جَذْبٍ طويلَ زمنٍ ، و يَشْعُر كلٌّ منهما ببقاء الكفاح هَيِّناً و بسهولةِ الرجوع ما دامت الشَّفَتان لم تلتقيا ، فالقُبْلةُ الحقيقية هى التى تُوَطِّد العهد .

فَيْنَةُ القُبْلة الأولى أحسمُ حينٍ فى تاريخ الحبِّ ، فهى تُغيِّر الصِّلاتِ بين شخصين أكثر مما يُغَيِّرها التسليم النهائىّ ، وذلك لِما تتضمنه القُبْلة الأولى من هذا التسليم

والحقُّ أن الكفاح الغرامىَّ فى تلك اللحظة يختلف عن كلِّ كفاح ، والحقُّ أن ذلك الكفاح هو عملٌ رُوحانىٌّ يأخذ فيه الشخصُ مثلما يُعطِى ، وفيما ترى العاشق فى كلِّ ثانية يتورط فيمن يَعْشَق بأعمقَ من قبل لِما يَشَمُّه من نسيم حياتها وما تَشَمُّه من نسيم حياته ترفعهما تلك القُبْلة إلى عالَم خالٍ من المآرب الأخرى ، وما يعترى الفتيان فى تلك اللحظة من ثَمَلٍ ومن خوفٍ لطيف فإنه يُورِدهما حتى مواردَ الرَّدَى ،

(١) شوبر : ملحن نمسوى (١٧٩٧ – ١٨٢٨) .

وهما يشعران بأن أبعد المعانى غَوْراً فى حياتهما قد تَحَوَّل من تلك الفَيْنة .

ويَنْشُد الرجالُ العُزْلةَ لأَجْل ذلك الاتصال كما يَنْشُدونها للعبادة والموسيقى ، ولا أحدَ يحتمل وجود الغرباء فى تلك اللحظة ، حتى إن وجودهم فى الجَوْقات العامّة يَبْدُو غيرَ لائق ، وفى الصُّوَر المعروضة كما فى الصُّوَر المتحركة تُثير القُبْلة من النفور أكثرَ مما يُثيره عَرْض العمل الجنسىّ تقريباً ، وفى دار الغناء حيث يكون أحد العاشقَيْن بجانب الآخر يُطْلِق هذان العاشقان أيديَهما المتشابكة مُغْتمين عند مشاهدتهما ذلك المنظر من مَقْعديهما ، والعاشقان فى فصل تريستان ، لِڤاغْنر[1] ، يَبْدُوان مرتعشَيْن من قُبْلَتهما الأُولى فيوجب هذا ارتعاشَ ذَيْنِك العاشقَيْن أيضاً .

ومن الممكن أن نتمثل ونَصِفَ غراماً يَشْتد حتى القُبْلةِ الأولى فينتهى بهذه القُبْلة لكيلا يُكَرَّر أو يُبْخَس ، ولولا تلك القُبْلة لظلت الصورةُ أثيريةً غيرَ هَيُولِيَّة كما عند دانْتي ولَخَسِرت كلَّ قدرة على الإيحاء ، ويُبْلَغ الإنجاز بعد تلك القُبْلة ، ويَبْلُغ الحُبُّ بذلك حَدَّه فلا يَتجدد .

والروايةُ تبدأ بعد ذلك مع ذلك ، وبين القُبْلة وتسليم المرأة قد تمضى دقائقُ كبعض ليالى السُّكْر أو سنواتٌ كما بين غُوتِه وعقيلة فون شتاين ، ولا يَتْرُك الكفاح السليم الطبيعىُّ مجالاً لذَيْنك الحَدَّيْن بين الفعلين ، وما يمكن أن يؤدىَ إليه عدم الوقت المناسب أو دهاء الرجل أو تَجْرِبة المرأة من تأخير موقت للوصال فموقوفٌ على شخصيتهما وماضيهما ، وهذه هى مسئلة ذوق أكثرَ من أن تكون مسئلة هوًى ، وستندال[2] يقول مؤكِّداً بوجود اتحاد بين وَجْهَى الحُبِّ هذين .

(١) فاغنر : ملحن ألمانى كبير (١٨١٣ – ١٨٨٣) – (٢) ستندال : كاتب روائى فرنسى (١٧٨٣ – ١٨٤٢) .

وهنالك أزواجٌ بُسَطاء قد يَتَعثرون فى فَترات اللَّهْو تلك نتيجةً لعدم التَّجْرِبة فيُوجِب هبوطُ الوَجْد إلى القنوط انتحارَ الشّابِّ العاشق فى بعض الأحيان ، ويشابه هذا الشابُّ المجنونَ العاجز عن أن يكون عضواً فى عالَم مُنَظَّم ، فهو الحديث بالحبِّ الذى هَيَّجه غرامه الأول ، فيَسير مع الهواجس غريباً فى الطُّرُق المألوفة ، ويَسير مع الهواجس دَوْماً فينجز أعماله اليومية فى بَيْته بين إخوة وأبوين كان يَمُدُّهم حتى ذلك الحين من نَصِيبه ، ويَشْعُر من فوْره ، ويَشْعُران من فَوْرهما ، بأنهما فى مَعْزِل عن الآخرين ، ويُحِسَّان أنهما فى عُطْلة فيساورهما السرور والخوف معاً لما يكاد وجْهُهما يَنِمُّ عليه فى المنزل والشارع من هُيامهما الباطنىّ ، ويلوح لهما أن الدنيا تَغيرت حولهما ، ويكون لِما يُبْصِرانه من ثَوْب أو قِرْطاس أو ثَمَرة أهميةٌ عظيمة ، وتغدو هذه الأشياء فى أيديهما رموزاً حقيقيةً تنتعش بها أحاسيسُهما .

ثم يأتى دور الاعتراف على استحياء فيُوضِح كلٌّ من العاشقَيْن للآخر سبب رفضه الخمرَ فى ذلك الحين ، وسببَ مَدِّه اليدَ إلى طاقة من الزهر ، وما كانت تَدُلُّ عليه تلك النَّظْرة الحادة ، فيُشابهان بذلك رَبَّانَيْن عدوين يجتمعان بعد سنين من معركة بحرية فيُفَسِّر كلٌّ منهما للآخر عِلَل حركاتهما السابقة ، وهذا يجعل ما ينطوى عليه الحُبُّ من اصطدام أمراً بَيِّناً على الدوام .

وفى البُداءة يَبْدوان مشغولَى البال إلى الغاية ، ولكنهما بالأمس كانا أنيسين مسرورين فلَعِبا مع بعض الأصدقاء ، والحياةُ كانت سَهْلة مُشْرقة سائغة ، ولكنهما لم يَلبثا أن شَعَرا بأنهما منفردين لانفصالهما عن موجود كانا يَجْهلانه حتى صباح أمس ، ولا تكون السَّوْداء التى تَبْرُز كعِطْر لازم من زهر الغرام أكثرَ أثراً وأعظمَ خَطَراً فى دَوْرٍ كما فى الشباب ، والحقُّ أنها وَقْفٌ على

الفَتاء[1] كما أن جِدَّ الحياة الجليلَ ومسائلَ الحكمة وأشاغيلَ المصير البشريِّ من خصائص الفِتيان ، وهكذا تُبصِر الفَتاء وحدَه يعتنق الحبَّ على نَمَطٍ أوَّليٍّ لما لا يعْرِف فيه غيرَ الأوَّلِيَّة ولأنه مُحِبٌّ للحياة فى مجموعها حُبًّا يَبْدُو فيه كلُّ أمر جديداً كريماً باسطاً لكلِّ شىء ، والفَتاء يَهُزُّه الحبُّ كما لو كان الحبُّ جوهرَ الحياة ، والحبُّ هو جوهر الحياة حقًّا ، والمتفنن هو الذى يَعْرِف هذا السحر فيما بعد .

ويظلُّ فَتَى فيغارُو ، كرُوبينُو[2] ، ألطفَ صورةٍ لذلك الجنون الساحر الذى يَبْدُو لنا مُجَدَّداً فى الألوان التى اختارها كُورِّيجْيُو[3] فى أجنحة مَعَاشقه ، ولا شىء أحسنُ من مُوزَار[4] الذى تمايل بين النساء كغلام دائم فخلَّد فِتْنَة الفتى القَلُوب[5] الذى يتنقل بين الغَوَانِى قائلاً لكلٍّ واحدة منهن : « أنتِ التى تعرِفين معنى الحبِّ ! » .

يا لَانْتقال العاشقيْن الشابَّيْن الحَدَثين المسحوريْن إلى ما وراء نفسيْهما من فَوْرهما ! وهذا اليومُ يبدو خالياً . . . كلاَّ ، هو مملوء انتظاراً ، وذلك لأن جميع الأفكار والآمال تتَّجه نحوَ تلك اللحظة الوحيدة التى يرى أحدُهما الآخرَ فيها مرةً ثانية ، هى تسأل فى نفسها تِباعاً : هل يَقِفُ فى المَعْبَر ؟ هل تراه على الرصيف حالاً ؟ هل يصافحها أو يُقَبِّلها أو يعانقها أمام الجميع ؟ وفى اليوم كلِّه هو يسأل فى نفسه : هل تنتظره سرًّا أو عَلَانِيَةً ؟ هل تَلْبَس ثوبها الأزرق ذاتَه ؟ هل تُضِيف إليه زهرةً ؟

(١) الفتاء : الشباب — (٢) كروبينو : ملحن إيطالى مشهور (١٧٦٠ — ١٨٤٢) .
(٣) كوريجيو : مصور إيطالى مشهور (١٤٩٤ — ١٥٣٤) — (٤) موزار : ملحن نمسوى شهور (١٧٥٦ — ١٧٩١) — (٥) القلوب : كثير التقلب .

هل يزيدها القُفَّاز زينةً وإن كان يحول بينه وبين حرارة أدَمها[1] ؟

ثم يجرى كلُّ شىء على خلاف ذلك ، فكلٌّ منهما يَنْسَى ما كان يَدُور فى خَلَده فلا يَجِدُ ما يقوله ، وقد يَتَبَسمان ارتباكاً هازَّيْن ذراعَيْهما كالأولاد ، ويُحَرِّك الحبُّ الأول أصحابَ الأمزجة الحسَّاسة كثيراً لما يُلْقيهم فى حال من اللاشعور ذى الحُبُور ، فيُحِسُّون إذْ ذاك أنهم يُقْذَفون معاً فى مجاهل حياةٍ أوسعَ مما هم عليه ، وما كان من سذاجة مُعْظَم الأحاسيس ومن بلادة مُعْظَم الناس وعدم اكتراثهم فيُفَسِّر الأمر القائل إنه لا سقوطَ لشابٍّ من هذه الطائرة التى لا يمكن ضبطها فى أثناء طَيَرانها .

والناسُ ، لأنهم جرَّبوا أشدَّ مشاعرهم فى غُضُون شبابهم ونَسُوها ، يَنْظُرون مُتَبَسمين من خِلال عَيْشِهم المَصُون الحَنُون إلى ما يُسَمُّونه غرامَهم الأول ، والناسُ ، من فوْق كُرْسِيِّهم الهَزَّاز الذى يَدُلُّ على ما يجِدُونه من الاتِّزَان فى نهاية الأمر ، يَهْزَءون بدَوْر التردد ذلك ، وفى هذا سِرُّ حَلِّ كثيرٍ من عُقَد النكاح ، والمرأة مع السنين أقلُّ من الرجل ميلًا إلى العدول عن الحبِّ المُثِير لخيالها ، والأحاسيسُ الكُبْرَى تَنْشأ على العموم بين الثلاثين والخمسين من سِنِّ المرأة ، أى فى دَوْر يُوَجِّه الرجلُ همَّه فيه إلى مُعْتَرَك الحياة والثَّرَاء والمقام الاجتماعىِّ والصيت ، فترى وقت المرأة أوسعَ من وقت الرجل فى ذلك لذلك .

وينشأ ذلك الفرقُ بين ذَيْنك الدوريْن عن عناصر الجنسيْن الحيوانية ، فالرجلُ وظائفيًّا يَسْعَى إلى التحرر من وَفْر ، فيجعله هذا أقلَّ ميلًا وأقلَّ استعداداً لإطالة الحبِّ وتعهُّده وتَصْفِيَته من المرأة التى تَمْتَصُّ وظائفيًّا مقداراً فمقداراً ، ولذلك

(١) الأدم : البشرة .

ترى الحبَّ عنصراً حقيقياً فى جميع النساء فلا يَشْبَعْن منه أبداً ، لا فى جميع الرجال على العموم ، ولا فى جميع الأدوار مطلقاً ، وفيما تُسَيِّر الطبيعةُ المرأةَ تماماً نحوَ الحبِّ الذى يكون الأولادُ عنوانَه الظاهر فقط فتملأ خيالَها به يندفع مُعْظَم الرجال مع المُغْريات آلياً ، وفى الزواج يكون الرجل خائناً عن زَهْوٍ أو عن هَوًى أو لِيُثْبِتَ بقاءه شاباً لنفسه ، وفى الزواج تكون المرأة خائنةً سيراً مع خيالها ، والمرأةُ تصدر مغامراتها عن ينابيعَ بالغةِ العُمْق لأنها دون الرجل غروراً بطبيعتها .

وإذا كان دَوْر الوَلَع الأكبر يُبْكِر فى الرجل أكثرَ مما فى المرأة عادةً فإن أعمال الحُبِّ تنبجس فى الفِتْيان وفى الفَتَيات اللَّائى هُنَّ أسنُّ منهم بحكم الطبيعة ، وهى تؤدى إلى أروع أزهار وإن كانت تنتهى بفاجعة فى الغالب أو بغمٍّ على الأقل ، والمرأةُ اليانعة[1] تتمتع بحبٍّ مُسْتَأْنَف[2] بين ذِراعى الفتى اليافع[3] ، وفى تلك الحال يبلغ شأنها الغريزىُّ كنصف خليلة ونصف أمّ من العُمْق درجةَ الوَجْد الروائىِّ ، وهو يَجِدُ من ناحيته فى الخليلة الأسنِّ منه حُبّاً خالياً من الوَجَل والدَّهَش اللذين يلازمان تدانى الشابَّيْن الحَدَثَيْن على العموم ، والحبُّ إذْ كان فنّاً لا يُحَصَّل إلَّا بِتأنٍّ فإنه يغدو واضحاً فى أثناء نُشُوئه بين شابَّيْن لا يَطَّلعان على سِرِّه إلا بعد أن يصبح كلٌّ منهما مُلْكَ الآخر فى سنوات . وحتى بعد أن يُنْجِبا بأولاد فى بعض الأحيان .

وقُلْ مثل ذلك عن حبِّ الفتاة اليافعة لفتًى بالغ وهُيامِها به ، فهنالك تَجِدُ أروعَ صُوَر الغرام ، وهنالك تَجِدُه يُثِير إعجابها عِدَّة من التوافه التى تَنِمُّ على فَهْمِه على حين تفتنه

(١) اليانع : الناضج – (٢) المستأنف من الأمر : الذى لم يسبق إليه – (٣) اليافع : الذى راهق العشرين .

بمنظرها الصِّبْيانىِّ أكثر من ذلك ، وصِلاتٌ كتلك مما يَجِب أن يكون جزءاً من التربية ، ولا شىء أحسنُ من صديقة شابَّة لأُمِّه فى إدخاله إلى حَظِيرَة الحبِّ ، وما كان القدماء الذين عَرَفُوا الحبَّ أكثر مما نَعْرِف ليَجْهَلوا ذلك ، والقدماء كانوا يُدْمِجُون الحبَّ فى الدين بدلاً من معارضته به ، وما كانت آنية الأغارقة وتصاويرُ هِرْكُول[1] على الجُدُر لتدلَّ على ذلك وحدَها ، بل تبصر برهاناً عليه فى رَسْم تِيسْيَان[2] لبَاخُوس[3] ، وقد أَلْبَسَت النصرانيةُ المسئلةَ ثَوْباً من الظلام لحظْرها الحبَّ بلا زواج ولمباركتها الزواجَ حتى بلا حُبّ .

وما السبب فى أن البالغين (بأَثِينَة) الذين يَتَمَثَّل الفَتاء فيهم كانوا يصاحبون يوانعَ النساء على الدوام إلهاتٍ كان هؤلاء أو بَشَراً ؟ وما السبب فى أن أجمل البنات كُنَّ يُبَاغَتْن فى كلِّ وقت من قِبَل طائفة من الآلهة أو أنصاف الآلهة الذين يمكن أن يكونوا لهنَّ من الآباء ؟ سببُ ذلك فى أن الحبَّ إذا كان وَلَعاً جوهرياً فإنه فنٌّ لا يُعَلِّمُه تلميذٌ لآخر .

ثم إذا كان التوازن الغرامىُّ غيرَ متوقف على السِّنِّ فإنه يتوقف فى الأقل على الجوِّ الروحىِّ المنسجم الذى يلتقى فيه غريبان ، فمن أَجْل ذلك قد يَقَع شخص فى هَوَى آخرَ ذاتَ وقتٍ ولو تلاقَيَا قبل ذلك مع عدم اكتراث ، ومن ذلك أن غُوتِه حاول أن يُعَيِّن هذه الأدوار فى نفسه فوجد أنه كان يَشْعُر فى بعض الأوقات بأنه جافٌّ عاطلٌ من الشهوة على حين يَجِدُ جَذَلاً فى نُزَهٍ أخرى عالماً بأنه سيصادف غراماً ولو جَهِل المرأة التى سيواجهها .

(١) هركول : أشهر الأبطال فى الأساطير اليونانية – (٢) تيسيان : مصور إيطالى (١٤٧٧ – ١٥٧٦) – (٣) باخوس : إله الخمر عند الرومان .

ولتلك الأمزجة الغرامية انعكاساتٌ فى الرِّيف أكثر مما فى المِصْر، فالحبُّ يتطلب حياةً رعائيَّةً لا كَدًّا ، وفى الأمثال : « العُطْلَةُ أُمُّ كلِّ عِلَّة » ولو استبدلنا كلمة « الشهْوة » بكلمة « العِلَّة » لكان خطؤنا قليلاً إلى الغاية ، ولا ينبغى أن تُزْدَرى « العُطْلَةُ » وَفْقَ آداب الطبقة الوسطى ، بل يجب أن تُنْشَد مصدراً للفلسفة والشعور ، ولدينا أناسٌ من صَفْوة الناس ، كغُوته ، عاشوا قريبين من العناصر فكان عليهم أن يَغُوصوا فى العمل لكيلا يَغْرَقوا فى ضُرُوب الشَّهوات .

وإذا ما عاش أشخاصٌ فى بيت ريفِيٍّ حيناً من الزمن أو فى قرية جَبَلِيَّة معاً قُضِىَ عليهم بأن يتَعَاطَوْا أعمال الحُبِّ، فما يكون من نُزَهٍ مع سِحْر الصَّمْت والمناجاة والحديث فيؤدى إلى ارتياد كلٍّ من الرجل والمرأة لقلب الآخر . وما يكون من مجاوزة الرجل قَرْيَةَ نَمْلٍ[1] أو اجتنابه إياها وما يكون من حَذَرٍ فى خُطاه آنئذٍ فأمورٌ يكون لها من المعنى عند المرأة ما يكون عنده لطِرَاز دفاعها عن أناس فى أثناء مجادلة بحِدَّة أو بوضوح ، وهذا إلى أن تلك الفَتَرات تُلطِّف ما يجعل أصدقاؤُنا وأعداؤُنا عالمنا العاطفىَّ بغيره ، والحقُّ أن ذلك جوٌّ تنمو فيه المعاشق بأكثرَ وأرقَّ مما بين الأشاغيل والمِصْعد والهاتف .

وهل يمكن رجلاً يَقْضِى كلَّ مساء فى بيت ريفِىٍّ قليلَ وقتٍ مع امرأة جميلة الثياب فيرافقها إلى باب غرفتها أن يُقْصِىَ عنه ما يَعْلَق بذهنه من خيالها فى الساعات التسع التى تلزم فيها تلك الغرفة ، وذلك عند ما يراها ثانيةً فى الصباح مرتديةً لباساً رياضيًّا ، وأن يُبْعِد عنه صورتها فى تلك الفَتْرة من الزمن ؟

ولْنَفْرِضْ وجودَ ثلاثة رجال فى منزل واحد وفى وقت واحد يَحْمِلون أفكاراً

(١) قرية النمل : مجتمع ترابها .

واحدةً حَوْلَ امرأة واحدة أهلٍ لتُحَبَّ ، ولْنَفْرِض أن أحد هؤلاء الثلاثة هو زوجُها وأن الآخرَيْن صديقان للمنزل ، فهل يدوم حالٌ كهذا طويلَ زمنٍ من غير هيجان بين رجال سليمى الحواسِّ ؟ أفلا يُلاحِظ الزوجُ نفسُه عن حِرْصٍ بعضَ ما يَصْدُر عنها من اختلاجات ما لم يكن من رجال الأعمال فقط ؟ هى لا بُدَّ من أن تكون قد أبصرت منذ زمن أىُّ الرجلين قد فَضَّل بعض الطِّيب وأيُّهما قد أُعْجِب بفَتْحة الصَّدْر من ثوبها ، فيمكن هذه الظاهرةَ الغرامية أن تُورِثها اضطراباً وأن تُحْدِث فيها أَزْمَةً ولو لم تَبْتَغِ شيئاً من أىٍّ واحد منهما .

حقًّا أن المنزل الرِّيفىَّ عِلَّةُ هذا كلِّه ، وأن أمراً كهذا لا يَقَعُ فى شَقَّة منزل من منازل المدينة ، وضِعافُ الأمزجة وحدَهم هم الذين يتَوَجعون من مثل هذه الأحوال فيحاولون اجتنابَها ، وإذا كانت الفرصة لا تُوجِد لُصوصاً فقط ، بل توجِد عُشّاقاً أيضاً ، فإنه يجب ألَّا تُعْطِى أكثرَ من لقب « ناظمة المَعاشق » الذى تُعْطاه الحياةُ نفسُها .

٦

الظَّفَرُ بالمرأة المختارة من غير شَرَس ، أو إخراجُ النور من الظلام ، عملٌ جَرِىءٌ يَخْشى به حتى أصحُّ الأبدان أن يُكْشَف مع رغبة هذه الأبدان فى هذا الكشف ، وهذا الميلُ إلى امتلاك الآخر وهذا الرَّوْمُ[1] الهائل للتَّثَنِّى فَناءً فى الآخر لا يتفتحان للمرة الأولى إلا فى ثَمَلٍ أو جنون ، والشخصان بعد الاختيار . والكفاح الأول يَضْرِبان « الساعة الثالثة من بعد ظهر الثلاثاء » موعداً ليقترنا أول مرة ، وهما لا يَصِلان

(١) رامه : أراده .

إلى مستوى التَّدَرُّج الذهبيِّ فى ذلك مع ذلك ، والدَّلَهُ[١] الكَلْبِيُّ وحدَه هو الذى يَحْفِزُ ذَيْنك البالغيْن إلى مثل ذلك القرار .

ولا بُدَّ من أن يكون الإلهُ الذى يؤدى إلى ذلك الثَّمَل الأول هو ديُونيزوس[٢] ، هـذا المائدَ[٣] المُتَرنِّحَ[٤] المولود قبل الأوان ، والخمرُ من عهد أُميرُس[٥] إلى عَصْرِ فَخَمِ الفنادق ومن المتفنن الكامل إلى الرقص الزِّنْجِيِّ كانت ولا تزَال أقدمَ حارسٍ لإيرُوس[٦] فاضحةً لأعمق معنًى فى جنونه .

ويمكن الرقصَ ذاتَ مساءٍ وفى أثناء كفاح غَرَامِيٍّ فى الجسم أن يؤثر فى شخصين كانا مترددين حتى ذلك الحين فيتمازجان عن كَثَبٍ تمازجاً لا يتأخر التسليمُ معه ، ومن شأن وَضْع لطيف يَزْلَجُ[٧] به الرجلُ خُطْوَةً حين رَقْصه مع المرأة أن يوجب تسليمَ المرأةِ نفسها إليه مختارةً فى المساء نفسِه ، واليومَ لا تزال شعائر أُورْفه[٨] الثلاثةُ القديمة ، وهى الرقصُ والموسيقَى والخمرُ ، أدِلَّاءَ الحبِّ الغنائية ، ولذا تَجِد الرجال الذين يَكْرَهون الخمر لا يُدْرِكون غيرَ جزءٍ من الحبِّ ، أجَلْ ، قد يكون النساء اللائى يَقْرِنَّ الخمرَ بالكحول والرجالُ الذين يُباهون باجتنابها ذَوِى وَلَد ، ولكنه لا ينبغى لهم أن يَزْعُموا أنهم عَرَفوا الحبَّ .

وما يَحْدُث فى تلك الساعات الأولى هو جنونٌ فى الحقيقة ، ومن الحَسَن أن كان الأكثرُ غير شاعر بذلك ، والتصرف فى شخص يَعْنى إفناءَه فى الواقع ، والحبُّ هو الوسيلة التى يُبِيد بها الإنسانُ نِدَّه[٩] منذ القتل الأول للأخ ، ولكن كلَّ

(١) الداه : ذهاب القلب — (٢) ديونيزوس : إله الخمر باخوس — (٣) المائد : الذى أصابه دوار من سكر — (٤) المترنح : المتمايل من سكر — (٥) أوميرس : شاعر يونانى مشهور تنسب إليه الإلياذة والأوذيسة — (٦) إيروس : إله الحب لدى اليونان — (٧) زلج : زلق .
(٨) أورفه : أعظم موسيقى ذكرته أساطير اليونان القديمة — (٩) الند : المثل .

ما يُقَيِّد حياتنا المشتركة هو معكوس هنا ، فبينما يَغْتَطى الرجل أمام رجل آخر فى جميع الأحوال ويَغْدُو حَذِراً بصيراً إذا ما أرْخى الليلُ سُدُولَه يَحْدُث هنالك ما لا يُصَدَّق حين يَعْرَى الرجلُ من ثيابه أمام الجنس الآخر ثم ينام غير مكترثٍ ، والكتابُ المُقَدَّس يدعو ذلك دِرايَةً ، فيَالَغَوْر مَعْنى هذه الكلمة !

وعن ذلك ينشأ ما يَقْرَؤه العاشق من دَهَش فى عَيْنَىْ خليلته حينما يَصْحُوان من سُكْرِها ، وفى ذلك سِرُّ الوَقَفات الصامتة التى جعلها ڤاغنر فى تقاسيم تِرِيسْتان حيث نَطَّلع على الصِّلَة الوثيقة بين الموسيقَى والحبِّ ، ذَيْنك المصدريْن لأعمق الاختلاجات التى يرتقى بها الرجلُ إلى ما فَوْقَه فلا يَقْدِر على ذلك الارتقاء بدونها ، وذلك كما لو كان أمام نفائس الطبيعة فيَقْبِض على كلِّ وجه منها بوَجْده أو يَمَسُّه بوَلَهه .

والحقُّ أنك لاتَجِدُ من الفنون ما يُظْهِر الحبَّ رأساً سوى فَنَّيْن : سوى التصوير بلَمْس عُرَاته وسوى الموسيقَى بغير مَسٍّ حركاته ، ولا يمكن الشِّعْرَ أن يبلغ ذُرَا ذَيْنك المثليْن التَّامَّيْن للحِسِّ ، ولِما وراء الحس على الخصوص ، ولا يستطيع أدعى الأشعار إلى العَجَب غيرَ الاقتراب من الموسيقَى ، ولا تَقْدِر هذه الأشعار على وَصْف الحبِّ قُدْرةَ فنِّ جيورْجيوني[١] وليُونارْدُو[٢] ، والقِصَصُ والرواياتُ قد عالجت دَوْماً ما بين الحبِّ والمجتمع وما بين الطبقات من اصطراع ، وهى قد عالجت المُعْضِلاتِ العابرةَ التى لا ترتبط فى عناصر الحب الأساسية برابطة .

والكفاحُ بين مزاجيْن مختاريْن فى سبيل ما يَقْدِران على ابتنائه معاً أو

(١) جيورجيونى : هو من أكبر المصورين على الطريقة (الفينيسية) (١٤٧٨–١٥١١) .
(٢) ليوناردو : متفنن فلورنسى مشهور (١٤٥٢ – ١٥١٩) .

اصطراعُهما أمرٌ لم يَقَعْ وَصْفُه إلا نادراً كما فى أُسْطُورة تريسْتان[1] القديمة ، أو فى الحين بين الحين من قِبَل شليغل[2] وديهمل[3] وستندال وفلوبر[4] ، ولا تُبْصِر شاعراً استطاع أن يقول أموراً بعيدةَ الغور عن الغرام كما اشتملت عليه الأقدار الأربعةُ والعشرون من الأغنية التى جاد فيها كارْمِن و إسكاميلُّو بنَفَسَيْهما.

وتكون الصدمة التى تَلِي التسليم البدنىّ من الشمول ما لا يُخَفِّف غَمَّ الرجل معه سوى ابتسامة المرأة ولا يُلطِّف خَوْف المرأة معه غيرُ حماية الرجل ، ولم يَتَّفِقْ لأحدهما فى حياته أن وَجَد نَفْسَه مثلَ ذلك قريباً من وجه صديق مهما بلغ وُدُّه .

والآن تَبْدأ الساعة ، والآن تبدأ الساعات التى يَدْرُس أحدُهما الآخر فيها بنظر لا يَكِلّ على ضوء مصباح خفيف النُّور ، والآن يَجِدُ كلٌّ منهما صُورَته فى عَيْنَىْ صاحبه بما يُثِير الحَيْرة ، وتنقلب هذه المعجزة إلى سِحْر عند ما تَعْكِس العيون البُنِّيَّةُ عيوناً زُرْقاً أو عند ما تَعْكِس العيون الدُّجْنُ عيوناً لامعة ، وتستحوذ الفِتْنة على كلا الزوجين وتُمْسِكهما صامتَيْن برُقْيَتها على حين تَلْمس أيديهما اللَّيِّنةُ استدارةَ وجهيْهما ، ثم تقع أبصارهما على جسم لم تَدْنُ منه أيديهما حتى ذلك الحين ، وترفع ذراعَيْها ، ويَرْفَع ذراعَيْه قريباً منهما ، وتُبْصِر ويُبْصِر ، وتُقابِل ويُقابِل ، وتَبْتسم ويَبْتسم ، ثم يَتَماسَّان تَماسَّ الآلهة .

وذلك الصباح الذى يستيقظ فيه شخصٌ شابٌّ غيرُ وحيد للمرة الأولى هو أعظم دور فى حياة هذا الشخص ، فهو لا يُقَاس بأىِّ صباح كان ، حتى باليَقَظ بين كُتَل

(١) تريستان : أسطورة من أساطير الحب فى القرون الوسطى ، وقد جعل منها فاغنر أحد موضوعاته الغنائية – (٢) شليغل : اسم لأخوين ألمانيين شاعرين ناقدين (١٧٦٢ – ١٨٤٥). (١٧٧٢ – ١٨٢٩) – (٣) ديهمل : شاعر ألمانى (١٨٦٣ ١٩٢٠).
(٤) فلوبر : كاتب روائى فرنسى (١٨٢١– ١٨٨٠).

الجليد ، حتى باليَقَظ على شاطئ البحر ، حتى باليَقَظ على فِراشه بعد عودته من سياحة طويلة هَابًّا من نَوْمه مُشْفِقاً فَرِحاً .

واللقاء الثانى هنالك حازمٌ أيضاً ، فيجب على العاشقيْن ، وهما كالجائع الذى لا يستطيع أن يَتَذَوَّق الطعام اللذيذ ، أن يُوَفِّقا بين بَدَنَيْهما بتعارف وَئِيد متصاعد على مَهْل ، وما الحبُّ الجنسىُّ إلا كَذَوَىْ مزاجيْن متماثليْن يختار أحدُهما الآخرَ عند النَّظْرة الأولى على أن يتعارفا ويتغانيا ويتطابقا بعدئذ ، ويَتَطَلَّب الحبُّ الجنسىُّ غيرَ تَماسٍّ ليَبْلُغَ تَمامَ التجانس ، وفى البُداءة لا يُحقِّق ما فيه سِرُّ كلِّ حبٍّ سعيد من انتصار المتصارعيْن معاً ، شأنُ ألحان البيان والكمان فى أول تمرين ، ومن ثَمَّ كانت فجائع كثير من المَعاشق .

وإذا كان عُرْىُ الأبدان قد يَعْقُبه قُنُوطٌ لا يُبْصِره نَظَرٌ سابق فإن سَجِيَّة المختار قد تُكْشَف بجملة أو كلمة كشفاً جافياً ، وإلى الآن لم يَأْلُ كلٌّ منهما جُهْداً فى الظهور بمظهر الأنيس اللطيف المعصوم من الأَثَرَة فوُفِّقا لذلك فى الحقيقة ، وقد زاد إفرازها الغُدَّىُّ تَوْقَهما وقوَّاه حتى بَلَغا درجة يمكن أن يقال معها إن كلاًّ منهما « يَمْلِك » صاحبَه ، ولكن ناظر[1] أحدهما المِقْدامَ أو المُقَنَّعَ سابقاً يمكنه الآن أن يتّجه إلى الآخر بما فى الحيوان الراتع[2] من بَصَر كاشف ، والساعةُ عصيبةٌ جدًّا لتوَقُّف أمر المستقبل عليها ، وبيانُ الأمر هو : أن ذلك التَّوْقَ ، وقد بَلَغ غايتَه ، هل يَتَحَوَّل إلى شَغَف[3] بارز يدُوم طويلاً أو هل يَهْبِط إلى مستوى الحياة العادية ، وفى الصباح التالى ، وفيه وحدَه ، يمكن الوقوفُ على خَوَاصِّ ذلك كما فى أمر الخمر .

(١) الناظر : العين – (٢) الراتع : من رتعت الماشية ، أى أكلت وشربت ماشاءت فى خصب وسعة – (٣) الشغف : أقصى الحب .

وعلى ماتُبْصِره من اختلاط الأخذ بالعطاء فى ذلك المَسْرح نرى شأن الجنسيْن كما اصْطُلِح عليه مخالفاً للحقيقة ، فبينما ترى الناس أجمعين يتكلمون عن تسليم المرأة نفسَها نرى الرجل يُسَلِّم نفسَه لا رَيْب ، فالوضعُ الذى ينام به على صدرها يدلُّ دلالة عميقة على رسالة الخليلة نصفَ أمٍّ ، والمرأةُ مع ذلك تُهْرَع إلى عَوْن الرجل بعد أن حَمَتْه منذ هُنَيْهة ، فتستجدى « أحِبَّنى ! » بلسان الحال أو بلسان المقال فى الغالب فيعترف الرجل لها بـ « أُحِبُّكِ ! » ، ويَتحدى هذا التَّمَوُّج فى ألْطف الاختلاجات الذى يُقاس بانقباض القلب اليونانىّ وانبساطِه كلَّ تعبير بالألفاظ ولا يُعْرَب عنه بغير الموسيقَى .

ويَصْدُقُ على تسعة وتسعين فى المئة من الأزواج قولُ المثل اللاتينىِّ بأن كلَّ الناس حِزَانٌ بعد الحبِّ ، غير أن الواحد فى المئة منهم هو الذى يَقُصُّ القصة ، والرجلُ هو الذى يُخَادع المرأةَ فى مثل تلك الحال فى الغالب ، والمرأةُ لا تُخدعه إلا إذا كانت مُحْتَرِفةً فى الحقيقة فلم يُبْصِرْ تَلَعُّبَها ، وفيما يَسْلُكان سبيلَ السكون للمرة الأولى بعد ذلك الكفاح الغرامىِّ ذى المخاطر إذ تَجُرُّ عاصفة من الهياج والارتياب والتمرد روحَيْهما ، واللذان يتهاجران يعودان غيرَ عاشقَيْن ، وخيرٌ لهما أن يفترقا افتراقاً لا أَوْبَ[1] منه ، واللذان يتبادلان النَّظَرَاتِ طويلَ زمنٍ تبادلاً صامتاً يَشْعران كما فى الأمس بحُسْن خِيارهما فيَحظَيان بوَلَع رائع ، وفى هذا اختبارٌ كبير ، وبيانُ هذا هو أن كلاًّ منهما إذْ سَلَّم نفْسَه إلى الآخر ووَهَبها له فإنه يعود إلى مزاجه الطبيعىِّ عَوْدَه إلى الثِّياب العادية ، فيتقابلان بهدوءٍ ويَتَغَفل أحدُهما الآخرَ ويختار

(١) الأوب : الرجوع .

أحدُهما الآخرَ مُجَدَّداً ، ومن الأوقات الفاتنة تلك التى يُؤَلِّهُ فيها كلٌّ منهما فى الآخر ، ولكن مع سكوتٍ سعيد .

أجَلْ ، هو يَقْدِر على الفِرار أيضاً ، وقد احتجَّ بِرْسِى ، فى شكسبير ، عندما حاولت زوجته أن تُمْسِكه بعد قيامها بعمل الحبِّ ، وقد فَرَّ آرس[1] الجليلُ ، الذى صَوَّره تِيسْيان بمثل تلك الروح ، مع سِرْب ضِرَائه ليصطاد ، فأزعج ذلك إلٰهةً عارية زَعْجاً عميقاً فمَدَّت ذراعيْها نحوه ، ألاَ إن هذه مناظرُ خالدة ، أفتدلُّ على أن الرجل هو الذى يَظَلُّ ظافراً بعد كلِّ شىء ؟ يَحْدُث ذلك أحياناً إذا ما كان كثير الفتاء جاهلاً كذلك الصَّيَّاد الإلٰهى ، والعكسُ هو الصحيح أيضاً ، ولكن بينما يلوح آرسُ الفارُّ مسروراً تُبْصِر دَلِيلَة[2] النَّهِمَةَ كريهةً عند ما تَحُوم حَوْل شِمْشُون[3] المَنْهوك ، ومع ذلك تُفَضِّل الطبيعةُ ذلك الظمأَ الدائم فى المرأة ما دامت وحدَها ، لا الرجلُ ، هى القادرةَ على ما لا نهايةَ له من العِناق المتتابع .

ولما تَقَدَّم كان من اللَّغْو أن يُبْحَث عن أىِّ الجنسيْن يَجِد فى الحبِّ لذةً أكثر من الآخر ، والأمرُ هنا كالسعادة ، فلا مِنْهاجَ تُعلَم به السعادة ، وهى تتوقف على طبيعة الذى ينْشُدها ، وكان دَجّالاً ، بالحقيقة ، بياسُ[4] الحكيم الذى زَعَم أنه كان امرأةً عِدَّةَ سنين فادَّعى أن لذة المرأة أعظمُ من لذة الرجل تِسْعَ مرات ، ومن النساء الشَّهاوَى مَنْ يَنِمُّ توجعُهنَّ الغرامىُّ على لذة كبيرة لا يَقْدِرُ الرجل على بلوغها ، ومن الفِتْيان من يَغْدون من أنصاف المجانين بين ذراعَىْ أنصاف العَذارَى الجافيات اللاَّئى يحتفظن بصَحْوِهن فيَسْخَرْن فى أنفسهن سُخْرِيَةً كلبيةً من

(١) آرس : من آلهة الأساطير اليونانية — (٢) دليلة : خليلة سلمت شمشون إلى الفلسطينيين كما جاء فى التوراة — (٣) شمشون : قاض عبرى مشهور بجبروته كما جاء فى التوراة — (٤) بياس : أحد حكماء اليونان السبعة . ظهر فى القرن السادس قبل الميلاد .

عُشَّاقهن ، ومن النادر وجودُ امرأة جافية ، وهى بَهْجَة أطباء الأعصاب ، كما أن من النادر وجودَ رجل عَبُوس لا يَضْحَك أبداً ، وهنالك أناس بَلَغُوا من فَرْط الانزواء والتعقيد ، ومن الغَطْرَسة على ما يحتمل ، ما لا يبحثون معه عن المَلَاذِّ الجنسية ، وإنما يَوَدُّون أن يُغزَوْا وَفْقَ مزاجهم ، وفى هذه الحال لا تَبْصِر غازِيَيْن ، وفى حقول العيش الأخرى تَرَى أشخاصاً يَأبَوْن أن يُغزَوْا ، وهم يُدْعَوْن بالمُخَنَّثين ، وتجد منهم أناسًا بين الرجال مع ذلك .

وهل ذلك تَعَسُّفٌ ؟ وما هو التعسف فى الحبِّ ؟ لقد بَلَغ المَيْل فى زماننا إلى دِراسة كلِّ ما هو « شاذ » ، وبَلَغ كَلَفُ الجمهور بالخَوْض فى كلِّ ما هو مَرَضِيٌّ ، وبَلَغ دهاء الكُتاب فى عَرْض مؤلفاتهم على القُراء من توسيع دائرة الشذوذ ما يتعذر معه تحديدُها ، والأمرُ فى هذا كالغِنَى ، فالفقيرُ بين الأغنياء يَغْدو مثلَ قارونَ بين الفقراء ، ويمكن الرسومَ اللطيفةَ التى هى كمالٌ فى الحبِّ أن تسَمَّى رِقَّةً ، فإذا جاوَزْتَها خُطْوَةً وجدتَ الفسادَ .

وَلِمَ مراجعةُ الطبيب بدلاً من أن يراجِع الشخصُ مشاعرَه الطبيعية الخاصة ؟ كلٌّ يَشْعُر بإمكان الحبِّ بين الأخ والأخت ، وقد يكون هذ الحبُّ فاتناً أحياناً ، بَيْد أن الحبَّ بين الأم والابن أمرٌ كريهٌ غير طبيعىّ ، وفى أساطير اليونان ، حيث تتمتع الآلهةُ بمحايٍ[1] بشريةٍ ذات بُطُولة ، تُبْدِى الآلهةُ ذلك النَّمَطَ الأول من الحبِّ غيرَ قليل الحياء ، ومن قدماء الملوك من أداموا أُسَرَهم بتزويجهم ولداً لفرعونَ بولدٍ آخرَ له على مرأى من العالَم بأَسْرِه ، وعلى الإنسان أن يكون إنكليزيًّا ليُبْعِد عبقريًّا متذرعاً بأن هذا العبقرىَّ كان قد عَشِق أختَه ذاتَ مرة ، والغرامُ الجنسىُّ

(١) المحيا : الحياة ، وجمعه محاى .

بين أمٍّ وولدها مما اجتنبه الآلهة والآدَمِيُّون ، وهو إذا ما حدث أَدَّى إلى فاجعة لا مَحَالة ، وما كان أمر إديب[1] الراقد ليُنَغِّصَ عَيْش أحد قبل أن يُطْرَى حياؤه فى زماننا فيزَمَّل[2] بعناوين أدبيةٍ قبل أن يُخْرَج إلى نور النهار ، وما كان أحدٌ قبل زماننا ليُوقِظَ مرض النفس ذلك من سُبَاته[3] ويُبْدِيَه فتنةً بإلقاء ضياء عليه ، واليوم إذا كان يُهَيِّج بعضَ المُنْحَطِّين ويَبْهرهم ، واليومَ إذا وُجِد من يختارون هذا الممكنَ الشائن من بين ألوف الممكنات الطبيعية كان الهلاك أولَى بهم وبأطبائهم ، فعلى الكُتاب أن يَضَعُوا حدًّا شافياً لذلك النِّقاشِ العلنىِّ العاطل من العِلْم والعلاج ، فذلك النِّقاشُ هو علامة ذوى النفوس القَلِقة الشَّبِقة[4] التى ترى لزاماً عليها أن تُعْطِىَ معنًى رذيلًا حتى لأروعِ رُؤَى لِيُونَارْدُو ، وليُحْظَرْ على الأساتذة الذين لا يَعْرِفون شيئاً من الحبِّ أن يَنْطِقوا باسم إيروس[5] .

وقد عَرَضَت الزِّنْجِيَّة على بعض البيض كشفاً لا يُنْسَى فى حَقْل الحبِّ ، وغايةُ القول أن اختلاط العروق لا يَصْدِم غيرَ الذين يجهلون الحبَّ ، أى أولئك الذين يأتون بنظريات أساسية فى أَمْر العروق فتُصَابُ تعاليمهم فى العالم بأَسْرِه بالعُقْم فى كلِّ مساء من قِبَل ألوف العُشَّاق لدى جميع العروق ، وإذا ما تَقَدَّمْنا قليلًا إلى الأمام أَبْصَرْنا ما يُهَيِّج بعضَ النساء من أحذيةِ فارسٍ أنيقٍ مصنوعة من الجلد المرَّاكُشِىِّ ، ومن ثياب الكاهن الطويلةِ الدُّجْن[6] ، ومن الكَمَان الجَهِير بين رُكْبَتى الموسيقىِّ ، ومما نسمعه ما يعترى بعضَ الرِّجال من هيجان حِسِّىّ لدى مشاهدتهم ما يأتيه من أعمال الغرام مِغْناجان أو ما يعترى الشاعرَ عند ما يَضَع رواية غَزَلِيَّة ، وفى الدَّرْب

(١) إديب : من رجال الأساطير اليونانية – (٢) زمله : لفه – (٣) السبات : النوم .
(٤) الشبق : الشديد الغلمة أى الشهوة – (٥) إيروس : إله الحب عند الأغارقة .
(٦) الدجن : السود .

الطويل الذى يقود من حبِّ امرأة إلى حبِّ ولد يتوقف كلُّ شيء على الخُلُق الفردىّ وعلى التقاء الطبائع المتماثلة وعلى الجوِّ وحال المساء وعلى الظَّمأ الذى لم يُطْفأ منذ زمن طويل وعلى تفسير حركة ليِّنة ، أى على أمور قد يقع بها حتى الرجلُ المعتدلُ فى هَوَى صبىّ ، أو قد يقع بها بعض النساء فى هَوَى بعضٍ لليلةٍ واحدة من غير أن يُصْبِحْن من بنات لِسْبُوس (١) .

وفى عصرنا لم يَبْقَ شيء يقال له خَفَاء مادام كلُّ شيء قد خَضَع للطِّباعة والتصوير فصار يُعْرَض على أنظار الجميع ، فأضحت شبيبتنا الطليقة فى المسائل الجنسية ، كما يقع فى الثَّوْرات ، عاشقةً من تِلْقاء نفسها ، ويَنْظُر الجيل الجديد إلى المرآة على الدوام ، ويغازِل من كلِّ ناحيةٍ فيَجِدُ نفسَه أكثر وَقْفاً للنظر عند ما يكون شاحباً نحيفاً منحرفَ المزاج ، وقد نشأ عن هذا الغُلُوِّ عبادةُ طائفة من الأطباء والكُتَّاب للشذوذ زاعمين قَصْدَهم شفاءه مع أنهم يُنْمونه ويُذِيعونه كأنه تمحيصٌ نافع للحبِّ بدلاً من الهُزُوءِ به .

وإذْ وُجِدَ ذلك كلُّه منذ زمن المصريين كانت الرغبة فى مثل تلك الضَّلالات وتوكيدُ أمرها مما يَنِمُّ اليوم على انحطاطٍ فيما يُدْعَى بالطبقات الراقية ، حتى إنك تُبْصِر فى مَعْرِضٍ للنباتات السَّحْلَبِيَّة نسوةً أنيقاتٍ عارفاتٍ بالأسماء اللاتينية لأنواع تلك النباتات على حين لا يَقْدِرْن على تمييز البُرِّ (٢) من الشَّعير فى الحقول .

أَجَلْ ، إن العارفين بالحب كالأزواج يَنْشُدون جميعَ فنونه بعد أن يتعلموا الموضوعَ الرئيسَ على ظهر القلب ، غير أنه يُوجَد بين هذا وعبادةِ الشاذِّ الهزيل الجافِّ طريقٌ طويلة فى وَسَط الوَحْل ، والشبيبةُ إذا بدأت على هذا المنوال أضاعت

(١) لسبوس : إحدى جزر اليونان وتعرف اليوم بجزيرة ميتيلين — (٢) البر : القمح .

أسطع ساعاتها ، والفتى الذى يتعاطى اللِّوَاطَةَ وَفْقَ النَّمط الدارج ، أو كما يُقْرأ ، أو عن تَظَرُّف ، يَحْرِم نفسَه نصفَ ملاذِّ الحياة ، وهو فى ذلك كالراهب الشابِّ الذى يَجِب عليه أن يَقْمَع شَهَواتِه فيَدُور خيالُه حَوْلَ أوضاع النساء مع ذلك .

٧

لم يَتَّفِقْ ارتيادُ بدنٍ مجهول رِيادًا تامًّا سعيداً لسوى الأَقَلِّين مِنْ رِبا(١) مَنْ يَعْرِفون الحبَّ ، والرياضةُ فى السنوات العشرين الأخيرة قد غَيَّرَت وجهَ الحبِّ ومعناه لدى الشبيبة، وما أجمل ما كوَّنَتْها ! وما كان من المنظر الذى يَبْدُو به الرجال والنساء فى الصيف عُراةً جهراً فإنه يجعل من الجمال واجباً وعادةً ، وما كان من الدَّرَّاجة التى يترادف(٢) عليها زوجان أهيفان شِبْهُ عاريَيْن فيَنْزِلان بها من طريقٍ ، وما كان من سَوْقِ شابٍّ لسيارةٍ على الشاطئ الرمليِّ مُتَمَهِّلاً حَذِراً على حين تستطيع عشيقته المُنْبَطِحة على مِرْقاة تلك السيارة والمُسَنَّدةُ(٣) بزافرةٍ(٤) أن تَرْسُم بطرف رجلها خطًّا على الرَّمْل. فأمورٌ تتألف منها صُوَرٌ غرامية ذاتُ رَوْعة لم يعرفها حتى الأغارقة ، وغاب جَوُّ معاهد الفنِّ والموسيقى الخانقُ عن الجيل الناشئ وعادت الفاغنريةُ(٥) غيرَ موجودة لدى الفَتَاء الحاضر .

بَيْدَ أن الجمال لا يصنع سوى قِسْمٍ من الحبِّ ، وما كان الغرام الذى تُسْفِر عنه عبادة الجمال ليدوم طويلَ زمن ، وهو يُكَدَّر بساعاتٍ سُودٍ ، فلما اجتمع غُوتِه بأجمل بنات عصره وأبصر مقدار انتظارها وانتظار أصدقائه كلمةَ إطراء منه أعرب عن

(١) الربا : جمع ربوة وهى الجماعة العظيمة نحو عشرة آلاف — (٢) ترادفا : ركب أحدهما خلف الآخر — (٣) سند الشيء : دعمه — (٤) الزافرة : الركن .
(٥) الفاغنرية : نسبة إلى الموسيقى الألمانى الشهيرة فاغنر .

إعجابه ، ولكنه أبان بعد زمنٍ درجةَ الصعوبة فى البقاء « كالزُّبْدة فى الشمس » ، والجمالُ الكامل فى المرأة هو من المضايقة كالمِعْطف الذى يزْلُق عليها عند ما تُسلِّم نفسها ، وذلك لأن الرجل العاشق لا يرى الجمال بالحقيقة ، بل يُبْصِر السِّحْر وحدَه ، ويأبى الجمالُ الكلاسِىُّ[1] أن يُملأ لشعورِ المرأة بأنها كالإناء النفيس ، والمرأةُ إذا كانت تعيش من أجل جمالها فقط وَجَب على عاشقها أن يُشْعِلها بقوة خياله تسكيناً لزَهْوها ، والأختان إذا ما عُرِضتا على رجال الخيال فَضَّل هؤلاء أكثرَهما سِحْراً على أشدِّهما جمالاً ، وفى الآداب لا يُشْبِعَ الجمالُ الكامل على البطَلة ، وفى الحقيقة أن هيلانة[2] الباهرةَ الجمال كانت امرأة رُوح .

وما يُكَلِّل مِثَالَى البطولة فى تمازج الرُّوح والجمال ، فاوْست[3] وهيلانة ، من النور فيُهِمُّ المتفنِنَ على الخصوص ، فالحقُّ أن من النادر أن يوجد مثلُ هؤلاء البالغى الرَّوْعة وأن يُختاروا وأن يَظَلُّوا معاً زمناً طويلاً ، ولا يُحَوِّل حُبُّ الرجل المرأةَ إلى روح إلا بعد أن يَسْطَع جمالها من ضِمْنها فيَكْشِفَ عن جزء من رُوحها ، ولا بُدَّ لهذا الرجل فى ذلك من اتصافه بإدراك الجمال فِطْرِيّاً حتى تَفْنَى رُوحه فى جمال حبيبته. وفى هذا سِرُّ وَصْف ميفِيسْتُوفل[4] لفاوْست بالشَّهْوان الكامل، وبالعاشق الشَّهْوان على الخصوص ، ولا يُعْتَمّ الفيلسوف أو القطبُ السياسىُّ الذى يقُود الغانية إلى جانبه برِباط كالكلب السَّلُوقِىّ أن يصبح أُضْحُوكة أهله وأُضحوكةَ العالَم بأَسْره .

واليوم حلَّ المستوى الأَسْنَى لكلِّ شىء محلَّ الاستثناء الماجد فى الجمال والتربية

(١) classique — (٢) هيلانة : أميرة باهرة الجمال من أميرات قدماء اليونان .
(٣) فاوست : ساحر ألمانى كما جاء فى أساطير الألمان ، وقد اتخذه غوته عنوانا لإحدى رواياته .
(٤) ميفيستوفل : اسم للشيطان اشتهر اسمه فى رواية فاوست لغوته .

والثَّراء . وفيما يسودُ الجمال الكِلاسِىُّ ويتجلى فى الصور المتحركة يبدو الجُمهور أجملَ مما كان عليه ، وإذا كانت عيونُنا تُسْحَر على الشواطئ مع ذلك بأكثرَ مما فى غُضُون القرون الماضية فإن جمال البَدَن لم يَرفع الفنَّ فى زماننا ولم يَنْهَض بملاذِّ الحب فى أيامنا ، فقد أوجب العُرْىُ العلنىُّ والتنويرُ والضياء السَّائب إبعاد الأُلْفة التى هى صفة الحبِّ الأولى ، ومما يَجِده الفِتْيان أمراً طبيعياً أن يَقُصَّ بعضهم على بعض مُحالَ الأقاصيص بوجوه جامدة كالحديد ، وإن لم يناموا فى غرفة واحدة بعد أيام يَقْضُونها فى الرياضة ، وبعد ليالٍ يُمْضُونها فى الحانات ، وبعد ساعات شامسة يقتلونها فوق الماء وفى الزَّلَق على الجليد ، وبعد رَقَصات غرامية مقتضَبة يأتون بها .

وهذا الجيلُ قد عَزَم على الحب مع ذلك أو أنه نال مِنْحة عصرنا ، وتحريرُ الفتيات قد يكون أكثرَ الثَّوْرات التى اشتعلت فى السنوات المئة الأخيرة معنًى ، وتحريرُ الفتَيات قد يكون أعظم من إعطاء المرأة حقَّ الانتخاب مَغْزًى ، ويلوح للناظر إلى أحوال الفتاة وحقوقها فى سنة ١٩٠٠ وإليهما فى سنة ١٩٤٠ كَبْسٌ[1] ما بين هاتين السنتين بقرون ، ومما يبدو من الأساطير ذِكْرُنا لشبابنا وذِكْرُنا لذلك الجُهْد الذى تَبذُله أخت الخطيبة لِسَتْر غياب الخطيبة المفاجئ قليلَ وقتٍ من غير أن ينتبه الخطيب إلى احتياجاتها الوظائفية ، فإذا ما مَرَّت سنون ثلاثون ذهبت بنات تَيْنك الأختين إلى الرِّيف وحدهن لقضاء عُطْلة آخر الأسبوع مع أصدقائهن من الفِتْيان .

وما كان الأولاد ليستطيعوا تَبَيُّنَ تلك الثورة إلا من خِلال الآثار الأدبية التى

(١) من كبس السنة بيوم : زاده فيها .

كدَّرت صَفْو آبائهم ، وما وَرَد من المُعْضِلات فى كُتُب إبْسِن[١] وزُولا[٢] وفى رواية ترافياتا[٣] ولويز[٤] حيث دُوفِعَ عن حقِّ الهَوَى تجاه مبادئ الأُسرة والمجتمع فقد ذَوَى لِما حدث من انهيار تلك المبادئ نفسها ، وتلاشت مسئلة البَكَارة منذ صارت كلُّ بنتٍ حارسةَ جنسها بعد أن أثارت الشعراء والقُضاة وأرباب الأُسَر فى جميع البلدان المتمدنة من زمن الفرسان إلى أيام صبانا ، ومن المحتمل أن كان بعض القبائل الزِّنْجيَّة أعظمَ حكمةً لِما يكون من تجنُّب رئيسها الطقوسَ الفارغة ووَهْبِه البِكْرَ لعَبْدٍ ! ومن النادر إلى الغاية فى زماننا وجودُ أولئك العَذَارَى اللائى يَكُنَّ من الزَّهْو والجَفْو ما لا يُسَلِّمْن معه أنفسَهن إلى غازيهنَّ إلا حَرْباً و بعد حصار عِدَّة أسابيع ، ومن بين أشدِّ المعارك الغرامية نَذْكُر اعتراكَ الحُورِيَّة تِتِيس[٥] والرجل بِيلُس[٦] (الذى انتصر فى نهاية الأمر) فأَسْفر عن ولادة أعظم الأبطال أَشِيل[٧] ، واليومَ لا يوجد مثالُ أَتالَنْتَه[٨] الضَّرُوس الخَدُوش النَّبُوح إلا عند الصائدة الحادَّة على ما يحتمل ، وهى تُحَوِّل غرائزها الهَدَّامة النَّهَّابة ، فإذا ما عَرَف الرجل كيف يَتلَقَّى هذا المَيْسِرَ الخَطِر تمتَّع بأكثر ما يُثير حياتَه من القَنَص .

على أن البِكْر خَسِرَت سِحْرها ، فاليوم ترى الشبان من الحضور يُعْرِضون عن روايات ڤَاغْنِر الغِنَائية عند ما تبدو امرأة جَذَّابة بجانب بِكْرٍ بريئة ذاتِ عينين

(١) إبسن : كاتب نوروجى (١٨٢٨ — ١٩٠٦) — (٢) زولا : كاتب روائى فرنسى مشهور (١٨٤٠ — ١٩٠٢) — (٢) ترافياتا : اسم رواية غنائية وضعها الملحن الإيطالى فيردى سنة ١٨٥٣ — (٤) لويز : اسم رواية موسيقية وضعها الملحن الفرنسى غوستاف شاربانتيه سنة ١٩٠٠ — (٥) تتيس : أميرة أسطورية من أميرات اليونان — (٦) بيلس : أمير أسطورى من أمراء اليونان — (٧) أشيل : أشهر الأبطال الذين جاء ذكرهم فى أسطورة الإلياذة لأوميروس .
(٨) أتالنته : أمير أسطورى من أمراء اليونان .

زَرْقاوين مع أننا كنا فى شبابنا نَجِدُ فى إلْسا وإليزَابِت مثلًا عالياً فنحاول بترديدنا أغانيهما تكديرَ صَفْوِ الغَوَانى .

وروايةُ الزواج المضحكةُ المبكيةُ خاصةٌ بالماضى تقريباً ، والزواج يحافظ على سِحْرِه الشِّعْرِىِّ كأحد الطُّقوس ما أوحت المشاعر الدينية به ، والزواجُ أقربُ إلى روح التضحية بالبِكر المَحْض كما فى قديم الأزمان مما إلى العيد ذى البَهْجة والحُبُور ، وتلك الأفكار لأنها خاصةٌ بالماضى ، والذهابُ إلى الكنيسة لأنه عنوانُ واجبٍ يؤديه ملايين الآدميين مرتيْن فى كلِّ عام تذكارًا لآبائهم ، لم يُعَتِّم العُرْس أن صار حماقةً تَغْرَق معها المُجَسِّداتُ[١] الباطلة فيما لا معنى له من الخُطَب والضحك وفى الأسهم النارية والرَّحيق[٢] ، وأىُّ شىءٍ أفجرُ من عَرْض فتاة على أنظار الجميع دلالةً على أنها ستضاجِع بعد هُنَيْهةٍ رجلًا جالساً بجانبها فاقدَ الصبر ، وذلك كالقُنْبلة التى تَنفجر فى وقت مُعَيَّن ؟ يُؤَدِّى الرَّحيل السريع واستبدالُ ثيابِ السَّفَر بثياب العُرْس وتبادلُ الإخوة قُبلاتٍ حائرةً إلى عَرَبة نوم أو إلى غرفة فنْدُق فى نهاية الأمر ، وما يَحْدُث من إرسال الإنكليز شبابَ العُرُس[٣] إلى الريف بدلًا من السياحة فيدلُّ على ما يَحْمِلونه من رحمة بالمحكوم عليهم .

وفى المستقبل سيُحَرِّم القانون ذلك العَقْد الذى يدوم مَدَى الحياة بين شخصيْن لم يُجَرِّب أحدُهما الآخَرَ تجْرِبة بَدَنيَّة على أنه منافٍ للأدب ، وذلك كما يجب على المرء ألا يستصحب إلى القطب الشمالىِّ امرأً آخر لم يَعِشْ بين الجبال المستورة بالثَّلْج قطُّ ، ومن المحتمل أن يُخَفِّف تلك المخاطرَ ما اقترحه غُوتِه من نكاح تَجْرِبىٍّ لمدة خمس سنوات.

(١) notes — (٢) الرحيق : صفوة الخمر التى ليس فيها غش — (٣) العرس : جمع العروس ، والعروس هو الرجل أو المرأة ما دام فى عرسه .

واليومَ إذا ما اتَّخذت الفتاةُ قراراتٍ بشأن نفسها كما يتَّخذ الفتى لم تصنع ذلك إلا عن معرفة تامة بمقتضيات علم الحياة و بعد أن تأخذ من الحَذَر ما تراه ضروريًّا ، وما فى هذا من ابتعاد عن الرَّوْعة الرِّوائية فعوَضُه فيما قد يؤدى إليه من الصراط السَّوِىّ ، و بيانُ الأمر أن قليلاً من النساء حتى فى أثناء فَتائِهن مَنْ يَرْغَبْن فى الولد دون الرجل ، فأكثرُهن يَوَدُّ تَذَوُّق الحب لا الأُمُومَة ، وهنَّ يُؤَدِّين إلى الطبيعة نَقْدَها فى مقابل رِئائها[1] ما دُمْنَ يَتَمَتَّعْن بما يتمتع به الشابُّ من حقٍّ فيه ، و إذا كانت الطبيعة لم تُوجِد الرَّغْبةَ إلا لتَحْمِل على التوالد كلٌّ موجود من التَّدَرُّج الذهبىّ إلى ما فوقه و إلى ما تحته فإن الرجال يَسْخَرُون منها الآن عن دهاءٍ كما سَخِرَت منهم فيما مضى ، ومُحِبُّو الجمال المُتَطَبِّعون وحدَهم هم الذين يأْلَمُون من الحركات القليلة المُقْتَضَبة التى تَحُولُ دون ما للمغامرة ، وما للشهوة أيضاً ، من نتائجَ عقيمةٍ ، وذلك لأن الشهوة لا تقتضى تحويلا فى موضوع الولد فى أوتارها العجيبة الأولى على الأقل ، و إنما العاشقُ هو الذى تتطلبه فى العالم كلِّه .

وحريةُ المرأة فى تقرير نتائج غرامها أمرٌ جديد على الإطلاق ، وحريةُ المرأة هذه لم تكن إلا وَقْفاً على قليل من ذوات الثَّراء فيما مضى ، وحريةُ المرأة هذه لم يُدْرِكها جميع النساء إلا من زمن قريب ، والكنيسةُ وحدَها هى التى لا تزال تسيطر بما لديها من التعاليم الخُلُقية ، و إذا ما قُوِّضَت الكنيسةُ حُرِمَ ملايين من البشر ماهو جوهرىٌّ لهم من السعادة ، ولكن لا ينبغى للدولة أن تَحْظُرَ الحَبَلَ والإجهاضَ[2] على التى لا تؤمن بالمعنى النصرانىّ ، ولا يمكن رَجُّ المبدأ القائل

(١) الرئاء : فعل الخير لإراءة الخير ، وفعل ذلك رئاء فعله تظاهراً بخلاف ما فى باطنه .
(٢) الإجهاض : إسقاط الجنين .

إن المرأة وحدها هى سيدة بدَنِها والذى هو أعظمُ نُظُم زماننا ، ومن العبث محاولةُ الشيوعيين أن يَرْجِعوا إلى الوراء .

وسينشأ عن ذلك التطور إساءةُ استعمال لا رَيْب ، ومن المحتمل أن تُؤَدِّىَ مَخاطِره وأسراره إلى نَزْع جزء من أَسْحاره ، وهذا ما حَدَثَ للكثير ، ولكن السيارة لم تَصْرِف أحداً عن السَّفَر ماشياً وعن الاطلاع على جزئيات المناظر فتَجِدُ على الدوام من مُحِبِّى المعرفة مَنْ يختارون السُّبُل المؤدية إلى نَجاوَى[1] الحبِّ على مَهْل .

٨

الحبُّ السِّرِّىُّ أبقى من الحبِّ الذى نَصَّت عليه القوانين ، والشعورُ بالمحظور يَمُنُّ على العُشَّاق بحسّ من الأفضلية على العالَم الآثم ، وما بين المَيْل والواجب من صِراعٍ فيُقَوِّى غرامَهم ، وما أكثر ما نسمع خبرَ رجل أُكْرِه على زواج ثانٍ مع أنه ظلَّ عاشقاً حقيقيًّا حتى ذلك الحين ، وهل أتاكَ نبأُ ذلك المركيز الذى كان يَقْضِى مساء كلِّ يوم فى عِدَّة سنوات عند خليلته ، فلما ماتت زوجته سُئل عن عَزْمه على الزواج بهذه الخليلة فكان جوابه : « أين أقضى أمسِيَّاتى[2] إذَنْ ؟ » ، وما يكون من مُواعَدةٍ خَفِيَّة ومن مُكاتَبةٍ ومن رسائلَ تَنْقَل بأعينِ صديقٍ نصيرومن زَهْوٍ بمخادعة الحُضور فإنه يمنح الحبَّ حرارة لا مِراءَ فى فَقْدِه لها إذا ما كان طليقاً غيرَ مُقَيَّد ، أَجَلْ ، قد تكفى الرسائل لجعل الحبِّ السِّرِّى مُتَرَنِّحاً ، وتكفى لزيادته

(١) النجاوى : جمع النجوى أى السر – (٢) الأمسية : خلاف الأصبوحة ، فيقال أتيته أمسية أمس ، أى أمس مساء .

أيضاً ، ولكن يجب أن تُكتَب بسحرٍ لا رَيْب ، ومن شأن الفنّ الذى يمتدّ من خُطَيْط إلى رسمٍ مُسَلٍّ ومن كلمة مهجورة أو ذات معنَيَيْن إلى الإعراب عن أعمق اختلاجات القلب وأشدّها أن يُكدِّر القارئة بإهماله أو أن يَهُزَّها بإقدامه ، ومن شأن الرسائل أن تُنْعِم على العاشق بنُفوذه روحَ المعشوقة أكثر مما بالمحادثة ، ومن شأن المرأة فى الغالب أن تحفظ بشفتيها سِرًّا قد يَجْرُؤ قلمها على إفشائه ، ولا تُفْصِح الرسائل عن الرغائب فقط ، بل تُفْصِح عن الرِّيَب أيضاً ، وهى تُبينُ عن الشكّ فى النفس أكثر مما فى الحبيب ، ولا عَجَبَ ، إذَنْ ، أن ترى رجلًا كثير الأعمال ينظر فارغَ الصبر إلى بريده طامعاً أن يَجِد غِلافاً عليه خَطُّ الحبيبة ، فإذا ما أبصره أدخله إلى جَيْب مِعْطفه عن مَهْلٍ أحياناً ، وبسرعةٍ أحياناً .

واللقاء إذا ما اقترن بالعمل البَدَنِيّ كان مَشُوباً بالخطَر ، ومن المحتمل أن يَقَع فى ضَرْب من النَّمَطيَّة أولئك الأزواجُ الذين يَتَعاطَوْن ذلك العمل لِما يَجِدُون فيه من رَمْز إلى سِرِّهم فيكونُ فى ذلك من الخطَر ما لا يُؤدِّى إليه التَّأَهُّلُ وحدَه ، وإذا كانت العلاقة بين الزوجين لا تَجِد غير غرفة النوم محلًّا لها أمكن أن تُسْفِر عن نفور مفاجئ ، وهى تنتهى بسوء على العموم .

وما كان خيال الشُّبَّان من العُشَّاق على الدوام إلا نشيداً رِعائيًّا لحبٍّ صافٍ بعيد من الشهود والعقود ، والحقُّ أن الحياة فى الأرياف هى أعظم تَجْرِبة يُمْنَى به الحبُّ ، هى أعظمُ تَجْرِبة يَنْدُر مجاوزتها ، وعُشّاقُ المُدُن الذين يَمُرُّون أيام كَشْفهم الأول بمَغْنًى(١) ذى حديقة أزهار يُبْصِرون فيه ملجأً مِثاليًّا حَرِيًّا بأن يعيشوا فيه فَيَقْضُوا فيه لُبانَهم ، غير أن عمق الحبّ ودوامَه فى تلك الحرية

(١) المغنى : المنزل .

التى لا حدَّ لها فى الزمان والمكان مُعَيَّنان بما هو أنقى مما فى الحركة الاجتماعية من محظورات لاذعة ، والحياةُ فى ذلك المحلّ بلا ولدٍ ولا عهدٍ ولا كَدّ ، والحياةُ بين ليالى الحب هنالك ، تتَطَلَّب ، لِتَدُومَ ، اتحاداً مطلقاً بين الرجل والمرأة ، اتحاداً مُكَوَّناً من مَزْجٍ عجيب بين الكَلَف واللُّطْف والسَّرائر والخواطر .

وإذا كان اصطراع الأبدان الغرامىُّ فى تلك المرحلة يَغْنَم بهدوء فإن العوامل النفسية تكون ، بالعكس ، أشد صَوْلَةً فيها ، وهذا هو الوقت الذى يَبْدُو فيه كونُ الحياتين حياةً واحدة بالحقيقة ، أَوْ لَا ، وبيانُ الأمر أن ساعاتِ الخلاف تَحِلُّ بعد الفُتُون الذى يُسْفِر عنه الخِيار الخالص الموزون لِما يكون من بُرُوز وِجْهات النظر والعادات ، فتَشْتد مُجَدَّداً وطأة الماضى الذى لم يَكُنْ لِيُقْصَى ويُنْسَى إلا ظاهراً ، ويُوضَع العاشقان على مِحَكِّ التَّجْرِبة الأولى للتسامح والمرونة وحسن الذوق ، وتبدأ تلك التجرِبة مع مقتضيات المائدة وتتناول ما يُفَضَّل فى موضوع الفنّ وتمتدُّ من الوجه الذى يُدْفَع به الصَّحْن وتُطْوَى به الجريدة ويُمْسَك به الثقُوب(١) وتُلْتَقَط به ورقةٌ جافَّةٌ إلى وَجْه الدعاء بصوتٍ خافتٍ مساءً ووضعِ الحِذَاء عند النوم وقراءةِ العزائم(٢) .

وتَعْدِل معاكسةُ خصائص الشخص ومكافحتُها عند ثباتها ضَرْبَ أعزِّ ما لدى المحبوب بالسيف ، أى تعدل أَثَر الوَحَمِ(٣) فى الولد ، وتُوقِظ ملاحظة تلك العادات اليومية بدقةٍ حُبَّ الاطلاع فى البُداءة ، ثم تؤدى إلى المقارنة فإلى الانتقاد ، فتوجب بذلك تفضيلَ أناسٍ من البِطانة(٤) وإبداءَ آراءٍ حول مَنْ تقع عليهم العين من

(١) الثقوب والثقاب : ما تشعل به النار من دقاق العيدان – (٢) العزائم : جمع العزيمة وهى الرقية – (٣) الوحم : شدة شهوة الحبلى لشىء تأكله – (٤) بطانة الرجل : وليجته الذى يكاشفه بأسراره ثقة بمودته يقال : « هو بطانتى وهم بطانتى وأهل بطانتى » بلفظ واحد فى الجميع .

الرجال وبيانَ أفكارٍ فى الله ، ثم تتناول لَوْنَ مَقْعد الدَّرَّاجِ [١] والخلَّ فى الكامخ [٢] وطرازَ مِعْطف السِّياحة ، وكيف يستطيع أشخاصٌ بَلَغُوا الثلاثين أو الأربعين من أعمارهم قبل اللقاء أن يجتنبوا ذلك التَّحَاكَّ ؟

يمكن ذلك بالتسامح والكياسة ، فبهما يَنْمُو كبيرُ صَبْرٍ على مزاج الآخر ، وإذا كان العاشق يُبْصِر أن طَرْزَ صَفِيره يُثِيرها ، وإذا كانت العاشقة ترى أنه لا يُطيق صَبْغَ شَفَتَيْها بالحُمْرة ، فإن ما يبديانه من مراعاة مثل تلك التَّوَافِه أهمُّ من اتحاد رأيهما فى خلود الروح ، وإذا كان يحاول فى نُزْهَةٍ أن يُصْلِح خَطْوَها فلا تنفكُّ تُكَرْدِح [٣] ، وإذا كانت تَقْشِر تُفَّاحتها فلا تُقَسِّمُها إلى أربع قِطَعٍ إلا بعد القَشْر ، وإذا كانت تَنْثُرُ أشياءها على سبعة كَرَاسٍ مختلفةٍ لتَعُودَ فتبحث عنها ، فإن ذلك كلَّه يَنِمُّ على تفاهم مثير للابتسام فلا يحتمله غيرُ عاشقٍ تَيَّمه [٤] الحبُّ .

بَيْدَ أن المرأة التى تقترف خطأ الإصرار على حِرْمان نفسها ما رَقَّ وأَنِقَ [٥] من الثياب الداخلية لأنها تودُّ أن «تُحَبَّ لذاتها» لا تَنْشَبُ أن تخسر اللَّعِب بعد طويلِ سيرٍ تجاه امرأة ذات مكايد ، وتلك المرأةُ إذا ما تذرعت بالحَذَر وابتعدت عن تلك الحركات الطفيفة التى تُنْذِر بأعظم الزلازل على مُسَجِّلات الأحاسيس أمكنها أن تجتنب منذ البدء تلك الأَزَمات التى لا تَبْلُغ حدَّ حِدَّتها إلا بعد سنين .

وتَعَهُّدُ الحبِّ الناشئ بالتربية يجب أن يكون من عمل الطرفين وأن يصدر عن العقل والقلب معاً ، والفرنسيون ، وهم ألطفُ العارفين بالحبِّ ، يَعُدُّون مَلاذَّ المائدة من عناصره ، وعلى ما يكون عليه الناس من قُبْح المنظر وهم يأكلون تجدهم

(١) الدراج : راكب الدراجة – (٢) الكامخ : الأدام يؤتدم به ، وخصه بعضهم بالمخللات التى تستعمل لتشهى الطعام – (٣) كردح : عدا عدو القصير يقرمط ويسرع ، وقرمط فى خطوه : قارب ما بين قدميه – (٤) تيمه الحب : عبده وذلله – (٥) أنق الشىء : راع حسنه .

منذ عهد البابليين قد عَدُّوا الأطعمةَ ، لا الرحيقَ وحدَه ، مما يَحْفِز إلى الحبِّ ، ويمكن الزوجيْن العاشقيْن الساكنَى الحواسِّ مع جُوعٍ أن يَجْلِسا حَوْلَ خُوَان [١] ، فإذا ماتناولا آخرَ طبقٍ أَحسَّا فى نفسيْهما من الاستعداد مايستأنفان معه أعمالهما الغرامية .

والأزواجُ العُشَّاق فى كلِّ زمن يذهبون إلى دُور التمثيل وإلى دُور الرقص ، واليوم يَغْشَوْن دُورَ الصور المتحركة ، لا لِما تكون عليه من ظلام فقط ، ومما يُثِيرُ العَجَبَ أن يكون حظُّ الرجل من ذلك أعظمَ من حظِّ المرأة عندما يَنْتَشِى هذان العاشقان على نفسيْهما عن هوًى فيبحثان فى صوت المُطْرِبين أو فى أبدان الراقصين عن معانى الحب ، ومن القليل أن يُهيِّج الصادحُ [٢] المرأةَ ، فالفتاةُ المراهقة ، لا المرأةُ العاشقة ، هى التى يأخذ صوتُه بمجامع قلبها ، وفيما يكون أمام عاشقها أجملُ الأبدان النِّسْوِيَّة فيقابلُ بينها وبين بَدَن معشوقته حَتْماً يَنْدُر أن يُحَرِّكها منظر الراقصين ، وهى تُسَرُّ مع ذلك من مشاهدة تلك المراقص التى تُثِير فيها الغرامَ البدنىَّ فتأْمُل أن يَغْمُرها من فَوْرها .

وما للرياضة من تأثير معاكس فقد دلَّ عليه هذا الجيل الذى ظَفِرَ بحرية الحركة ، وبحرية الحبِّ أيضاً ، والشبابُ عاد لا يكون أكثرَ جُسُوراً بل صار أكثرَ فُتُوراً ، ولم يتمَّ هذا بفضل ما يكون من نَصَب [٣] بدنىّ فقط ، بل يقع بفعل حياتهم المشتركة فى شبه عُرْيٍ دائم يجعل الفَتَياتِ أرشد مما يقتضيه عُمرُهن ، والرياضةُ فى المُبارَيَات على الخصوص تجعل الأفراد غيرَ أهل للحبِّ ، فهؤلاء الأفراد يعملون على ما فيه حفظُ قُوَّتهم ، وهم لا يُفَرِّطون فى أىِّ جزء منها ، وهم فى الغالب يعيشون أسابيعَ

(١) الخوان : ما يوضع عليه الطعام ليؤكل وتسميه العامة السفرة – (٢) صدح الرجل : رفع صوته بغناء – (٣) النصب : التعب والمشقة .

خاضعين لأقسى « تدريب » ، ومما يُسمَع أنباء ملاكمين ولاعبى كُرَةٍ وفرسانٍ ودَرَّاجِين يتَجَنَّبُون كلَّ تماسٍّ جنسىٍّ فى أثناء فصل التمارين ، وعكسُ ذلك أمرُ الشاعر ، فمن النادر أن تَجِد شاعراً يَنْظِم قصيدة مُمْسِكًا عن النساء ، ومن المُرجح أن كان أمراءُ الحبِّ روبِنْس(1) وتيسْيان ورينْوار(2) لا يُصَوِّرُون المئاتِ من النساء العاريات إلا بعد قضاء وَطَرٍ ، وهنا يبدو الرأى الغريب المتناقض القائلُ إن الحبَّ وهو عملٌ بدنىٌّ يُثَار باقتران الجنسين الروحىِّ وبالأفكار والألفاظ أكثرَ من إثارته بالاقتران على أساس جُثْمانى .

٩

لا شىء يَميزُ الأممَ بعضَها من بعض أكثرَ من طُرُز موسيقاها وغرامِها ، وقد بَرَع الألمان فى الموسيقى وبَرَع الفرنسيون فى الغرام ، فباريسُ هى المدينة الوحيدة فى العالم التى يستطيع الرجل فيها أن يُقبِّل المرأة من غير أن يُثير ابتسامة أحد أو التفاتَ أحد إلى ما حوله ، وباريسُ هى المدينة التى يسيطر عليها النساء من الأسلوب إلى الحكومة ، وباريس هى المدينة التى تُقَرِّر تاريخ الحبِّ الغربىِّ ، وباريس هى المدينة التى أسفر أدبها عن أذواق الحبِّ وأوضاعه وفجائعه ، وباريس هى المدينة التى أُبْصِرَ فيها كلُّ شىء ونُظِّم فيها كلُّ شىء وعُدَّ فيها الجمال دون الزينة والتَّبَرُّج(3) فيندُر أن يقال عن المرأة إنها جميلة ، وإنما يقال إنها ظريفة . وباريس هى المدينة التى لا يُبْهَت فيها أحد ، ففيها تُقَصُّ القصة المنافية للحياء أمام النساء لِما

(1) روبنس : مصور فلمنكى (١٥٧٧ – ١٦٤٠) – (2) رينوار : مصور فرنسى (١٨٤١ – ١٩١٩) – (3) تبرجت المرأة : أظهرت زينتها للأجانب .

تُرْوَى به عن خِفّة وسذاجة ، وباريس هى المدينة التى تَبْلُغ فيها الأوضاعُ واللهجة من الرِّقّة ما يمكن به أن يَحْدُث كلُّ شىء من غير أن يَظْهَر وقوع الأمر فعلاً .

من أجل ذلك لا تَرَى فى باريسَ امرأةً تَحْمَر وَجْنتاها خجلاً ، وفى إسبانية وإيطالية ، حيث لا يزال الانفعال يحتلُّ مكاناً كمكان الحبِّ وحيث يُقال إن كلَّ شىء فى الحبِّ جميلٌ جَرِىءٌ يَشْغَف(1) الفؤادَ ، تُبْصِر وجوه النساء تحمرُّ حياءً ، وتُبْصِر العُشّاق ذوى عُبُوس فيتراشقون بالعبارات النارية ويقتتلون حتى الموت ، لا فى المجتمع الراقى وحدَه ، بل بين الشعب أيضاً ، وقد نهضتْ تانك الأمتان بالمأساة نهوضَ فرنسة بالمُبْهِج ، وفى بلاد الجَنوب تلك تُعبر الموسيقى عن الوجه العاطفىِّ الذى تتعاطى به الحبَّ .

وفى الشمال يكون الحبُّ روائياً ، وفى ألمانية ترتقى الرغبة فى القصائد والأشعار الغنائية إلى ما فوق الإنجاز والتحقيق ، أَجَلْ ، إنه يُتَغَنَّى هنالك بالحبِّ المُمْتِع ، بَيْدَ أن الحبَّ التَّعِسَ أروعُ من كلِّ حبٍّ ، والرغبةُ الروائية التى هى فى الأحلام أكثرُ مما فى التمتع أمرٌ خاصٌّ بأمم الشمال ، وهى وليدة الضَّباب فتجعلُ الحبَّ الشمالىَّ شِعْرِياً غيرَ حقيقىٍّ ، ومن شأن الحَنَق القاتم هنالك أن يأخذ محلَّ الأوطار البسيطة الطبيعية ، وتَجِدُ فى هذا سرَّ حديث شعراء الشمال عن « غَمِّ الجنسين » فى الغالب ، ذلك الخاطرَ الذى يضحك منه مَن استَمَرَّ تحت شمس البحر المتوسط ، وفى مطلع قصيدةٍ لِديهمل جاء : « إن الغرامَ هَمٌّ » ، ولذا ترى انقطاعاً للتقاليد فى الحبِّ الألمانىِّ كما فى غيره ، وترى نُمُوًّا طليقاً للفوضى فيه ، والمرأة الإنكليزية تشابه المرأة الألمانية فى الحبِّ ، وقد تكون المرأة الإنكليزية أقلَّ رِقّةً

(1) شغف فؤاده : علاه وشمله .

من المرأة الألمانية ، ولكنها أبرع منها وأورع ، فهى فى إبَّان أوثق علاقاتها تذكر أنه لا ينبغى أن يُنْطَق بكلمة « سِرْوال » ولا بكلمة « بَطْن » .

والمرأة الأمريكية قليلة الخِبْرة فى الحبِّ إلى الغاية ، وذلك لأن مُثَل بلدها العُلْيا هى الحركةُ والنجاح والتقدم ، أى الأمورُ الثلاثة المناقضةُ لنشوء الحبِّ وغيرُ الملائمة .

والفرنسىُّ أكبرُ متفنن فى ذلك لاتِّباعه مُثُلاً مخالفةً لتلك مخالفةً تامة ، أى لاتِّباعه سبيلَ الهدوء والعُزْلة والصَّفاء ، وإذا كان عليكم أن تجُوبوا ثلاثين ميلاً فوق طريق ذاتِ مناظرَ من أجْل الحبِّ فإنه لا يكون لديكم ما يتطلبه ذلك من الوقت والتركيز ، وإذا ما وَجَب على الشخص أن يعيش أمام الناس وأن يلتقط صوراً فوتوغرافية له فى كلِّ حين وأن يأكل فى العَرَبة وأن يأخذ معه المِذْياع فى كلِّ مكان فإن الرغبة فى الحبِّ لا تتَفَتح بذلك ولا تتحول من اللُّطْف الأوَّلِىِّ إلى ساعات الغرام المائجة .

ومما أبصرتُه فى عِدَّةِ أصياف على شواطئ كَليفورنية(1) أزواجٌ عاشقون وأزواجٌ مُتأَهِّلون ، أكثرُهم مِلاحٌ ومُعْظَمُهم عُرَاةٌ ، فهؤلاء قد قُتِلَتْ أحاسيسهم الغرامية لِما كان من سكونهم ومن تلويح أبدانهم بالتعَرُّض للشمس أو دَهْنها بالزُّيُوت ومن قيامهم فى آن واحد بالأمور الثلاثة : تناولِ المُثَلَّجات وقراءةِ المجلات وسماعِ الإذاعات ، وعكسُ ذلك حال الأزواج فى فرنسة حيث لا يكونون فى مكان عامٍّ ، بل ينتحون ناحيةً منعزلة .

ومن المحتمل أن يأكلوا ويشربوا ، ولكنهم لا يقرءون ولا يُنْصِتون لموسيقى

(1) كليفورنية : بلد أمريكى واقع على شاطئ المحيط الهادى .

رديئةٍ لا رَيْب ، ومن المحتمل أن يَعْزِفوا على البيَان أو يُدَوِّروا الحاكِىَ(1) فى البيت استماعاً إلى أغْنِيَة فى الحب ، ولكن جميع ذلك يتوقف على الإنارة والتَجَلِّى وحسن الحيلة ، ويبدو جهل الأمريكيين لفنِّ الحب ، فيما يبدو ، عند النظر إلى أن المرأة الأمريكية هى المرأة الوحيدة التى تَحْمِل فى العالَمَ نَظَّاراتٍ أمام الناس ولو كانت فتاةً فَتَّانة ، وهى بذلك تَقْضِى قضاءً تامًّا على ذلك المظهر الذى كانت تتَعَهَّده فى الساعات الأولى من مُغازَلةٍ جاهلةً حُبُوطَها ، ولهذا الخطأ وحدَه ، ووحدَه فقط ، يتلاشى جمالًا ذلك الدَّوْرُ الذى يَنْمُو فى غُضُونه أعجبُ الصَّوْلات وأروعُ الرَّغَبات بين الصِّراع والإقلاع عن تلك المقامرة الاجتماعية .

وفنُّ الحب الأصلىُّ غريبٌ عن الأمريكى أيضاً لِما ليس بين الأمريكىِّ والموت من أُلْفة ، وفى الشعر الأوربىِّ ، وفى اثْنَتَىْ عشرةَ لغةً ، تَجِدُ الموت مرتبطاً فى الحبِّ دَوْماً ، وما كان للذى يُنْكِر الموت كالأمريكى ، وما كان للذى يُنْكِر الأموات فيُنَكِّر وجوههم بتَلْوينها ، أن يُدْرِك جميع مظاهر الحبِّ الذى هو أخو الموت .

والشرقيون يَحْجُبون نساءهم فيختلفون عن الغربيين فى الحبِّ أكثرَ من اختلافهم عنهم فى جميع المسائل الأخرى ، فتراهم بذلك يحتفظون بنظام استبدادىٍّ مُتَحيز ألغاه الغرب منذ القرون الوسطى ، وتَقْضِى الشرقيات خَلْفَ حُجُبِهِنَّ ووراءَ قُضْبان نوافذهنَّ ، حيث هُنَّ فى عصرنا ، حياةً تَبْلُغ من العَجْز والعَزْل ما يستسلمن معه إلى الحبِّ حتى إلى الغَيْرة ، والحبُّ ، فى تلك الحُجُرات الخانقة القاتمة الطافحة بالوسائد والتى يسكن الهواء فيها من غير تجديد على ما يظهر ، قد بَلَغ من الفنِّ

(1) الحاكى : الفونوغراف .

درجةً لم يَقصّ خبرَها أيُّ كتاب ، ورأيُ الباشا الحقيقيُّ فى الحبِّ ، مع أَغْساله(١) وأَطْيابه ورَقَصاته الشرقية السافرة ، هو بالنسبة إلى آرائنا فيه كرأى الطاغية فى الحُكْم بمناهجَ ديموقراطية ، فكبيرُ خضوعٍ وتَأَثُّر وفَرْطُ تدقيقٍ وتكريرٍ وقليلُ تنادرٍ(٢) وسرور .

وتؤثر المِهْنة فى فنِّ الحب لا بممارستها فقط ، بل لأنها أول دليل على المِزاج ، وكيف لا يكون الساعِيُّ(٣) أكثرَ من القَصَّاب نعومةَ أيدٍ ورقةَ نَظَرٍ إلى النساء ، ومن النساء مع ذلك مَنْ يُفَضِّلْن الثانى على الأول ناظراتٍ إلى قُوَّته التى لم تكن غيرَ غِلْظَةٍ فى الحقيقة ، وكانت حُظْوة النساء فى غابر الأزمان ، دَوْماً ، نصيبَ المُقاتل الذى يبدو بجانب جُثة عَدُوِّه المغلوب ونصيبَ الفاتح الظافر الذى يقود الملوك المقهورين مُقَيَّدين بسلاسل ، وفى أيامنا أيضاً تُبْصِر الصائدَ الجالب معه عدداً من التَّدارِج(٤) يُؤَثِّر فى أَرَقِّ النساء وأكثرهن سِلْماً لِما يُوحِيه إليهن من رُجُولَته .

ومع ذلك تُبْصِرُ نِسْوَةً نَباتيَّاتٍ يُصَاحِبْن رجالاً ضِعافاً ، وذلك لأن التعصب ، ولأنه التعصبُ فقط ، يجعل الأشخاص فاترين تِجاه التجاريب الحِسِّية ، وتنجذب المرأة التى لا تَرَى أن تَغْتذيَ بغير الخُضَر ، والتى تبدو شاذَّةَ الاكثرات لصحتها ، إلى رجل ضَيِّق الصَّدْر كارهٍ لِلَّحْم بسبب مَعِدته النحيفة ، لا إلى عاشق جميل أُعْطِيَ من البَسْطة فى القوة ما الله به عليم ، وهكذا ترى انتقال هذه العوامل إلى دائرة الحب ، وهكذا لا يُبْصِر المتعصبون للنظريات العِرْقية درجةَ قُبْحِهم فى أنفسهم ولا قلةَ صلاحهم لِيَخلدوا فى أولادهم !

(١) الأغسال : جمع الغسل وهو الماء الذى يتطهر به – (٢) تنادر : أتى بالنوادر .
(٣) الساعى : نسبة إلى الساعة – (٤) التدارج : جمع التدرج ، وقد مر تفسير معناه .

ومن بين مِهَن الطبقة الوسطى ترى الطبَّ ألصقَها بمسائل الحبِّ ، فاذْهَبْ من القصائد الفارسية إلى ساحر إفْرِيقِيَّة الوُسْطى فإلى أطباء الأمراض الباطنية فى العواصم البِيض مارًّا بالدكتور فاوْست تَجِد الطبيب يَزْلَق من دَوْر الشافى إلى دور العاشق على الدوام ، وفى أيامنا أخذ المحامى يحتلُّ محلَّ الطبيب فى ذلك لِما يبدو من مبالاة المرأة بالطلاق أكثر من مبالاتها بخُبَاطِها(١) .

وما يكون من عَرْض المرأة بدنَها على طبيب فى سنٍّ يمكن أن يصبح فيها عاشقاً لها فينطوى على ارتباكٍ لها ، وما يكون من ملاءمتها لِمِثاله فلا يُؤثِّر فيه انْثلامُ رغبته بتجاربه ، وما يكون عنده من جِدٍّ حينما يَقْرَع قلبها بلطفٍ فلا يُغَيِّر شيئاً من شعورهما بأن شيئاً محالاً يَقَع بالحقيقة .

ولكن أَدَمَها(٢) إذا كان مَشُوباً بمرَضٍ وَجَب أن يَمُرَّ بعض الوقت على خيال الطبيب بعد الشفاء حتى يَحْدُثَ من الأحوال المناسبة ما قد يَهِيمُ(٣) فيه بها ، ويجب أن يكون متخصصو الأمراض النسائية من ذوى النُّبْل لكيلا يكونوا كلبيين ، بَيْدَ أن أناساً من ذوى النُّبْل يَنْدُر أن يكونوا من أولئك المتخصصين .

وأكثرُ من ذلك تهييجُ الممرِّضة للمريض حينما تَمَسُّه بيدها ، والآن يغدو الرجل ذلك المعذبَ مع أنه بطبيعته أكثرُ اعتداء ، والآن تغدو المرأة تلك المُؤَثِّرةَ مع أنه يزدلف إليها عادةً . وهكذا ينشأ غريبُ الصلات ، وفى زمن الحرب يصبح الوضع مضحكاً مُبْكياً ، وذلك لأن الممرضاتِ هن اللاتى يَكُنَّ محيطاتٍ بكلِّ مكان ، لا اللائى يَكُنَّ قريباتٍ من كلِّ مكان فقط .

(١) الخباط : الهستيريا – (٢) الأدم : البشرة – (٣) هام بها : أحبها .

وتَجِدُ المتفننين والأطباء متفاهمين تفاهماً تامًّا فى كلِّ زمن لأنهم من السَّحَرة ، ويجعلهم سِحْرهم أعلى من الرجل العادىِّ وإن شَعَروا بأنهم ليسوا غيرَ محترفين ، وكلاهما يلتقى فى ميدان الحبِّ ، وفى هذا سِرٌّ رغبة النساء فيهم كثيراً وتقليدِهنَّ لهم قليلاً .

وذلك لأنك بينما ترى الوجه الذى تُعَبِّرُ المرأةُ المصورة أو الشاعرة به عن عواطفها يُقْصِيها عن الحبِّ ترى المتفنن يدنو منه بما يساوره من الرؤَى فى كلِّ محيط فيزيد انغمارُه فيه ، وذلك لأن المرأة ، وإن كانت أغنى من الرجل حُبًّا ، أفقرُ منه فنًّا ، فما يكون للمرأة من أثر فنىّ ذى قيمة مشكوك فيها فيُبْعِدها من الحب الذى هو فَنُّها الغريزىّ .

وقُلْ مثل ذلك عن المرأة الممثلة ، والتمثيلُ هو الفنُّ الوحيد الذى يَرْفَع المرأة إلى مستوى الرجل ، وفى التمثيل يبلغ خيالها من الغرَق فى القيام بفصلها ما تَرْضَى معه بعَرْض نفسها على المَسْرَح رِضاً أكثرَ مما يتصوره الروائىُّ العامُّ فى الغالب ، فإذا ما نَهَكها دَوْرُها الكبير مالت إلى الحبِّ قليلاً جدًّا ، ويظهر مصداق هذا أيضاً فى أمر الممثل إلى حدٍّ ما ، فالممثلُ بعد التمثيل يكون أقلَّ من الصادح سرعةً فى أمر الحبِّ ، والرجلُ والمرأة إذا قامت بتمثيل دور الزوجين العاشقين لم يَلْبَثا أن يضحكا ويتهكما كثيراً عندما يكونان فى أجنحة المَسْرَح ، وهما يستمران على التنادر حول الحبِّ بعد أن يعودا إلى ثيابهما العادية ، فلا شىء أضرُّ على الحبِّ من تمثيله .

١٠

وإذا كان الحبُّ ذا مصدر جُثْمانىّ ، وإذا كان الجسم محلَّ تَجَدُّده . فإن الصداقة تقوم على أساس روحىّ قياماً تامًّا ، ولذلك تَجِد الصداقةَ أَنْدَرَ من الحبِّ فى درجاتها العليا .

وهل يكون أهونَ على الرجل أن يَقِفَ نفسه على رجلٍ آخرَ من وقفها على امرأة ؟ إن الجواذبَ والمصادفاتِ والسوابقَ أقلُّ عدداً وإن الجوَّ أكثرُ لطفاً ، وإذا كانت الصداقةُ هى العلاقةَ الوحيدة بين الرجال فإنها لا تَعرف بَدَاءةً واضحةً ولا نهايةً صريحة فى الغالب ، ومن الملائم أن يُدْعَى بالصديق شخصٌ قُضِىَ معه أُمْسِيَّاتٌ سارَّة ، ومما يجده الفرنسيون صحيحاً أن يقولوا فى اللقاء الثالث « الصديق العزيز » ، والإسبان يكتبون هذه الكلمة فى الكتاب الثانى ، وكلٌّ واحد يَذْكُر ما يُبْدَأ به الحبُّ من نَظْرة وقُبْلة ، والصداقةُ تُوطَّد بالمصافحة الحارَّة ، ولا أحد يَذْكُر الزمن الذى تَرَك فيه كلمة « سيدى » ، ولا يُطْمأَنُّ إلى درجة ما يكون من الإخلاص لِما ليس هنالك من أَمارات[1] بَدَنيةٍ مُعَيَّنة فتظلُّ الصداقة على الدوام مبهمةً حائرة إذَنْ .

وتُعارَض الصداقة بالحبِّ فى كلِّ مكان ، ويَصْدُق هذا بين النساء على الخصوص ، والصداقةُ لدى النساء أقلُّ وقوعاً لِما يكون من صِلَتهن الوثيقة بالحبِّ أكثر من صلة الرجل به ، وتَجِد لكِبار العُشّاق صداقاتٍ مشهورةً على حين يَنْدُر هذا عند النساء ، ومن أَجْل ذلك تَجِد النساء أكتمَ لمعاشقهن من الرجال

---

(١) الأمارة : العلامة .

الذين إذا ما شربوا قدحَ راح (١) أتوْا ما هو على جانب كبير من الخُطُورة ، أى اعترفوا بفتوحهم الراهنة فضلاً عن مبالغتهم فى إجراءاتهم « الباسلة » ، قال غوته : « كلُّ امرأة تدْفَع بطبيعتها امرأةً ، ويستدعى الرجلُ الرجلَ ، وهو يُوجِدُه عند عدم وجوده ، ويمكن المرأةَ أن تعيش خالدة من غير أن تتمنى وجودَ شبيهة بها » .

ولا تُشَبَّه الصداقة الكُبْرى إلا بالزواج المُوَفَّق، وهى إذْ لا توجب وَجْداً حِسِّياً تَعْرِض فى الحقيقة أسْمى ما يُحَقِّقه كلٌّ من الرجلين للآخر ، فى درجة الحياة التى تتقدم رويداً رويداً ، من الهَناءة مع زُهْد عن الجَذَل(٢) الشديد ، وما فى الصداقة من رُوحانية خالصة فيجعل من الزائد تقريباً ذلك الحُضُورَ اللازم الذى هو قاعدةُ الحبِّ الأساسية ، والواقعُ هو أن الصداقة تَشْتَدّ عن بعد ، وما يُؤْخَذ أو يُرْسَل من كتاب فينطوى على سرعة سرور ، وما يقوم به الصديق من زيارة نادرة فحالٌ يَحْدُث فيها انسجام الأرواح على الوجه الأعلى .

والصداقةُ ، إذ أنها لا تَعْرِف الطابع الجُثْمانىّ ولا الشكلَ الرَّمْزِىّ للعَقْد كما يَعْرِفه الحبُّ ، تَجِدُها أكثرَ من الحبِّ تقلباً وحريةً ، والصديقان الحقيقيان إذا ما اجتمعا لتناول كأس من الخمر وتساءلا بعد سنواتِ إخلاصٍ عنْ زمن بُرُوز وشائج الصِّلَة بينهما ذكرا عِدّة أدوار بعيدٍ بعضُها من بعض على ما يحتمل، وتكون أدوارها الحَرِجةُ أقلَّ وُضُوحاً أيضاً ، وغيرَ معروفةٍ لدى أحدهما فى الغالب ، فيَجْعَل هذا توطئةَ ما بينهما أكثرَ سهولةً ، ولا تؤدى الغَيْرة إلى مشاعرَ كالتى يُثيرها الحبُّ إلا إذا حلَّ شخصٌ ثالث محلَّ أحدهما فى قلب الآخر بجلاء .

والاحتياطىُّ ، ويَصْعُب حِفْظه فى الحبِّ ، هو الذى يَجْعَل الصداقة أمراً ممكناً ،

(١) الراح : الخمر — (٢) الجذل : الفرح .

وذلك لأن الصداقة ، كالقمر ، لا تَعْرِض غيرَ جزء من وجهها على الخيال المُدْفِئ الذى تدور حوله ، ومَنْ يُحِبّ مع احتياطىٍّ يَخْدَعْ نفسَه ويخْدعْ مَنْ يُحِبّ على مَرّ الأيام ، ومن يَكُنْ صديقاً بلا احتياطىّ يَخْسَرْ صديقاً ، وما يَنْسِف الصداقةَ ما يكون من الرغبة التى هى أساس كلِّ هَوًى فى وَسْمِ(١) الآخر والوقوفِ على دخيلته فى آن واحد ، والصداقةُ مع الشعور والملاحظة والذوق تَحْفَظ قسماً من الكِيان وتُمْسِكه بمشاورة الصديق والسرور به فى دوائرَ من العواطف المتقابلة والمُشابَهات .

وصداقةٌ كتلك الصداقة إذا نشأت فى عهد الطفولة كانت حاملةً قليلَ أخطار ، ولكن مع قليل مفاجِئات ، وأمزجةٌ كتلك الأمزجة المتقاربة إذا تلاقت مؤخراً انعقدت صداقة أسْنَى من تلك ولكن أقصرَ منها ، ومن المحتمل أن تُقَيِّد هذه الصداقة بعلاقات الحبِّ أو النسب ، وأجملُ صداقةٍ هى ما بين الأخ والأخت اللذيْن يتعارفان بعد فراق طويل على طرُق العَيْش المُلْتَفَّة فيُثيران ، عن إخلاصٍ وتهكم ومن خلال صباهما المشترك ، كثيراً من الذِّكْريات التى ينْسَيان بها بين الضحك والبكاء ما بين أحوالهما الحاضرة من مسافة ، وما يكون من تعكير صَفْو تلك الصداقة فى الغالب وجَعْلها مُتعذرةً بما بين زوجيْهما من تَضَادٍ فليس وليدَ مصادفة ، بل دليلٌ على اختلاف أخلاقهما العميق ، وهو يغدو واضحاً عند خِيارهما .

وهكذا يبدو الحبُّ عَدُوَّ الصداقة فى كلِّ مكان ، وذلك لأنه يكتنف كلَّ شىء فيتطلب كلَّ شىء ، حتى إن الصداقة بين الأبوين والأولاد التى تكون ممكنةً مع كبيرِ لَباقةٍ تنتهى على العموم عند ما تنشأ مشاعر الأولاد الغرامية ولو لم يُعارِضْهم

(١) وسمه : أثر فيه بسمة .

الأبوان فى ذلك ، وليس من غيرِ خطرٍ على الجميع أن يَدْخُل عنصرٌ جديد فى الأُسْرَة ، فإذا لاح كلُّ شىء طبيعياً حيناً من الزمن فإن اختلاف دَم المرأة وشخصيتَها ذات يَوْمٍ ينطلقان بغتةً كالسهم النارىِّ ، فالمرأةُ تكون مُبْدِعة فى حبِّها لحبيبها فقط ، لا فى صداقتها لأمِّه .

فلْيَأْخُذْ حِذْرَه مَنْ تَمْنَحُه الآلهةُ ذَيْنِك المَتاعَين ، فالآلهةُ لم تفعل سوى إعارتهما منه .

وهل تكون صداقةٌ حقيقيةٌ بين شخصين من جنسين مختلفين لم يرتبط أحدهما فى الآخر برابطة الحبِّ سابقاً ؟ يكون ذلك على الأكثر إذا كان يَفْصِل بينهما جيلٌ ، وذلك عند ما يقوم صديق الأب أو صديقة الأم بدور الناصح أو الرقيب أو الدليل ، بَيْدَ أن النساء والرجال إذا كانوا مَفْتُولِى السواعد وفى سِنِّ الحبِّ كان من العبث أن يحاولوا العيش أصدقاء من غير أن يتحرك وَعْيُهم الباطنىُّ مهما بلغوا من العقل وسُمُوِّ النفس ، وهذا أيضاً هو الذى يَجْعَل وثيقَ العلاقات بين أربعة أشخاص ، أى بين أزواج متحابِّين ، أمراً نادراً إلى الغاية ، فتلك العلاقات تقتضى لباقةً عالية وتتطلب قدرةً على التضحية .

وذلك لأن كلاًّ من الرجل والمرأة ينجذب إلى الآخر جنسياً مع حبِّ اطلاعٍ مستعصٍ من الحين الذى اتكل فيه كلٌّ من رُوحَيْهما أو نَفْسَيْهما على الأخرى بكلِّ ما فى الصداقة من مَعْنًى ، وذلك مع شعور كلٍّ منهما بفُقْدان مِثْلِ ما فى التسليم الجُثْمانى من ضَمانٍ هنالك على الرغم من أىِّ أمر كان ، وفى مثل تلك الحال يُوجِب سِحْرُ المرأة الجريئة أو تَجْرِبَتُها توازناً لا يمكن كُفُولُه[1] فَيَزِيدُ الفُتُون بذلك .

(١) الكفول : الضمان .

وصداقةٌ نفسية بين زوجين شاذَّيْن كتلك تُوجِب من الاختلاج كالذى يحدث فى أحد الملاعب حينما يَرْتَجِح زوجان فى الفضاء فيورثاننا خوفاً مستمراً لإمكان سقوطهما .

وعلى كلٍّ من الرجال والنساء الذين لا يحاولون ابتعاداً مراعاةً لزوج الآخر أن يَعُدُّوا أنفسهم أناساً من الجنسين مع ما بينهم من صداقة ، فما يقع ذاتَ مساءٍ أن يستحوذ عليهم حبُّ الاطلاع المُتَجَمِّع والرغبةُ الطبيعية فى أن يَمْلِك بعضُهم بعضاً ، وهنالك التنازعُ والتلاومُ والتوتر والفراق المُباغِت ، أى ما يُثْبِت بُطْلان مقاصدهم الأُولَى ، وإذا حَدَث أن ذَوِى حبٍّ سابق فانقلب إلى صداقة مع ثقة باسِمَة كان من الممكن مع ذلك أن تخرج شرارةٌ من الرَّماد فى يوم من السنوات القادمة .

١١

وما هو البُغض ؟ وهل هو خاصٌّ بمُتْحَف الحبِّ ؟

يمكن البُغْضَ أن يَنْمُوَ كالحُبِّ ، ويمكن أن يَعْظُم بتَجَمُّع دلائلِ الأَثَرة وعداوة شخص آخر ، ولا دَخْلَ للحبِّ ، ولو عَرَضاً ، فى اشتداد نفور رجل من آخرَ إلى أن يتحول إلى بُغْض عميق ، ولا فى تباغض امرأتين بفعل الغَيْرة ، فالعوامل ضِمْنِيَّة والأسبابُ عامة ، ويتعاقب تَبَدُّد الأحلام والانتقامُ صادرين عن مئة من الأحاسيس البشرية .

والبُغْض لا يقترن بالحبِّ إلا إذا ظهر بغير سبب وعند النَّظْرة الأولى ، والحبُّ فى أصفى وجوهه يخرج من تلك المِشْكاة[1] ، والبُغْضُ ، كالحبِّ ، ذو سَيْرٍ جُثْمانىٍّ ، وقواعدُه

(١) المشكاة : كل كوة غير نافذة ، وقيل الأنبوبة فى وسط القنديل .

الأولية من أصل جُثْمانى ، ومن ذا الذى لم يُجَرِّبْ فتح باب فَيَفْسَح فى المجال لمرور شخص من ذات الجنس فيَكْرَهه من فَوْره مُبْصِراً أنه مصدر عِداء مباشر ، وهذا الانطباع الأولُ القاطع الذى يَتَّفق لنا من شخص نَنْفِر منه بلا سبب ظاهر يَصْدُر عن كِيانه الجُثْمانى ، فيُقْبَل بذلك من حواسِّنا ، ومن النادر أن يكون ذلك خطأً ، ومن النادر أن نُحْمَل على إعادة النظر فى ذلك الانطباع الأول .

ونحن ، لِما يكون من ملاحظتنا فوراً ، وفى آن واحد ، أحدَ الوجوه المجهولة وملامحَه وإحدى الهيئات وحركاتها الغريزية ، نَجِدُ الانطباع الذى تَدَعُه لنا تلك الدقيقةُ الأولى أحسمَ من التعديلات التى نأتى بها فى غُضُونِ طويلِ الشهور ، وذلك كالولد الذى يَتَعَلَّم فى السنة الأولى من حياته مالا يتعلمه بعدئذ أبداً .

وهكذا يكون ذلك الغريب الداخل الذى قد نَجْهَل حتى اسمه عدوًّا لنا من ذلك الحين ، هو لم يَصْنَع لنا شيئاً ، ومن المحتمل أن كان مجيئه لمقاصدَ وِدية ، ولكنه عُدَّ عَدُوًّا لما ظهر من طوله وشُحُوب وجهه وشكل رأسه وعَقْف أَنْفه ونَظَره الحادِّ خَلْفَ منظاره وهبوطِ كَتِفَيْه وتَوَتُّرِ ذراعه عند رفعها للسلام وخروجِ كلمة حائرة من فِيهِ بصوت غليظ وارتباكِ ابتسامته ، وهو قد يكون قصيراً رَبَلاً(١) وَرْدِيًّا أصلعَ الرأس ساطعَ الهامة صغيرَ العينين ضاحكَ الناظرَيْن حاضرَ الدُّعابة فيبدو عَدُوًّا لشخص آخر مختلفاً عن الأول اختلافاً تامًّا ، ولكن مع رؤيته إياه داخلاً فى الوقت نفسه .

وذلك لأنه لا شىء فى العالم من ثَقَافةٍ ورأيٍ ومصلحةٍ يُفَرِّقُ بين الناس أو يَصِلُ بينهم بقوة جَلِيَّة كالكِيان الجُثْمانىّ الذى يُسْتَبَر به من فَوْره المِزَجُ

(١) الربل : الكثير اللحم .

المُحالِف أو المُخالِف ، وليس هنالك من حيلةٍ تُنْكَر بها هذه العِرْفة(١) الخاطفة ، ومن يُؤْمِنْ بهذه الامارات البسيطة الأولى التى تَعْرِضها الطبيعة يَكُنْ فى الغالب أقلَّ انخداعاً من أولئك الأذكياء الذين يَجْمَعون مختلفَ المظاهر للسَّجِية الواحدة فيجعلون صورةً منها .

وإذا كان ذلك الانطباع الأول سَلْبيًّا بتاتاً فإن حقداً يَتَوطد دافقاً من ينابيعَ أعمقَ من التى يَصْدُر عنها العِداء ، وذلك لأنه ، وهو بلا أساس ، من عطاء الله ، فلا يمكن نَزْعُه لهذا السبب ، وشعورٌ مثلُ هذا مما يُصادَف فى الغالب بين أناس من عروق مختلفة أو بين ممثلين مثقفين من طبقات متضاغنة(٢) ، وشعورٌ مثلُ هذا مما يُرَى بين متفننيْن يكفى أن يتبادلا النَّظَراتِ حتى يُبْصِرَ ما فى آثارهما من ظاهرة لا يُوَفَّق بينها لِما يلوح من تهادمها وتناكرها .

وحقدٌ واسعٌ كذلك مما لا يزول أبداً ، وحقدٌ على ذلك الوجه الغريزىِّ مما لا يُصادَف بين أناس من الجنسيْن المتضاديْن ، والرجلُ الذى يُورِث المرأة عند دخوله نفوراً بلا أساس يَعْرِض لديها فى الوقت ذاته عنصرَ جَذْبٍ خَفِىٍّ لا تَقْدِر على الخلاص منه ، وإذا حدث أن رجلاً أبصر فى الشارع امرأة مجهولة تَمُرُّ قريبةً منه مباينةً جسماً للتى يَحْلُم بها أو التى يَعْرِفها فلم يَرُقْه ثوبها ولم يُعْجبه طِيبها فإن ما يلقيه وراءها من نظرة حاقدة لتعكيرها مزاجَه ينطوى على أثر من رغبة نافرة ، وهو قد لا يعترف بذلك ، ولكنه يَوَدُّ لو يَظْفَرُ بهذه العَدُوَّة منتقماً لنفسه بإذلالها .

(١) العرفة : المعرفة .
(٢) تضاغن القوم واضطغنوا : انطووا على الأحقاد وقابلوا الحقد بمثله .

ويُفَسِّر مصدرا الشعور ذانك ، ويُفَسِّر تراصفُ(١) الحب والحقد بين الجنسيْن ذلك ، تلك الانقلاباتِ المفاجئةَ التى تجعل كثيراً من قِصصِ الغرام الحقيقية والخيالية ينتهى بفاجعة ، وما يَرْقُد بين الجنسيْن من عِداء عميق خفىّ برَغْم كلِّ شيء فإنه يستيقظ بعد سنوات من التسليم ، حتى بعد سنوات من الصداقة ، وهو قد يؤدى إلى الوعيد ، وهو قد يُغير الرجل الهادئ فى بضع دقائقَ فيدفعه إلى القتل العتيد(٢) ، ومن المُرَجَّح أن يختبئ هنالك جميعُ الروابط الجوهرية التى تَجْمَع بين الحب والموت فيَنِمُّ عليها ما يكون من حَسْرَة بعد ليلةِ تسليم ، والآن ، بعد سنين ، تظهر واضحةً على يدٍ رعناء شاهرةٍ مُسَدساً ، ويمكن عَدُّ الغَيْرة عاملاً فى ذلك ولكنها ليست غيرَ عارض ، والواقعُ هو وجود قُوًى خفية هنالك ، ولا يستطيع أحدٌ أن يُنكِر العالَمَ الفاجع الذى تَصْدُر عنه هذه القُوَى ، وإنما يمكن البحثُ عنها ومداراتُها وإطراؤها أو مكافحةُ الشخص لها كلَّ يوم فى نَفْسه أو حَوْلَه ، والإنسانُ قد يحبُّ العاصفة وهو يتمنى جوًّا صافياً مع ذلك ، وما تَمَثُّلُنا للعالَمِ إلا كما تَصْنَعه إرادتنا ، لا كما تَصْنَعه الحوادث .

١٢

إذا خَرَج الحبُّ عن طَوْره الطبيعىِّ ظَهَرَ على ثلاثة أوجه : كَفٌّ وغَيْرة وغُلُوٌّ .

تُبْصِرُ أسعدَ الناس بين من يَكُفُّون ، ولنا فى المثالين الكبيرَيْن المألوفَيْن فى شبابنا مظهران مختلفان ، وانظُر إلى غُوته الذى زَهِد فى مِضْمار الحبِّ أكثر مما غزَا تَجِدْه قد احتفظ بعد الأربعين من عُمُره على الأقل بمرفأ خالٍ من عواصف

(١) تراصف : تنضد (٢) العتيد : الجسيم .

الحب يستطيع أن يلجأ إليه فى الحين بعد الحين ، والمرأةُ هى التى أَحَبَّ غوته ، وصاحبُ الجهاز العصبىِّ الذى لا تُبْصِر ما هو أشدُّ تعقيداً منه ، غوته هذا ، ارتبط فى المرأة ثم تزَوجها ، وغوته هذا دَلَّ فى الوقت نفسه على حَيَوية شديدة لولاها لتَعَذر عليه أن يَهْتَزَّ ويُبْدِع ما أبدع ، وغوته هذا قد زَهِد فى شَبَابه ثم فى مَشِيبه بقسوة مع ذلك فتلاشى ذاتَ مَرَّةٍ تقريباً ، وانْظُر إلى بِتهُوفِن ، الذى زَهِد على الدوام فلم يَعْرِف الحب البدنىّ إلا ظاهراً وعَرَضاً ومع قليل صفاء ، تَجِدْه قد بلغ من خِلال مشاعره الرائعة أعلى درجات الوَجْد فى المَهْل(١) الذى خَلد حُبَّه فيه ، وبِتهُوفِن هذا كان شاعراً بذلك ، وهو لم يَحْسُد الفِتْيان الذين سَلَبُوا الحِسان منه إلا فى أيام الضَّعْف، وما كان هذان العبقريان ليَلُوحا عند التحليل دون شِيلَر(٢) ومُوزَار اللذيْن أَحَبَّا كثيراً جِدًّا .

وليس مجموع الأحاسيس لدى الرجل المجهول الذى ظَلَّ طَوَال حياته وَفِيًّا للظِّلِّ ، أو للنور كما أقول، أقلَّ مما لدى المرأة التى تأباه ، ويمكن الرجلَ ، وهو يعيش بأحلامه، أن يحافظ ويُعَظِّم خيالَه غيرَ خائف على ضَياعه ، وما يزَمِّله(٣) به خيالُه من دِثَار(٤) وَهْمٍ فإنه يَحْميه من تبَدُّد الأحلام الذى تفرِضه الحقيقة عليه بجَفْوة ، وفى اليَوْميَّات والروايات خَبَرٌ عن حياة معاشق الرجال الخيالية فتعلم منها أن رِقَّتهم تتجلى كثيراً من أجل عَرَبة تَنْتَظِر عِدَّةَ ساعات ، ومن أَجْل تقبيلِ يدٍ فى بضع ثَوَان .

ويُعَبِّر غوته عما فى زُهْده من سعادة بقوله : « يظهر أن ما يُحَبُّ به الآخرُ من غرام أَرْوَعُ من الذى قد أَحَبُّ به تقريباً ، وترانى أُبْصِر سلطان القلب الجميل من غير أن يُكَدِّر زَهْوى هذا التأملَ الخالص » .

(١) Adagio — (٢) شيلر : شاعر ألمانى كبير (١٧٥٩ — ١٨٠٥) .
(٣) زمله : لفه — (٤) الدثار : ما يتغطى به النائم .

ورَجٌّ المرأة بذلك الزهد فى الحبِّ أ كثرُ من ذلك ، وتقضى الطبيعة والعادات بأن يكون الرجل أولَ من يتَّخِذ أُولَى الخُطُوَات ، ولا تستطيع المرأة أن تحاول شيئاً خَشْيَةَ سوء تفسير الرجل لحركتها ، وما يصدر عن الرجل من تحبُّب طائش فيبدو لها أمراً طبيعيًّا على حين يظهر ذلك الطيش أليماً إذا ما صدر عنها ، و إذا كان من اللُّطْف أن تتودد المرأة إلى الرجل الذى اختارها عن عاطفة خالصة فإن مما يَضَع من قَدْرها أن يَحْبُوَها بمثل تلك العاطفة ذلك الذى تَعْبُدُه ، و إن ما يبدو من المرأة الظافرة الفاترة من ابتسام فَفَتَّانٌ طبيعىٌّ ، و إن ما يبدو من الرجل الظافر الفاتر من ابتسام فيؤذى المرأةَ ويَرْبُكه ، والذى نراه هو أن على الرجل وحده أن يتملق على الدوام ، وأن تكون المرأةُ هى التى تُتَملق على الدوام .

والزهدُ فى الحبِّ يمكن فَرْضُه على كلِّ واحد ، والزهدُ فى الحبِّ يمكن أن يحتمله كلُّ واحد ، ولكن الضُّعفاء هم الذين يُطيقون الحبَّ العاثرَ الجدِّ(١) ، وما يَرْفَع فى الزُّهْد يهين فى الحبِّ التَّعِس ، و إلَّا فما معنى قولك: «أُحِبُّ وأَتملق من لا يُحِبُّنى» ؟

وڤِرْتر(٢) الذى زَهِد هو على عكس العاشق الشقىِّ لِما كان من مقابلة غرامه ولكون شعورِ محبوبته بالواجب وحدَه هو الذى حال دون عيشهما معاً ، وما كان من عجزها عن التَّحرُّر من سابق وعدِها لخطيبها ، ولهذا السبب وحدَه ما دام يمكن ڤِرْتِرَ أن يُؤذِيَه غيرَ مُتَرَدِّدٍ لولا ذلك ، فقد اشتدت بسببه وطأة الحياة على ڤِرْتِر ، فنَشَد السُّلْوان فى الموت ، ولكن هذا العامل نفسَه ليس خالصاً ، بل يَشُوبه حرصٌ خائب ، أىْ حالٌ لم يلبث العالِمُ بالرجال العظيمُ نابليونُ أن أماط اللِّثام عنها فى رواية غُوته تلك .

(١) العاثر الجد : الساقط البخت ، أى التعس — (٢) فرتر : من اسم رواية لغوته .

و يَغْدُو العاشق الشقىُّ سَوْداوىَّ المزاج ، ثم ينتحر لعدم حُبِّ المرأة التى اختارها إياه ، ولا تَجِدُ رجلاً ينتحر لِما كان من منع المرأة التى أحبها نفسَها منه بدَنيًّا ، بل لِما كان من نَبْذها إياه نهائيًّا وشعوره بجَرْح كرامته جَرْحاً بليغاً ، وما كان انتحاره ليستحقَّ الإعجاب أ كثرَ من الإعجاب بتسليم المرأة نفسها إليه راغبةً فى إنقاذه مع أنها لا تُحِبُّه ، وذلك لا يَحْدُث لغير ذَوى الأمزجة السقيمة الذين لم تطمئنَّ نفوسُهم والذين يجهلون هذا الأمر فيَخْشَوْن الغَرَق الذى يقودهم الرأى العامُّ إليه ، وفى هذا تَجِدُ السِّرَّ فى أن الغرام التَّعِس يُثِيرُ عاطفةَ الضعفاء الذين لا يَقْدِرون على مواجهة مصيرهم كالعاشق نفسه .

و يمكن أن يكون مع أحاسيس الزُّهْد غَيْرةٌ ساخطةٌ فتَزِيد أَلفَ ضِعْف ، ولا تكتسب هذه الغَيْرة قوةَ العنصر الطبيعىِّ إلا حين تصاول(١) شخصاً أُحِبَّ فيما مَضَى ، فمَنْ يَملِكْ يَعْرِفْ وحدَه قيمةَ ما أضاع ، ويَذُوب كثير من الأحاسيس فى نار الغَيْرة ، فترى الرغبة والحسد والزهو والانتقام أموراً تَغْلِى معاً فتسَمِّمُ قلب العاشق ، ومَن يستطيعُ فى ذلك الحين أن يكون فيلسوفاً بدرجة الكفاية فيُحَلِّلَ المسائل هادئاً ويَعْرِفَ نصيبه من الإثم ؟ أفلم يَجْهَلْ فى سنوات كثيرة أدقَّ رَغَبات المرأة ؟ أفلم يُبْعِدْها عن دَعَارة(٢) أو كرامة فأجابت رجلاً آخرَ إلى لَجَاجه(٣) ؟

ولكن الرجل يُلْقِى الآن كلَّ ذنب عليها ، وهو فى الوقت نفسه يحاول بما يمكن من الوسائل أن يُقَلِّل من شأن مَظْهر خصمه وثيابه وأوضاعه واستعداده ، وهو فيما يَشْعُر بهَضْم حَقِّه فى غرام يتمسك به بأ كثرَ مما يَتَصَوَّر لا يَدُور فى خَلَده

(١) صاوله : واثبه — (٢) الدعارة : الخبث وسوء الخلق — (٣) لج فى الأمر : لازمه وواظب عليه وأبى أن ينصرف عنه .

أن يُصَغِّر قيمته الشخصية التى قد تـكون السببَ الوحيـد فى تفضيل الآخر عليه ، والرأىُ هو أن يقتصر مَيْسِرُه على تسليم المرأة وتسليم نفسه وأن يَعيش بما تأتيه به الأيام ، وهو يَقْدِر أن يعتزل المجتمعَ ويعتزلَها بصمْتٍ عالٍ يستطيع به أن يعترف عاجلاً ببُعْدها ، غير أن ما كان من تفضيلها رجلاً آخرَ عليه يوجب شعورَه بأنه أُهين كشخصٍ جِنْسِىّ ، ويقضى ليـالىَ عصيبةً فيُخَيَّل إليه من خلالها وجودُ مؤهلات فى مُنافسه لم تُؤَثِّر فى اختيارها له بالحقيقة .

وخَلْفَ تلك الغَيْرة تُبْصِر على الخصوص شعوراً خَفيًّا يُعرِّفه غُوتِه بقوله : « إن الغَيْرة هى التَّنبؤ بصِلاتِ شخصٍ بشخص » .

بَيْد أن الرجل يَأْبَى اعتقادَ ذلك أو سماعَ ذلك ، وهو فى غيْرته لا يبحث عن ذكاء مُنَافِسه ولا عن دهاء خصمه الذى أقام دليلًا جديداً على قابلِيَّاته ، وإنما يبحث عن رُجُولة خصمه فيأْلَمَ أشدَّ الألم عند ما يُخَيل إليه وجودُ قوة من الشباب فيه لا يَقْدِر على بلوغها ، وما كان هامِلْتُن ، وهو يَسْمَع من وراء الباب زَفَرَاتِ الحبِّ بين زوجته وعشيقها نِلْسُن ، ليَصْنَع شيئاً لا يَصْنَعه مَنْ يكون فى مِثْل وَضْعه من رجال آخرين ، وقليلون أولئك الذين لديهم من السُّمُوِّ ما عند فُولْتِير[1] الذى وَجَدَ وهو فى الأربعين من عمره خليلتَه بين ذراعَىْ أحد تلاميذه فاكتفى بتعزيرهِ لعَدم تَستّره .

وأشدُّ من ذلك أَلَمُ المرأة التى تُخْتَان[2] ، فهى إذ كانت تَشْعُر بأنها هُجِرت حتى فى منزلها تُبْصِر اختلافَ الوَضْع يوماً فيوماً وتُبْصِر ابتعاد الرجل شيئاً فشيئاً ، وهى تستدعى صورةَ المرأة الأخرى من خِلال تَأَمُّلٍ طويل مُحَاوِلةً كشفَ لُطف خفىّ فيها ، محاولةً كشفَ سِرٍّ قُوَى غراميةٍ إذا ما انتزعتها منها أو جاوزتها

(١) فولتير : كاتب فرنسى كبير (١٦٩٤ – ١٧٧٨) – (٢) اختان : خان .

عاد إليها ما كان ذاتَ مرةٍ لديها ، وهى تَذْكُر بحزنٍ ما قامت به فى سنوات كثيرة من تضحية فى سبيل ذلك الرجل ، وهى تفكر أسيفةً فى أن الرجل استطاع ، من أجْلِ بَدَنٍ أنضرَ قليلاً وأحمرَ قليلاً وأَدَمٍ أحلى قليلاً وأنعمَ قليلاً مما عندها ، أن يَنْسَى جميعَ ذكريات القلب والرُّوح التى كان يجب أن يرتبط بها كلٌّ منهما فى الآخر إلى الأبد .

والمرأةُ لأنها تَعْرِف أن تَحْقِد أكثرَ من الرجل على العموم ، والمرأةُ لأنهـا لا تستطيع أن تنتقم لنفسها بالسلاح ، سَهُل عليها أن تَكْشِف بما لديها من مَكْر غريزىّ ما يمكن أن يُؤْذِىَ منافستَها ويُسْقِط منزلتَها ، وهى حين تسير على هذا الوجه تكون قد اختارت سبيلاً سيئاً مع ذلك ، وفى المَسْرَحيَّة التى عَلِمت فيها كليُوپاتْرة[1] زواجَ أَنْطونْيوس[2] بروما وَصَفَ شَكْسپيرُ جميعَ النساء الغُيُرِ فى الغرام .

والغُلُوُّ فى الغرام يُؤَدِّى أيضاً إلى دُجُون[3] غايته ونقصان بَهْجَته ، ودُون جُوَان[4] هو مثالُ ذلك الغُلُوِّ الأبدىِّ ، وفَاوْستُ فى ذلك عِدْلُه[5] .

واليومَ أولئك الرجال قليلون ، والثَّراء ضرورىٌّ لبعضٍ والفَطَنُ[6] ضرورىٌّ لبعضٍ آخرَ ، والفراغُ ضرورىٌّ لهما ، وما هو واقع من عدم اطمئنان على ما يُمْلَك وما هو واقعٌ من تَتَبُّع النقود فيجعلان حياة كحياة دُون جُوان بعيدةَ الاحتمال إلى الغاية فى الوقت الحاضر ، وما هو واقع من التخصص فيجعل الفَطَنَ أمراً عسيراً عُسْرَ

(١) كليوباترة : ملكة مصر المشهورة ، وقد سحرت بجمالها قيصر ثم أنطونيوس ثم انتحرت بلدغة حية فى السنة الثلاثين قبل الميلاد – (٢) أنطونيوس : ابن أخ لقيصر ، وقد فتنته كليوباترة فغلبه أكتافيوس (٨٣ – ٣٠ ق . م) – (٣) دجن : اسود – (٤) دون جوان : شخص أسطورى (٥) العدل : النظير – (٦) الفطن : الفطنة .

وَلُوع فاوْست ، واليومَ يَعوز دُون جُوانَ مستمعون ، واليومَ يَخْسَر الحبُّ فائدته لديه إذا لم يَسْطِعْ أن يُباهِيَ ويُثْبِتَ للشُّرَفاء الآخرين بمُفَصَّل الأقاصيص وبما لا يَكِلُّ من الفُتُوح أنه يَفُوقهم ، وزِدْ على ذلك كَوْنَ الوَزْن الغِنائىِّ السريع فى عصرنا يُسَيِّر بلا انقطاعٍ حتى الزِّير[1] (دُون جُوان فى الصورة الصغيرة) ويَحُول دون نَيْله فراغاً .

ومُجْمَلُ القول أن آية زماننا هى تسويةُ الأمثلة برَغْبة النساء فى ملاءمة الطِّراز الذى يُشِير به الزِّىُّ وفى تشابههن بما يُزَهِّد فى تجاريب دُون جُوان ، ومن ذا الذى يسعى اليوم وراء الهَدَفِ الأعلى بعد ذلك كلِّه ؟

ومن المحتمل اليوم ألا تزالَ المرأةُ تحاول فى غُضون حياة تسودها الآليَّةُ والإذاعة إنقاذَ قسم من الحُلْم الذى يحافظ عليه المتفنن وحدَه بين الرجال ، ولِذَا تَجِد فى الوقت الحاضر مطابقةً بين خيال النساء وخيال المتفننين الذين ينتظرن منهم كبيرَ إخلاصٍ وفَهْمٍ وزمنٍ ، وبَدَت دُون جُوانُ الأنثى التى لم تَفْتَأْ تَنْشُد الرجال أقلَّ قدرةً على الاستيحاء من دُون جُوانَ الذَّكر ، وعَكْسُ ذلك أمرُ نينون[2] التى ظَلَّت فاتنة لعدم نِشْدانها ولاستعلانها على الدوام ، فهى قد بَقِيَت عدَّة سنين مع عاشق واحد ، وهى قد كانت حائزة لسِرِّ المحافظة على سلطانها إلى عُمُر متقدم .

وتَمَكَّن كازانُوڤا[3] من إبقاء قوةٍ لِما أَوْحَى به من أُسْطُورة أكثر مما استطاعه دُون جُوانُ الذى تَرِنُّ حَوْلَه حركاتٌ فاجعة ، لا فى مُوازار وحدَه ، غير أن نَقْص التمييز فى كازانوڤا وحُمَيَّاه فى جَمْع النساء مُقَلِّداً دُون جُوان مما يَحُطُّ من قيمته ،

(١) الزير : الذى يداعب النساء — (٢) نينون : امرأة مشهورة بظرفها وجمالها ، ولدت فى باريس (١٦٢٠ — ١٧٠٥) — (٣) كازانوڤا : مصور من أصل فنيسى ، ولد فى لندن (١٧٣٠ — ١٨٠٥) .

وهو يجهل تلك الأدوار الهادئة التى يتدارك الآخرون فيها ما يَفُوتهم ، وهو يحترق بنار حامية دَوْماً ، فيُذَكِّرنا بذلك النَّهِم الهائل المستعدِّ لتناول ثلاثَ وَجَبات فى اليوم الواحد مع شِدَّة شرَهه .

وأكبرُ متفننى الحبِّ ذلك استطاع، مع ذلك ، أن يَبْقَى حَيًّا بعد مغامراته ، حتى بعد دَعَاراته ، وهو يَلُوح ، عند ذكر اسمه ، أنه يَدْخُل الباب فى أحد أوقاته وأحد أزيائه .

ويقوم سِرُّه على السذاجه التى يَصِلُ بها إلى حظيرة الحُبِّ ، وهو ، على ما فيه من عُجْب ككلِّ فارس ومن كَذِب ككلِّ كاتب ومن غَدْر ككلِّ مغامر ، يبلغ ساحة الحُبِّ بنَضْرة تتجدد كلَّ يوم لأن الحبَّ حياتُه فى الحقيقة ، وهو يَعْرِف أن الحبَّ يكون بَدَنياً فى بدء الأمر وأنه لا يَغْدُو روحانياً إلاّ بعد زمن ، وهو يَعْرِف أن بياض الأَدَم وامتلاء الشفتيْن ونعومةَ اليديْن ورِقَّةَ الرِّجليْن مما يُعيِّن الفُتُونَ والقوة ودوام الحبِّ ، وهو يَعْرِف أن الحبَّ كفاحٌ فلم يَجْعَلْه قاتماً كما صَنَع دُون جُوان ليُصَيِّره فلسفةً .

وليس هنالك إنسان ، وليس هنالك شاعر غَزَلىٌّ من أُوڤيد[1] إلى بُودْلير[2] ، وليس هنالك مُصَوِّر من كراناك[3] إلى فراغُونار[4] ، مَن استطاع أن يكون بريئاً براءةً كَلْبِيَّةً كالتى قصَّ بها ذلك الخليعُ الساحر حياتَه الغرامية .

(١) أوفيد : شاعر لاتينى (٤٣ ق . م — ١٦ ب . م) — (٢) بودلير : شاعر فرنسى (١٨٢١ — ١٨٦٧) — (٣) كراناك : مصور ألمانى : (١٤٧٢ — ١٥٥٣) .
(٤) فراغونار : مصور ونحات فرنسى (١٧٣٢ — ١٨٠٦) .

١٣

إذا أردنا أن ندرك مدى ما طرأ من التبديل على مبادئ الحب كفانا أن نقابل بين مسائلنا والمسائل التى درسها ستندال فى كتابه الممتع : من الحب .

هو قد بدا عصرياً حينما طالب بحرية النساء والفتيات ، ولكن ما قصّه من مغامراته الخاصة ومغامرات أصدقائه يترك فينا أثر الوشاء[1] الذاوية[2] ، وهو إذا كان قد حلّل أحاسيس الحب تحليلا عميقاً فلأنه كان متأثراً بمقتضيات بيئته الاجتماعية ، وماهى التحولات التى تغيرت بها حياة الحب بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٩٤٠ تغيراً أساسياً إذن ؟

نذكر تحوّل البنيان الاجتماعى فى بدء الأمر ، فالمجتمع فى زمن ستندال ما فتئ يكون خاضعاً لنفوذ البلاط ونفوذ طبقة الأشراف وإن لم يحكما فيه ، وذلك المجتمع ، الذى لايعيش اليوم إلا بين وساوس بضع مئات من المركيزات واللوردات الذين يظنون أنهم يمثلون « العالم » كما كان يصنع أسلافهم ، هو الآن من القوة فى قصر بكنغم ما يستطيع معه أن يعزل سفيراً لزواجه بامرأة مطلّقة ، وهو قد بلغ من قوة الوهم ما قدر معه منذ سنين قليلة على نزع التاج من رجل فى مثل ذلك الوضع فنال إدوارد الثامن بذلك نصراً أدبياً كخاتم نبلاء الدنيا ، ولكنك فيما تبصر ستندال يحلّى معظم أمثلته بأسماء الأسر الكبيرة لما كان لفضائلها ورذائلها من سلطان رمزى لا ترى اليوم غير دور للصور المتحركة وأبناء ملوك جرّدوا من أموالهم . واليوم يعيش ذو السلطان خارج نطاق الحب بعد أن كان ذات حين يلتمس

(١) الوشاء : جمع الوشى ، وهو نوع من الثياب الموشية — (٢) الذاوى : الذابل .

الدفء من شمس غرامه فيتوقف على النساء نصره أو خسره ، ولا أحد يقص جاداً قصص مغامرات غرامية لدى الطغاة لما ليس عندهم ما تقتضيه من الخيال والوقت ، وإذا سألت عن خطب[1] المركيزة الصغيرة بلا مركيزية ، والتى كانت خدناً[2] لأحد وزراء فرنسة ، أجبت بأنها لم تكن معروفة ، حتى بباريس ، إلا فى وسط ضيّق مغلق راقٍ إلى الغاية ، وبينما كان الرأى العام قادراً فيما مضى على إلغاء مغامرةٍ عند ظهورها أو على معاضدتها حتى تزدهر لتوارى العجب والحرص وراء نصف أمور الغرام ولعدم اجتراء أحد على الاستهانة بالرأى العام بلا عقوبةٍ تبصر عصرنا ، عصر المساواة الديموقراطية ، يدع أمر الخيار حرّاً ، وأما من تراهم من نجوم السينما والرياضة القليلين فيهدفون من أجل الإعلان إلى لفت أنظار الجماهير حول مغامراتهم الغرامية .

والواقع هو أن التقدم الصناعى أدى إلى نزع الحركة من الأسر الغنية والنبيلة وأوجب منح الطبقة الوسطى قدرةً على التنقل فى كل زمن ، والواقع هو أن السيارة أضحت محرِّرةً للنساء ، ومما كان يحدث فى أيام صبانا أن يظل الخطيب ثلاثة أعوام من غير أن يتبادل هو وخطيبته الخفية قبلةً واحدة ، حتى إنه فى سنة ١٩٠٠ كان يستحيل على الفتاة أن تذهب هى وخطيبها وحدهما إلى دار التمثيل ، وهى تستطيع اليوم أن تسافر مع رجل غير خطيب لها ، وهى تستطيع اليوم أيضاً أن تتناول الدولاب ولو رمزاً وأن تقبّل أى غريب يروقها ، واليوم أصبحت العزلة ، التى كانت مرغوباً فيها كثيراً فلا تجمع فى مراتع[3] جبال الألب غير الراعى وابنة

(١) الخطب : الأمر — (٢) الخدن : الحبيب والحبيبة ، لأنه يقع على الذكر والأنثى .

(٣) المرتع : موضع الرتع ، من رتعت الماشية أى أكلت وشربت ما شاءت فى خصب وسعة .

المُسَاقِى ، سهلةً على الجميع ، واليومَ يَقْدِر كلُّ رجلٍ أن يَسْتدعِىَ بالهاتف ، من وراء البحار عند الاقتضاء ، مَنْ يُحِبُّها ليَتَمتع بسماع صوتها فقط ، واليومَ تَقْدِرُ كلُّ امرأة أن تُوافِىَ عشيقها بالطائرة من فَوْرها ، واليومَ لا ضرورة إلى المال ولا إلى المَقام للقيام بمشاريع الغرام .

وهنالك عاملٌ آخرُ كان ذا أثر فى تَعَهُّد الحبِّ فعاد غيرَ موجود كوسيلة لتربية الفؤاد ، وبذلك أَقْصِد الأدب مع أبطاله الذين كانت طبيعتهم ومصايرهم تُورِث الإنسان رَغْبَة فى منافستهم ، ولم يَنْشُد أحدٌ من أبطال الحبِّ المعاصرين شأنَ ڤِرْتِر وأَبيلار اللذيْن كان يتمثلهما عُشّاق روايات ستِنْدال بلا انقطاع ، وإنما يُكْتَفَى بمشاهدة الأفلام التى لا تترك أمثلةً بارزة لتغييرها فى كلِّ أسبوع ، وفى أيامنا تَحُثُّ الكتبُ شُبَّانَ الزمن على الائتمار والصَّنْعة والتحرى ، ولكنها لا تُعَلِّمهم شيئاً من الحبِّ .

والواقع أن ذلك ليس ضروريًّا ، فالحبُّ يُعلِّم نفسه بوسائلَ أخرى ، ففى الماضى كان الجندىُّ يَزَّيَّن بتاجٍ فيجتذب النساء بشُعاعه ، واليومَ تبصر جنوداً أكثرَ ممن كانوا بِبِزّاتهم الرسمية فلا بُدَّ من تَمَتُّع الرجل بشهرة قائد الغوّاصات المِقْدام حتى يُؤَثِّرَ فى خيال النساء ، وما تَعْلَم من حِرْص الرجل على أن يَرُوق المرأةَ فكان يُحَقِّق هدفه أيضاً ، وما كان كثيرٌ من الأعمال لِيُنْجَز بغير هذا الوجه من الإقناع الغرامىِّ .

وهنالك أيضاً بتجلى زَهْوُ الرجل ، والمرأةُ تُغْضِى عن غُضُونه[1] ما ظلَّ قويًّا ، والمرأةُ تظهر فَخُوراً إذا ما فاق الآخرين بإرْبه[2] ورقَّته وتربيته ، والرجلُ يودُّ أن يُعْجَب بجمالها لأنها امرأتُه على حين يقول للآخرين بابتسامه ونَظَره :

(١) الغضون : جمع الغضن ، وهو كل تجعد وتثن فى الجلد — (٢) الإرب : الدهاء .

« إننى المُفَضَّل الوحيد الذى يُدْعَى إلى النوم على ذلك الصَّدْر الرائع » ، ومن ذا الذى أبدع المذهب القائل إن على المرأة من الزوجيْن أن تكون جميلة وإن على الرجل من الزوجيْن أن يكون لا معاً ؟ أفَيُطاق وَجْهٌ دَمِيم[1] لأنه وجه رجل ؟ أفيكون الوجه الطليق دميماً ؟ أفلا تُصْبِح ملامح المرأة غيرِ الجميلة جَذّابةً إذا ما كانت ذاتَ ملاحة وإقدام رُوحانىّ ؟ زِدْ على ذلك كَون الجمال وحدَه يُتْعِب فى الحبِّ ، ولكن « الرُّوحَ التى تُصَوِّر البدن » يمكن أن تجعل المرأة مرغوباً فيها ولو لبراعتها فى مدافعتها ، أَجَلْ ، إن اجتماع جسميْن جميلين هو الوجهُ الكلاسىُّ الذى يُرَى الحبُّ به ، بَيْد أنه يَبْدُو مُملاًّ ، على العموم ، كمنحوتات كانوڤا[2] .

وقديماً كان الأبطال ، من مِنِيلاس[3] إلى إيفانُويه[4] ، يحاربون لينالوا الحُظْوة لدى النساء ولو مَنْ هَرَب أو ظَلَّ مجهولاً منهن ، واليومَ تتوجه أبصار النساء إلى الفائزين فى مُبارَيات الزَّلَق ومسابقات السيارات أكثرَ مما إلى الفائزين بجائزة نوبِل ، واليومَ ترى المرأة بين مَنْ يَجِب على الرجل أن يقهرهم ، وذلك لِما يَبْدُو من منافستها إياه لأول مرة فى التاريخ ، ومن جديد الأحاسيس هو ما يحوم بين الحِرْص والحُبِّ ، والرغائب فى القلوب الفَتِيَّة تَتَعثَّر بين الفَتْح الغَيُور والخضوع ذى الحُبُور ، وتُبْصِر العُشّاقَ والخصوم فى صعيدَيْن منفصلَيْن ، وتنتهى تلك المنازعات بالضحك أحياناً ، وبالحقد أحياناً .

وما بَيَّنّاه من المبادئ التى تَصْلح أن تكون قواعدَ للحب ، أى مساواةُ الفتاة بالمرأة ومساواةُ المرأة بالرجل ، فقد حَرَّر الحبَّ فى أيامنا من العبودية والحُكْم

(١) الدميم : القبيح — (٢) كانوفا : نحات إيطالى (١٧٥٧ — ١٨٢٢) .
(٣) منيلاس : ملك إسبارطى أسطورى — (٤) إيفانويه : اسم رواية لوالتر سكوت .

المُبْتَسر ، ولكنه حَرَمه أموراً ثمينةً توارت مع المحظورات .

وفى الماضى كان الرجل الذى يأتى أفعالَ الحبِّ يكابد قليلَ خَطَر ، وكانت المرأة التى تأتيها تعانى كبيرَ هَوْل ، وأما اليومَ فكلاهما لا يقاسى من الأخطار غيرَ الذى يَرْضاه ، وما كان من حقوق الأبوين فى تقرير زواج البنت ، ومن وعيد الكنيسة المعتبر حتى سنِّ الرشد ، ومن خَجَل الولد غيرِ الشرعىِّ ، فما كان منذ خمسين سنة يَجْعَل حال الفتاة شبيهة بحال النساء الشرقيات ، ولذا كانت المَهارِب[1] والفضائح أظهرَ مواضيع الروايات ، وفى أيامنا لا يُثِير الانتحار من أَجْل الحُبِّ اهتمامَنا فى السِّما التى هى مرآةُ عاداتِنا إلا إذا كان الممثلون لابسين ثيابَ دَوْرٍ ماضٍ ، وفى الفضائح يُهْتَف اليومَ للمرأة المغامرة، وفى مهارب المرأة اليومَ ما يُوجِب الهُزء لعجز الأب عن فَرْض عقوبة ولعدم حُكم المجتمع على امرأة تَتَّخِذ خليلاً لها أو تَهْجُر زوجها أو تترك خطيبها .

وعاد أولئك الرجال الذين كانوا يُحَدِّثون النساء بأمور محظورة عليهن ، كهجوم الفرسان والمعارك الانتخابية وقَطْع السَّابلة ، لا يُوَجِّهون إليهم أنظارهن ، والنساء فى الحين بعد الحين يتعلمن الاضطجاع تحت السيارة وشَدَّ اللَّوْلَب بدلاً من التطريز والتصوير والعَزْف على البيَان ، وهنَّ يَسْحَرْننا بتمايلهن على مِرْقاة السيارة أو جناحها شِبْهَ عاريات على حين يُمْسِك حبيبُهنَّ دُولابَها أو دفّتها، والمرأةُ كانت تبدأ نهارها بتناول كأس من الشُّكولاتة الساخنة على سَرِيرها المستور بالمُخَرَّمات فغدت تبدؤه اليومَ بالرياضة البدنية لابسةً ثوب الحَمَّام و بالاغتسال بالماء البارد ، ولمَّا أوجب طَيْش الغرام عادةَ قصِّ المرأة لشَعْرها أُعْطِيَت الإشارة فسَلَّم الرجال آخِرَ آية على سيادتهم ، حتى إنهم فى الحبِّ تنزَّلوا عن مركزهم وحريتهم .

(١) المهرب : الهرب .

ومنذ خمسين سنةً مَضَتْ كان حُبُّ المرأة يبدأ دَوْماً بدء دفاع ، وذلك فى جوّ من الحياء والحَذَر والتَّردد ، فكانت تَدَعُ الرجلَ الذى يَتملقها فى دور الانتظار حتى بلا دَلال ، وكانت تُطيل ، وكانت تزيد فى أَجَل الانتظار عِدَّةَ أسابيع ، وما اجترأ عليه ستِنْدال من الحَثِّ على الحبِّ فكان رَقْصَ دَوَران[1] سريع ، واليومَ تَمْنَح خُطُواتُ الرقص العصرىِّ البطيئةُ الزَّلِقة للرجل وللمرأة فُرْصةَ الاعتراف بما يُريدان وفُرْصةَ تحقيقه من فَوْرهما تقريباً ، واليومَ بفَضْل مُلَيْساء[2] الحانات الحديثة صِرْت لا تُبْصِر ليالىَ بلا نوم ونُهُراً[3] بلا أحلام ، ولا يكاد يكون السؤال والانتظار والشكُّ أَثَرَ إبطاء ، فكلُّ شىء يُنال فى الحال إذا ما رَغِب الزوجان، وثمنُ هذا النصر قليلٌ نتيجةً ليُسْره وسهولة نيله ، و يُجْتَنب الشِّعرُ والغِناء حتى كلمةُ « الحبّ » الرائعةُ ، وتؤثَر الأسماء المُدَلَّلة مع ظَرْف ، ولا تُثِير الأقْحُوانة[4] التى تُقْتَطف غيرَ ضحك استخفاف، فكلُّ شىء يَهْدِف إلى اجتناب كلِّ وَجْدٍ فى الحبِّ .

١٤

لا يتضمن الزواج ، وهو من أخطر تجاريب الحبِّ ، غايتَه، ولكن من الصعب أن تُجْتَنب مخاطره ، ومن المسائل التى يتعذر حلُّها أولَ وَهْلةٍ أن تُحَوَّل النارُ الحامية إلى لَهَب عَذْب ، وكيف يستطيع الخيارُ الأول الحُرُّ الناضِر أن يظلَّ صادقاً فى جميع مواسم الحياة ؟ وكيف تبقى ، كما هى ، حالُنا الروحية التى نكون عليها فى نُزْهة بغابة قَانٍ[5] ذاتَ صباح من أبْريل ، وذلك طَوَالَ صيفٍ حارٍّ وفى خريف

(١) Valse, Waltz — (٢) المليساء : بين المغرب والعتمة — (٣) النهر : جمع نهار .
(٤) الأقحوانه : واحدة الأقحوان ، وهو نبات أوراق زهره مفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان .
(٥) القان : شجر تصنع منه القسى .

بارد وشتاء بلا وَرَق ؟ أليس من التجارب الكافية أن يُعَرِّض الإنسان فى خطوطنا العَرْضِيَّة لتقلبات الجوِّ فى كلِّ سنة ؟ والآن تُبْصِر زوجيْن من أُمتيْن مختلفتيْن ومن طبقتيْن متباينتيْن نُشِّئا على روابطَ وعَنْعناتٍ متغايرة فاتَّحدا فى البَداءة عن تجاذب جنسىّ ، والآن تَفْتَرِض دوامَهما معاً فى جميع الأحوال والمغامرات مُدَّةَ حياة بأَسْرها ! يُشابه الزواجُ المَسْرَحَ كشِرْعةٍ بمحاولتهما إدخالَ نظام خيالىّ خالص إلى طبقة متوسطة ، وذلك بتعيين أوقات وواجبات وحقوق ومحظورات ، ومن هنا يَبْدُو النزاع الدائم بين المستصنِع والصانع و بين الزوج والزوجة .

أليس الأَحْسَنُ ، إذَنْ ، أن يُصار إلى الزواج وَفْقَ ما يمليه العقل بأن تُقدر جميع الأحوال الملائمة وتُطْرَح الناحية الجنسية أكثرَ مما يُطْرَح المنطق ؟ أفلا تتألف قاعدة صالحة للزواج من أن تُضاف فى الحساب إلى ثروة الطرفين أو دخلهما السنوىّ أخلاقهما وأهواؤهما ؟ وإذا نظرتَ إلى أمر المِزاج وجدتَه يتوازن فى المستقبل ، والصحةُ مع الزمن هى الأكثر أهميةً فى تجاذب الجنسين وإنجابهما بالولد على مايحتمل، ألا يكون الزواج القائم على العقل مُوَفَّقاً فى الغالب بغير دَعْم العاطفة إياه ؟ ألاَ يجب أن يكون العقل مهيمناً على كثير من ساعات حياتنا أكثرَ من هَيمنة الحبِّ ؟ ألاَ إن الليل للنوم ، ألاَ إن النهار سيدُ الحياة .

ومهما يكن فى ذلك من صدق فإن الاختيار الشخصىّ هو الذى يُمْكِن ذكره ، أفَيُفَضِّل الزوجان تخصيصَ إمكانيَّاتهما لحياة منظمة بدقة يَتَّحدان فيها ليحتملا مسارَّ حال نافعة ومَلاَلَها ؟ أم يُفَضِّلان عبادةً باطنية لمبدأ عالٍ فى الحياة وسامٍ للبشر ولو انطوى على أخطار ؟ وفى الزواج إذا ما انقلب الوِصال إلى عادة كالطعام أو عُطْلةِ آخِر الأسبوع غَدَتْ حياة الزوجيْن أهدأَ مما عليه حين كان يسيطر على

اتحادهما شعور بأن الشريكيْن من جنسيْن مختلفيْن ، غير أن ذَيْنك الزوجيْن الأوَّلَين لن يَعْرِفا عناصرَ الحياة البعيدةِ الغَوْر لفِرارهما من نورها الساطع الأول ، والدولةُ ، إذ كانت تبالى بمستوى أبنائها المتوسط لا بحَدَّيْه المتناهيَيْن ، تَجِدُها تُفضِل الزواج القائم على العقل من حيثُ النتيجةُ .

وتجعل الضرورة أمر الزواج مستحيلاً عقيماً كمبدأ مع تَدَخُّل الدولة ومع تداخل عاملَى القوة الواسعَى الاختلاف فى حياتنا ، الدولة والحب ، على ذلك المعنى ، و إذا كان المؤمنون الحقيقيون يعترفون لكاهنهم بعد قرار جِدِّىّ فإن هنالك انسجاماً فى العادة القائلة إن الذى أَعْتَرِف له هو الذى يجب أن يباركنى ، ولكن من السُّبَّة للإنسانية أن يقرأ موظفٌ فى « مكتب الزواج » ، أو أن يقرأ رئيسُ البلدية ، النَّموذَجَ المعتاد المُصَرِّحَ فيه بأن على الفتاة الجالسة أمامه أن تُطيع من ذلك الحين أوامرَ الفتَى الواقِف بجانبها ، وأسخى عملٍ بين الزوجين ، أو أعظمُ هِبَةٍ يتبادلانها ، أو التسليمُ الذى لا علاقة لخُلُوصه بأية صلة أخرى بين الرجال ، هو ما يَسْمَح به ، أو الذى يَأْمُر به الحامى غيرُ الشخصىِّ ، أى الدولةُ التى يُمَثِّلها موظفٌ مرؤوس نَخَّار(١) يجب عليه فى الواقع أن يقتصر على تسجيل طَلَبَات النقد و إعانة الأولاد كما يقتضيه النظام الاجتماعىُّ .

وذلك لأن ما فى الزواج من إبداع وحيد هو فى تحويل السِّرِّ إلى جهر كما فى آخر تحليل ، والزوجان قد شَعَرا مئة مرة بأن أحدهما يَخُصُّ الآخر ، ولكن هذا حُفِظَ سِرًّا بينهما ، ومن المحتمل أنهما لم يُفْضِيا به إلى غير الأصدقاء الصميميين ، وهى ، لِما كان من انتحالها اسمَه بغتةً ، تُعْطَى له ولها غرفةٌ واحدة بدلاً من غرفتين ،

(١) نخر الإنسان والحمار والفرس : مد الصوت والنفس فى خياشيمه ، فهو ناخر ونخار .

ويُقدِّمهما أحدُ الخدَم أو أحد الأصدقاء معاً ، ويَحِلُّ الوقت الذى تقول فيه المرأة لأشخاص تجهلهم إن ذلك « زوجى » .

وإفشاء السرِّ ذلك يُغيِّر الوضع الخفىَّ كلَّه ، وما يكون من دخول الزوجين غرفةً واحدة كسيد وسيدة، وما يكون من إراءة العالَم تدانىَ وجهيْهما وبدَنَيْهما مع ما يتبع ذلك من الاعتراف بتحابِّهما وامتلاك أحدهما للآخر مما يؤدى إلى إضاعة هذا العمل الجرىء لجِدِّيته الهائلة نتيجةً لعدم التأمل ، ومما اجْتُرِئَ عليه ، وهذا لم يَشْعُر به غير الأَقَلِّين ، أن يُبْرَز أمام طائفة من الغرباء بوجوه سافرة وأن يُبْدَى أمام العالَم الخارجىِّ بما يحاول كلٌّ واحد أن يَتَستر به على مئة أسلوب فى حال أخرى ، وإلا فما يَعْنِي أن يُشْخَص أمام أناس من الأجانب زوجيْن زوجيْن فيتخاطبَ هؤلاء قلبياً ويتبادلوا حتى القُبلات جَهْراً ؟ إن العادة وحدها هى التى تُسَوِّغ تَكلُّمَ الزوجين من الشباب عن طفل ينتظران ولادته بعد أن كانا يَكتُمان أحاسيسَهما عن الآخرين ، وإن العادة وحدَها هى التى تُسَوِّغ عَرْضَهما على العالَم بأجمعه ما كانا يختلجان من أجله وَجْداً كأنه لم يكن كنزَهما المَكْنُون فيما مضى .

يالَهَا من عادة ! يالَهُ من خِيار ! يالَهُ من تَجْريب قائم على مالا يُدْرَك باللَّمْس صادرٍ عن الخيال والإرادة قد تَأَصَّل بالتدريج حتى غدا أمراً واقعياً ! هنالك مئةُ احتكاكٍ يومىّ ينشأ عن كلِّ شيء ، فلْيُكابَدِ الإبطاء ورَقْم الهاتف المغلوطُ فيه والنِّقاشُ حول أخلاق شخص ثالث ، فأين تكون كلمة السِّحْر .

لديك كلمة قصيرة ، لديك مَقْطَع واحد يشتمل على الدواء كلِّه فيجعل حياةَ الزواج أمرًا ممكناً ، ذلك هو الذوق ، والذوقُ يحتوى كلَّ شيء يتضمنه التسامح وحسن الشعور ، والذوقُ وحدَه هو الذى يُلطِّف كلَّ انتقال بين الحياة اليومية وساعات

الوَجْد الشديد ، والذوقُ هو الذى يَحْفَظ التوازنَ بين مزاجيْن مختلفيْن ، ويشابه الزواجُ روايةً لشكسبير يتعاقب الشِّعْر والنَّثْر فيها ، فيجىء أحدهما وراء الآخر من فَوْره ، وما يكون من حِفْظ الإيقاع والمحافظة على الوَزْن ذاتِه وملاءمة ما يأتى به الآخر من تغيير أوتلقين فمِنَ الفُنُون التى تُنال بالإقلاع، أى بوجه من وجوه الحبِّ ، وإذا ما رَغِب أحد الزوجيْن فى مطابقة الآخر كما فى أيام الحبِّ الأولى فإن رقة القلبيْن هذه تَقِى الاتحاد وتَضْمَنه .

بَيْد أنك فى الغالب ، ولدى أولى البَأْس على الخصوص، تُبْصِر انتصابَ كلمة « أنا » ونِشْدانَهم بها غَزْوَ الآخر كلاًّ أو جزءاً ، وما تَعلَمه من ثِقَة كلٍّ بنفسه ومن توطيد هذه الثقة بالعادة التى ثَبَتَ أمرها فى سنين فيَقْضِي بأن يَنْظُرَ كلٌّ بعين النقد إلى الآخر، فإنه يَظْهَر ثانيةً فيَمْنَح الكفاح الغرامىَّ معنىً جديداً من البُدَاءة ، فتحاول المرأةُ الوَلُوعُ أو البعيدةُ الصيت أن تنتقم للاسم الذى تركته طَوْعاً وللسِّرِّ الذى نُزِع منها نزعاً بأن تُرَكِّز عزمَها وذوقها ومعرفتها وشخصيتها معارِضَةً ما عند الرجل الحبيب من ذلك بُغْيَةَ صَوْغ الرجل من جديد ، ويحاول الرجل من ناحيته ، وهو الذى قد يَضْفُو خَوْفه من نجاح زوجته على ثقته بنفسه ، أن يكون كفاحُه للحياة الأقلّ سَطْعاً من القوه المُزْدادة ما يستطيع به أن يَصُوغ زوجتَه حسبما يَوَدُّ أيضاً .

وما بغير الذوق يُسَوَّى ذلك الاصطراع الذى يمكن أن يَقَع فى مِنْطَقة الرُّوح على سُمُوك(١) النَّسْر أو فى مِنْطقة المادة على انخفاض صِغار الطير أو فى كلتا المِنْطقتيْن معاً ، أَجَلْ ، إن ذلك من مظاهر الحبِّ الزَّوجىِّ ، وهو يَتَضمن بعضَ التسامح وهو ينطوى على شيء من حِسِّ المداراة ، وهو يُثْبِت نَفَاذه بتعليمه

(١) سمك سموكا : صعد .

الرجلَ احتمالَ صَفِّ المرأة حِذاءها صفًّا رديئاً أو تعليمه المرأةَ الصَّبْرَ على تهاونه فى إسدال الستائر ، ورِقّةُ القلب وحدَها ، وأكثرَ من سواها ، يُمكِنها بعد جِدال أن تؤدِّىَ إلى مُوادَعة لطيفة فى الليل فلا يكون السَّرير مَرْفأً حقد من فَوْره ، وذلك لأن هنالك غيرَ نكاحٍ قُوِّض بتسويةٍ وِصالٍ حِسِّىٍّ أكثرَ مما بغضب فى عِدّة أيام .

وهنا يَقَع العمل الاوّلىُّ على عاتق الرجل أيضاً ، وكثيراً ما يُمْنَى الرجلُ بالخَيْبة فى ذلك ، والمرأة قد تكون مسؤولة عن تحطيم الزواج كذلك ، ولكنها لا تكون وحدَها هى المُذْنبةَ فى ذلك أبداً ، على حين يستطيع الرجل أن يَنقُض الزواج بنفسه من غير اشتراك المرأة فى هذا النَّقْض ، ففى النَّمَط الذى يَقُصُّ به عليها قِصّةً جنسية مكشوفة ما يكفى ليُوقِظَ فيها رِيَباً فى سلوكه لما فى تخطيط الحدِّ بين الصَّفْوة وغِلْظة الأوضاع من صعوبة ، ويُمكِن الرجلَ فى أثناء تَصَعُّد(١) إيلاعه إلى التسليم أن يَقُصَّ بلباقة بعض القِصَص اللاذعة تقويةً لوَلَع المرأة ، ولكن لا ينبغى له أن يُسِىء استعمال لُطْف التى يَجِبُ بأن يُكرِّر غليظَ الألفاظ، وما يَصْدُر عن الرجل من قهقهة فى تلك اللحظة فقد يَحفِز المرأةَ إلى قَطْع صِلَة الزواج الغرامىِّ الذى هو فى مرحلته الأولى، والرجلُ . لما فَرَضَتْه الطبيعة عليه من المُراوَدة كالتَّدَرُّج الذهبىّ ، يجب عليه أن يكون المُسيِّرَ لتموجات الزواج الغرامىِّ ، وعلى الرجل فى بعض الساعات أن يعامل زوجته كما لو ظلتْ خليلةً له ، فهنالك فقط تستطيع أن تَعُدّه عاشقاً لها .

وإلى ذلك يُضاف عاملان فى مُعْظَم الأنكحة : المال والبنون ، وعلى ما ليس

(١) التصعد : اصطلاح موسيقى يقابله بالإيطالية كلمة Grescendo .

بينهما وبين الحب كحادثةٍ من أداة وَصْل تجدها ذَوَىْ دَخْل قاطع فى الأمر .

وإذ أن الطرفيْن لا يساعدان بمبلغ واحد أو أنهما لا يَكْسِبان مبلغاً واحداً فإن هذا يُؤدِّى إلى ما يَصْعُب التغلُّب عليه من تفوق أحدهما الأدبىّ ، والأفضلُ ، إذَنْ ، أن يَتكسب كلاهما مالًا فيغدُوَا شريكيْن فى أمر زواجهما ، غير أن هذا الحَلَّ العادىَّ يَنْزِع من المرأة شعورَها بتدليلها ، أى الشعورَ الذى تُحِبُّ به أن تُراعَى والذى يُحِبُّ الرجل به أن تُراعَى .

وإذا ماوَقَرَت(١) المرأةُ فى البيت وحيدةً أو مع جماعة من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعةِ السادسة مساءً غيرَ عارفة بسوى الخطوط الكبيرة فى أعمال زوجها ، وبسوى بَقِيَّة حسابه فى المَصْرَف فى آخر السنة على ما يحتمل، صار زواجهما المُمَهَّد فى خطر مع الزمن ، وذلك لما يلاحظه عاجلًا أو آجلًا من وجود مساعِدة ذَكِيَّة فى مُخْتَبَره ذاتِ نَهْدَيْن جميليْن يُسْتحب النظر إليهما ، وأولئك الإوَزّاتُ الناعمات ، اللَّائى يَمْسَحْن ما على جباه بُعُولَتِهن من غُضُونٍ أوجبتها الشُّجُون ويُقاسِمْنَهم عُطَلَ نهاية الأسبوع ويَتعاطَيْن معهم أعمالَ الحبِّ فى الحين بعد الحين ، يَجِئْن بين جُمهور العاشقات خَلْفَ المُزارِعة القديرة السَّليمة التى قَلَّما تكون حياتها على وَتيرة واحدة .

وعكسُ ذلك أمر المرأة التى تَغْدُو نَجِيَّة(٢) فتَتعقب جميع مشاريع بَعْلها وتَعيش مع خِطَطه وتُفكر فى مسائله ، فهذه المرأة تستطيع ، حتى عند عدم اكتراثها بالحقيقة ، أن تحافظ على تلك الجاذبية الذاتية التى تنتقل ، لدى المرأة الذكية ، من الروحىِّ إلى الحِسىِّ والتى يُقَدِّرها زوجُها كضَرْب من السِّحْر النِّسْوىّ .

(١) وقر فلان فى بيته : جلس بوقار — (٢) النجى : الذى تساره .

ومن الواضح أن على الرجل من جهته ألاّ يتمسك بما هو خاصٌّ بالطبقة الوسطى من التفريق بين المَنْزِل والأعمال ، بل يجب عليه أن يَهْتم بشؤون المَنْزل ، وإن لم يفعل ذلك فلم يلاحظْ ما فيه من إناء جديد أو سِماطِ(1) طعامٍ لم يكن خيراً من البَطَّة التى يُفترَض إلقاؤها السُّلْوان إلى قلبه ، ولـكن الرجل إذا ما كلَّم زوجته فى المساء حَوْلَ وكيله الجديد فى كَنَدَة أو حَوْلَ نَوْل(2) جديد للنسيج مثلاً فإنه يكون قد أدناها منه بحرارة باطنية أكثَرَ من التى تَتَّفِق لها ببقائها مستلقيةً على مُتَّكأ وهى تتصفح مجلة متخذة وَضْعاً كوضع نجوم السِّنما .

ويُسْفِر ما تُحْبَى(3) به المرأة من النَّجْوَى(4) والشُّورَى عن أجمل وجوه الزواج فى بعض الأحيان ، والمرأة التى يُحِبُّها رجل نارىّ مكافح مبدع تتحول إلى صديقة حَنُون ، حتى إنه يَنْجُم عن أسلوب تسليمها رجوعُ صِبًا إليه . وما أكثر ما عَرَض مِيكل أَنْجِلو(5) مثالَ المرأة الناضجة هذا فيلوحُ عاشقَها بذلك ابْناً لها تقريباً ، والتحليلُ النفسىُّ السخيف الفاسد وحدَه هو الذى يَرَى فى الحبِّ المُصَفَّى هذا رَغْبةً « مَـكْبوتةً » فى مُواقَعة الأمِّ الحقيقية .

والزواجُ فى مجموعه أكثرُ خَطراً بين المُوسِرين مما بين المُعْسِرين ، وليس للمال والحال بذاتهما ، أَىْ لناحيتَى الحبِّ المتقابلتيْن هاتيْن ، أَىْ لناثرَى الحياة هذيْن ، أَىُّ عمل فى الأسرار الروائية وفى الخَيَال والخَبال(6) ، وليُعارَضْ اختيارُ الحبِّ الفردىِّ بهما إذَنْ ، أو ليحاوَل اشتراؤه بهما إذَنْ ، ولم يَقِلَّ ، حتى فى عصر المال هذا ، ازدراءُ النساء القديمُ الذى يقول بأنهن يُشْتَرَيْن ، وذلك لأنه

(1) سماط الطعام : ما يبسط ليوضع عليه — (2) النول : خشبة الحائك ينسج عليها ويلف عليها الثوب وقت النسج — (3) حبا فلاناً كذا : أعطاه — (4) النجوى : الاسم من المناجاة والسر .
(5) ميكل أنجلو : مصور ونحات ومهندس وشاعر إيطالى مشهور (١٤٧٥ — ١٥٦٤) .
(6) الخبال : الفساد فى العقل .

يُجَرِّد أجملَ النساء المختارات وأكثرَهن إغواءً من بهائهنّ ولو كان الذهب يتحول إلى سُفُنِ نُزْهَة أو إلى مَعاطفِ فَرْو ، ولا يَطمئنُّ الرجل الغنىُّ إلى صِدْقِ حبِّ خليلته كالمتفنن الفقير ، والدُّوكُ هو أقلُّ رُكوناً إلى ذلك من الـكمانىِّ ، وأقلُّ الجميع فى ذلك هو مُخْرِج الأفلام الذى يرتعش أمامه جميع الفَتَيات ، ويتطلب الحبُّ من القلب إلى القلب ، على الرغم من السلطان والمال ، قوةً شخصية يَنْدُر أن تقترن بذَيْنك المُغْرِييْن فى الحياة المادية .

ويَعْظُمُ ذلك الخطر مع الزواج ، ويُدْنِى الـكفاحُ والـكارثة والحبوط بعضَ المتحابِّين من بعض أكثرَ مما تزيدُه الرغبة ، التى لا حدَّ لها فى الدرِّ(1) والسيارات والشهرة ، من ضُجْرة(2) المَنْزِل الأريستوقراطية ، ويجب على المرأة التى تعيش مُترَفةً أن تَتَّصف قبل كلِّ شىء بمتانة من الخُلق لا تَنْشُد معها عاشقاً عن كلال، على حين تُلاقى المرأة البائسة مَوَدَّةَ الرجل وتنال هذه المَوَدَّة بأسهلَ من ذلك .

واليومَ يُرْغَب عن الأولاد ، الذين يُمَهِّدُون أمرَ الزواج ويجعلون دوامَ غيرِ قليلٍ من الأنكحة ممكناً ، أكثرَ من الرُّغْب عنهم منذ خمسين سنةً أو مئة سنةٍ ، وفى الماضى كان المُزارِع والسيد يُريدان ذُرْعاناً وأفهاماً لشَيْبتهما ، غيرأن هذا أضاع معناه بفعل الوَضْع الصِّناعىِّ المُسَوِّى العَتيد الذى غَدَا اليوم نَقلُ المُلْك به صَعْباً ، وفى الحاضر تَحْفِز هموم الاقتصاد إلى عدم الإكثار من النَّسْل ، وللرجال وسائلُ لبلوغ ذلك فى طُرُق عدم الحَمْل ، وفى القرن القادم ، ورُبَما قبل ذلك ، ستَنْشُد إدارة الشؤون السِّلْمية تقليلَ عدد أبناء الوطن بدلاً من زيادتهم على غير جَدْوَى، فلا تُفْرَض ضرائبُ على العُزَّاب ، بل على من لهم ثلاثةُ أولاد فأكثر ، وإذا كان

(1) الدر : اللآلىء العظام — (2) الضجرة : الضجر .

بعض الملوك أو بعض أرباب الصناعات يودون أن يكون لهم من الورثة من يقومون مقامهم فى عروشهم أو أعمالهم ، و إذا كان لأية طاهية فى الوقت نفسه من القدرة ما تستطيع به أن تحول دون الولادة ، فلماذا يصار إلى كثرة الولد ؟

قلما يصار إلى ذلك بفعل الشعور الدينى الذى لا ينبغى لأحد أن يناهضه أو بفعل « غريزة الأم » التى ليست فطرية فى جميع الجنس النسوى أبداً ، والنساء فى الغالب هن اللاتى لا يردن الأولاد فى زماننا ، ولكن النساء أكثر من الرجال اعتناقاً للمبدأ القائل بوجوب الولد إيجاداً لأسرة سعيدة ، والنساء يرغبن أيضاً فى إظهارهن لصديقاتهن ما يقدرن عليه ، ثم إن ما يعرف من ذبول الحب يثير فى النساء خوف العيش وحدهن مع ذلك الرجل الوحيد نفسه ، وذلك فى عزلة ما أحر شوقهن إليها فى بدء الأمر ، ومع ما يعين الأولاد به وضع الأسرة الخارجى ومظهرها تجدهم ذوى أثر ضئيل فى الحب الذى يربط بين والديهم ، وفيما ترى الضوضاء والعناء من نصيب الأم وترى الدخل والخرج من نصيب الأب لا يخالج ضمير أى منهما وجود معجزة كبيرة هنالك ، وما يوحى به الأولاد من الأحاسيس والأفكار فيختلف كثيراً عما كان يسفر عنه قبلهم ذلك الاتحاد المزدوج الذى كان يقتصر كل شىء فيه عليهم .

وكلما زاد عدد الأولاد ذوى الحب الأول وراء ذلك النظام الصخوب الزاهى الطلوب الذى لا يعتم بطبيعته أن يغرق فيه صانعوه ، وما كان الأولاد ليمثلوا دوراً أساسياً فى قران صميمى كالذى بين فاوست وهيلانة أو كالذى يتمتع به قليل من المتفننين فى أيامنا ، ومن النادر أن يلد الوالدان النجيبان وارثين نجباء ، وهؤلاء لا يقدرون على زيادة الحب بين أبويهم لما يظهر من كونهم أدنى من أبويهم ،

و إذا حدث أن نشأ عن مثل ذينك الزوجين ثمرة ثمينة كأمر شاذ كان ذلك فى الحقيقة أجمل هبة تمن الآلهة بها عليهما .

وما أبديناه من سبب للزواج قائل بأن يمنح الأولاد نسباً فقد نبذ اليوم نبذاً تاماً فى ظل حرية المرأة ، وستكون « شجرات النسب » فى القرن القادم أقل ضماناً شيئاً فشيئاً ، حتى فى الزمن الذى كان الضغط فيه أشد من ذلك تجد ذلك الزهو الشرعى محلاً لسخرية شكسبير الذى قال الكلمات الخالدة الآتية عن نغل[1] غلوستر[2] :

« أنا الذى نال فى خفاء الطبيعة الشديد جوهراً وافراً وعنصراً قادراً أكثر مما ينال من زوجين منهوكين يأتيان على فراش واه واهن عملاً بلا لذة .

« واذهب إلى خلقة قبيل[3] من الطرحى[4] نسل به بين اليقظة والمنام .

« والآن ، أيها الآلهة ، كونوا مع النغلاء ! » .

والحب لا يخلد إلا بالاقترانات الكبرى مع ذلك ، والقليلون الذين اغتذوا بها يعرفون ذلك ، وهم وحدهم يكابدونها من زمن سمرة خصلهم[5] إلى زمن شيبة قذلهم[6] وإلى زمن صلعهم ، والمصور الذى يختار خليلته نموذجاً يعرض أجمل رمز للزواج الأكبر وأندره على ما يحتمل ، فهنالك يؤبد أول كفاح جنسى ويظل طابع المرأة ونفوذها بدنيين ، وانظر إلى ساسكيه وهيلانة فورمان[7]

(١) النغل والنغيل : ولد الزنا — (٢) غلوستر : لقب كثير من رجال التاريخ بإنكلترة ، أشهرهم دوك غلوستر الذى صار الملك ريشارد الثالث فيما بعد (١٤٥٢ — ١٤٨٥) .

(٣) القبيل : الجماعة من الثلاثة فصاعدا — (٤) الطرحى : جمع الطريح ، من طرحت الأنثى : ألقت الجنين قبل كماله — (٥) الخصل : جمع الخصلة وهى الشعر المجتمع — (٦) القذل : جمع القذال : جماع مؤخر الرأس — (٧) هيلانة فورمان : زوجة روبنس الثانية .

وسيسيلْية تَجِدْهنَّ فى صُوَرِهن يُعَبِّرْن فى وَضَح النهار وعلى أَعْيُنِ العالم بأَسْره ما أَنعَمْن به بَدَنياً من الحرارة فى ليــالى غرامهن مع رَنبرَانْت [1] ورُوبنْس وجيُورْجيُونِى، وهنالك فقط يَعيشُ من خِلال الفنِّ الذى هو غاية فى الشَّهْوة ما يَحُوزه الرجل السليم الحسّىُّ من الرَّوْعة والحبِّ .

والمرأة ، حين تُمَثل فى الفنون الأخرى دَوْرَ آلهة الفنون الجميلة ، تَبْدُو كما يراها الشاعر أو الموسيقىُّ ، ومن النادر أن تُبْصر جمال المرأة البدنىَّ فى روايات عاشقها ، بَيْد أن الرُّوح التى تَنفُخه بها والروحَ التى تُظْهِرها له تنعكس على جميع ما يـكْتُب ، ومن الممكن أن يكون تأثيرها وقَدْرها حاسمين ، حتى حيث لا يَتَجلى حضورها من فَوْرها ، وكانت كرِيسْتيان مُطَّلِعةً على رغائب غُوته الحِسِّيَّة فتَهب له ، كخليلة ، من الاتِّزان ما كان يَعجِزُ بغيره عن العمل ، وما كان يُصيب غيره من الشعراء سوى العَيَاء بإرادة حظاياهم ، ومما يَبْـقى مُعْظَمه غيرَ منظور هو فنُّ الحبِّ وتسليمُ المرأة نفسَها إلى عاشق مُبْدِع مع أن ذلك أهمُّ من رسالتها كأمّ .

وتأثيرُ المرأة ، كنَجيَّةٍ ، أَظْهرُ من ذلك ، وإذا ما اختار الملوك والطُّغاة والوزراء والأطباء والمستصنعون والمحامون نساءَهم بأَفْئدتهم استطاعوا أن يشاوروهنَّ فى كلِّ مَرْحلة حاسمة من مراحل مِهنهم بلا زَهْو ولا طمع فى مال ، ولا صديقَ أكثرُ حكمةً من المرأة اللطيفة المُدْرِكة ، وهذه المرأةُ لمَزْجها النقدَ بالمحبة ، وهذه المرأةُ لإبحارها معه على سفينة واحدة ، وهذه المرأةُ لحِرْصها على نجاحه وراءَ عواملَ إنسانية ، تَمُنُّ عليه ، عن غريزة صادقة ، بأثمن الآراء حَوْلَ الرجال

(١) رنبرانت : مصور هولندى مشهور (١٦٠٦ — ١٦٦٩) .

الآخرين وحَوْلَ شركائه وحَوْلَ رؤسائه ومَرْؤُوسيه وحَوْلَ المسائل التى لا يستطيع أن يُقرِّرها بنفسه بين هَرْج اليوم ومَرْجه .

والمخاطرُ ظاهرةٌ أيضاً ، والمرأةُ ، بما يكون من حَفْزها طموحَ المتفنن أو المخترع إلى الارتفاع فوق مستواه الاجتماعىِّ أو على زيادة حسابه فى المَصْرَف ، تستطيع أن تُقْصِيَه عن أروع ما يَقْدِر على تحقيقه بنُبُوغه ، ولـكن المرأة فى الغالب تُخْرِجه من فُتُوره وتُصْلِح ما بينه وبين أعدائه وتُسَهِّـل أحوال أعماله ، وفى ذلك كان شأن جُورْج ساند [1] والـكُونْتِس دَاغُو [2] وكُوزِيمـا قَاغْنِر أشهرَ من شأن المئات من غيرهنّ .

وفى الزواج عن مُهْجة يجب عليهما اجتنابُ ممارسة عمل واحد ، لما تؤدى إليه هذه الممارسة من حرص كلٍّ منهما على سَبْق الآخر ، ومن النادر أن يتألف من الشاعرين أو المُوسِيقارَيْن زوجان سعيدان ، ولـكن الرجل إذا ما أَبصر امرأَته مُعْجَباً بها لذاتها ، ولـكن الرجل إذا ما بَدَا لزوجته ظافراً فى أَعْيُنِ العالَم ، سواءٌ أفى مسابقة أم فى محادثة ، عَلَتْ أمواج حياتهما المزدوجة الواسعة علوًّا منسجماً فوق شواطئ اقترانهما ، ومن هذا القَدْر الثُّنائىِّ يَبْرُز ما يَقْضِى بالعجب من جَزْرٍ ومَدٍّ فى الوَجْد الرُّوحِىِّ والهَيْج الحِسِّىِّ ، وما ينشأ عن مثل هذه التجاريب من أُسْطورة فيكتنف زواجاً غريباً فى الحين بعد الحين فيَمْنَحُ هذا الزواجَ قوة عظيمة كالتى تَثْبُت به دعائمُ الأمة من مغامرات وحروب .

حتى إن العِراكَ لا يستطيع مع السنين زعزعة ذلك النوع من الاقتران الذى

(١) جورج ساند : كاتبة روائية فرنسية مشهورة (١٨٠٤ — ١٨٧٦) .
(٢) الكونتس داغو : كاتبة فرنسية (١٨٠٥ — ١٨٧٦) .

يَتَجنب الدَّالَّةَ كلٌّ واحدٍ فيه عند عدم ملاءمة الحال ، ويَبتعد كلٌّ واحد فيه عن مُبْتذل الأوضاع فى حَضْرة الآخر ، ويَعْرِف كلٌّ واحد فيه أن يُحَول الآخر عن الشِّجار بشىء من الاشتغال ، ومن ذلك رَمْىُ المرأة ، ذاتَ مرةٍ ، تُفَّاحةً على الأرض عن غَضَب وجَمْعُه لها وقَشْرُه إياها وتقديمُه باسماً قِطَعَها إليها .

وهل ترى فى العالم ما هو أروع منظراً من مشاهدة شخصيْن يَدْخُلان غرفةً واحدة مُتَحَابَّيْن كثيراً بلا اثْنَيْنيةٍ تقريباً ، وفى كلمة « تقريباً » هذه معنىً لِما يَصْدُر عنهما من سِحْر ، ومن الصواب أن يكونا متساوييْن طُولاً لكى يَنْتصبا كحيوانيْن جميليْن ، أو كنِصْفِ إلٰهيْن ، فى عالَمٍ واعٍ يَلُوح أنه خادم لهما من فَوْرهما ، فإذا ما جَنَّ[1] الليل جَلَسَت المرأة أمام مرآتها وتَقَدَّم الرجل وراءها ليعانقها ناظراً إليها ، فهنالك تتوازن روحاهما زَهْواً وتَضَرُّعاً فيشعُران بأنهما سعيدان حقًّا .

١٥

عدمُ تَعَدد الزوجات من مَضارِّ النصرانية ، فهو مخالف للطبيعة ، حتى إن أكثر الحيوانات نُشُوءاً واقتصاراً على زوج واحدة ليس كذلك إلا فى بعض الأدوار .

ومن الممكن أن يكون عدم تعدد الزوجات فى جزيرة منفردة ، وإذ أن خِيار الفرديْن الحرَّ يَتَوقف على اتفاقهما المنسجم بفعل مؤثِّراتٍ وأدوار خاصة ، وعلى تَصَرُّف النجوم كما قد يقال ، فإن دوامه يكون على نسبة ما يَسِير عليه خُلُقهما من مَنَاحٍ ، وفى الواقع يوجد خُلُقان فى الميدان ، فائتلافُهما وتَحاضُّهما فى سنوات طويلة من نِعَم القدر .

(١) جن الليل : أظلم واختلطت ظلمته .

ويُمْكِنُ الزواجَ الدارجَ الذى غَدَت المسئلة الجنسية به من العادات أن يَسِير بلا أَزَمات ، وليس الحبُّ الأكبر كذلك ، فهذا الاقترانُ النفيس بين نفسيْن سعيدتيْن هو فى كَدَره أحياناً كسماء النِّيل الأعلى الزرقاء زُرْقَةً أبدية حين يُغيِّمُ بالمطر أو يُظْلِمُ بالعاصفة ، وإلى الذوق الذى لا يُمْكِن أىَّ زواج أن يعيش بغيره يُضاف البُعْدُ الذى هو تِرْياقٌ[1] آخرُ فى مثل هذه الأَزَمات .

وتُؤَدِّى الطبيعة النِّسْوِيَّة إلى حبوط كلِّ محاولة يأتيها الرجل لتقليد الكُونت فون غلايْخِن فى معاشرة امرأتيْن بمَنْزِل واحد ، وأشدُّ من ذلك إحباطُ الرجل بطبيعته كلَّ محاولة تأتيها المرأة لمعاشرة رجليْن معاً ، أجَلْ ، يُمْكِن الرجلَ أن يَرَى مُتَبَسِّماً ، وعن مَحَبَّة ، صديقاً له يَرْشُف هنيئاً مريئاً آخرَ كأس رَحِيق مَنَعَ نَفْسَه منه ، ولكنه لا يستطيع أن يَجْلِس هادئاً حين يُبْصِر محبوبته تلتفت إلى رجل آخر فيُؤْوِى الثلاثةَ سَقْفٌ واحد ، وليس من شأن دائرة الحريم ، التى يَلُوح تحقيقُ العكس فيها ، غيرُ توكيد هذا التعذر بما يَحْدُث فيها من تنازعِ نساءٍ غُيُرٍ لا يُحالُ دونه بسوى القَهْر ، بَيْد أن ما لا يطاق عن قُرْب يُحْتَمل عن بُعْد ، فالرجلُ الذى يَتَعقب امرأته أو خليلته بخياله فى الجبال حيث قد تَجِد عاشقاً جديداً لها فى المساء يمكنه أن يَثُور غَضَباً على أن يهدأ بعد ذلك فيَبْلُغَ من الحالة النفسية ما يُوضَع به على العموم بين الحِكْمة والاصْطِبار وبين الكَرَم والتَّنادر .

وما يَسُود زماننا من روح فيُمَهِّد تلك الصعوبات ، وما تتمتع به المرأة العصرية من حرية فى إنباء زوجها أو عاشقها بأنها ستَخْرُج فى الغد مع رجلٍ آخرَ لسَفَرٍ قصير فينمّ على ارتداد فى فنِّ العيش فى زماننا ، وعادَ غيرَ موجودٍ ذلك الوقتُ الذى يُسْتَلُّ فيه

(١) الترياق : دواء مركب يدفع السموم .

السيفُ من غِمْده والذى يُعدُّ فيه شَرَفُ الرجل مجروحاً بما لا يُرْأب[1] صَدْعُه ، ومن النادر أن تَجِد اليومَ من يَثْأر لشرَفه الضائع بقتل خصمه ، وذلك خلا ما يكون بين الدَّهماء وفى بلاد الجَنوب حيث يُبرَّأ المُنْتقمُ كبطلٍ حقًّا ، وذلك لأن المجتمع تعَوَّد ما يراه فى كلِّ حين من رجل مع قرون غيرَ مُثِير سُخْراً ، وذلك لأن التسامح العامَّ المصطبِغ بِصِبْغة المحبة يَقُوم مقام حقوق الرجل ، ونحن ، حين نعترف للمرأة بحقوق مساوية لِما استأثر به الرجلُ منذ قرون ، نكون قد سَلَّمْنا لها بحرية الاختيار التى أخذت الفتاة تَحُوزها منذ عهد قريب جدًّا .

ولكنْ لِمَ التفاخرُ بالحرية والرِّفْقةِ حيث الخفاء حُلْوٌ حَسَّاس ؟ لا بُدَّ لكلِّ زوج وزوجة فى بَدْء الخِلاَط من أن يَنْصحهما صديق بمثل ما يَهْمِسه المحامى إلى السارق أو إلى القاتل بقوله ، « لا تَعْترِفْ أبداً » ، ولِمَنْ يُكْشَف أمرُه من الوقت ما يَبْتسم فيه أو ما يحاول فيه إبداء ملاحظة كالتى أتاها غُوته حينما أبصر زوجيْن عند عناقهما : « رأيتُ ولكنْ ما اعتقدتُ » ، وغوته هو الذى كتب يقول أيضاً :

« أَتَخُونينَنى ذات مرَّة ؟ إذا ما رأيتُ عَفَوْت ، ولكنكِ إذا ما اعترفتِ قسَوْتُ عليكِ مادمتُ حَيًّا » .

وذلك لأن الانقطاع الموقت فى اقتران يدوم مَدَى الحياة بين شخصيْن قويّيْن جريئيْن هو الوسيلةُ فى حفْظ هذا الاقتران ، فالرغائبُ المَكْبُوتة والمغامرات المردودة والرُّؤَى المرفوضة وحدَها هى التى تستقرُّ بالروح كالقُرْحة فيَنْخَر[2] الغرامُ الأكبر أمامها دَوْماً ، ومهما يكنْ من أمرٍ فإنّ أعمالَ الحبِّ المُحْرِق تَنْعَشُ الدمَ لوقت مُعيَّن فقط ثم يستغرقها الدمُ ، وما الشعورُ الكئيب الذى يستحوذ أحياناً على الزوجيْن المُتأهليْن

(١) رأب الصدع : أصلحه — (٢) نخر : بلى وتفتت .

عند ما يَذْكُران علاقاتِهما الأولى ، وما الحقدُ المُفَاجِئ الذى تَنِمُّ عليه أحياناً نَظْرَةٌ إلى شخص كان حبيباً ، وما الاتهام الصامتُ الناطق بأن كلاًّ من الزوجين سَلَب حرية الآخر ، إلا نتيجةُ القيودِ الشخصية ، إلا نتيجةُ سوء تفسير السُّنَن الخُلُقية ، إلا نتيجةُ عَهْدٍ قطَعه الرجلُ ذاتَ يوم أَحَدٍ من أيام الصيف أمام الهَيكل بجانب بِكْرٍ ذات رداء أبيض .

غير أن وطأة الوَفاء الزوجىِّ المطلق قد تَثْقُل على مَنْ يحترمونه عن حِسٍّ بالعجز راقدٍ تحت شعورها بالواجب ، و بالعكس يُقوِّى الوصالُ الثقةَ بالنفس ويَشُدُّ النشاط ، والحياةُ التى تَزيد استمتاعاً تَزيد خطَراً ، ولم يَكْتشف الفاشيُّون هذا ، و إنما أساءوا فَهْمَه .

وفى الزواج ذى الأَمَد البعيد يمكن قَطْعُ الوَلَع بما لا ينقطع من الأَزَمَات المفاجئة التى لا يُبْصَر مَدَاها ، و إذا كانت إحدى الأَزَمات تؤَدِّى إلى الطلاق فلأنه لا مَنَاص منه ، ولكنَّ الدوام على العيش معاً ، مع قَمْع الوَلَع أو مع الإقلاع ، يُوجِب شعوراً بعدم الاطمئنان لا يَزُول أبداً على ما يحتمل ، وماذا يَعْنِي الطلاقُ إن لم يكن إبطالَ ذلك العَقْد الحكومىِّ المضحك الذى يُسَمَّى « نكاحاً » ، والطلاقُ الحقيقىُّ ، أى فراقُ البَدَنَيْن ، مما يكون قد تَمَّ منذ زمن طويل ، أى منذ توَجُّه أحدها إلى شخص ثالث مع بقائهما زوجيْن ، وما يكون من عَرْض حبِّ الشخصيْن عَرْضاً ذا رَعَنٍ على الجمهور هو الذى يجعل المرحلة الثانية أمراً صعباً لما قد يَشْعر به الناس من فَرَح خبيث .

وعلى ما يتضمنه الطلاق من مشاكل المال والأولاد تَجِدُه أسهلَ من الزواج وأقلَّ منه خطراً ، ولا تكون وِلادة الأبناء أيام تَحَابِّ الوالديْن مُكْرِهاً لهما على قضاء

أيامهما ولياليهما معاً بعد زوال حُبِّهما ، أفيصبحان أ كثرَ قولاً بمبدأ الزوجة الواحدة لهذا السبب ؟ ألاَ إن ذلك البيانيَّ الكبيرَ الذى تزَوّج ، ثم طَلّق ، سبعَ مرات أو ثمانىَ مرات أ كثرُ مَيْلاً إلى مبدأ الزوجة الواحدة من مئة رجل من أبناء الطبقة الوسطى لم يَجْرُءوا على الاقتران بمثل ذلك العدد من النساء أو لم يجعلوا غيرَ القليل من قِراناتهم أمرًا شرعيًّا .

وذلك لأن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة لا يصير متعذراً إلا إذا فُرِض كإحدى سُنَن الحياة ، ولكنْ قد يَظَلُّ هذا المبدأ محترماً عِدَّةَ سنوات حتى عند عَيْش المرأة مع رجلين أو عيشِ الرجل مع امرأتين ، ولكنْ قد يكون هذا المبدأُ ممكناً ما دام خياله أو خيالها لا يَرْبُك الشخصيْن المختاريْن أبدًا ، أو ما استمرا على تواهبهما تواهباً تامًّا كما كانا وقت حُبِّهما لشخص واحد فقط ، ولا يكون عدم الوفاء إلا فى خيال شخص يَدْفَعه هواه إلى حبِّ شخصٍ آخرَ غيرِ الذى يَضُمُّه بين ذراعيه ، والمرأةُ ، وهى التى مُلِئَت حياتها بالخيال ، هى الأ كثر خيانةً بهذا المعنى ، ففى كلِّ ليلة تُبْصِر على هذا الوجه ألف امرأة تَخُنّ ألف رجل مُحِبّ لهنَّ مع جهل مَغْبُوط ، فيؤدى هذا إلى الحَمْل بولد على صورة الرجل المُتَمَثَّل ، ومن النساء من يَرْفُضْن التخدير وقتَ العملية الجراحية خَشْيَةَ إفشائهن فى أثناء رُقادهنَّ باسم الرجل الذى يُحْبِبْنه ، والحقُّ أن خَلَدهنَّ ينطوى على ذلك الطَّوْر من مبدأ تعدد الأزواج المبتذَل الذى ارْتُضِيَ على العموم ، وقد كانت نِينُون أ كثرَ اقتصارًا على زوج واحد من زوجات كثير من أرباب العمل اللائى لم يكن لهنَّ عُشّاقٌ قطّ .

والاستمرارُ على اختيار مثال واحد فى الحبِّ هو من خصائص مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة ، وعلى الإنسان أن يُبْصِر ما تُلْقيه المرأة اليانعة المُحِبَّة من نَظْرة إلى

شقيق عاشقها ليَتَبيَّن ذلك ، ويمكن العارفَ بالحبِّ أن يَغْدُوَ كذلك عاشقاً لأخت امرأته لِما يَجِده فيها من المِثال الذى قَدَّرَتْه عليه الطبيعة مع الفارق الذى يجتذبه مضاعفاً ، وفى الغالب تَجِد هؤلاء الأزواجَ من الأخَوات لدى أرباب الفن الذين يكونون إجمالاً أقلَّ جِدالاً فى أمور الحبِّ من أبناء الطبقة الوسطى وأولياء الأمور ، ويُعَدُّ شِيلَر أحسنَ مثال على ذلك ، ويلوح العالِمُ اليهوديُّ الألمانيُّ آخرَ مثال فى ذلك .

ومن أغرب الأساليب أن يعود الرجالُ والنساء إلى سابق معاشقهم إيجاداً للزواج الأ كبر ، فالمغامرةُ قد انتهت ، والرِّحْلةُ البحرية قد خُتِمَت ، والفؤادُ يَعْلَم والعيونُ قد رَأَتْ أن مَنْ يعيشون خارج المَنْزِل البحريِّ ليسوا ذَوِى رُوح أعمقَ من روح أولئك الذين يعيشون داخلَه ، وقد تَبَدَّد قَلَق النُّوتِيِّ الذى ألْقَى مَرْساه فى مَرْفَأ واحد طويلَ زمن ، وأخذ أَمْنُ مينائه المنزلىِّ مكانَه فيه .

وما كان ذلك لآخر مَرَّة مع ذلك ، فالإقدام الذى يقوم عليه الاقتران الأ كبر يُمَثِّل دَوْرَه الميمون غيرَ مَرَّة ، وغيرَ مَرَّة ، فى مختلف أدوار الحياة ، وبيانُ الأمر أن الرجل يُقَـدم إلى امرأته بجُرْأةٍ تَتَجدد بلا انقطاع غُرَباءَ جَذَّابين أقوياء لكى تتكيف بينهم طليقةً ، « والشكُّ القليل الذى يُسَكِّن دوماً يُوجِب تَعَطُّشاً إلى العِشْق أبداً » ، والرغبة تُغَذِّى الرِّيبة[1] ، وينطوى ذلك التناوب فى التجاذب الأ كبر الذى يشابه البحر فى عدم هدُوئه الدائم على المُحَرِّك إلى الاقتران عن غرام ، وكلُّ مزارع يَعْرِف أن التعاقب الدَّوْرِيَّ يُرَطِّب الترابَ حيث يَجب أن تَقُوت الأرضُ نباتاً بذاته داخلاً فى سنة وخارجاً فى أخرى كشجرة الكَرْم مثلاً .

ومن الممكن أيضاً أن تُسْفِر الأزْمة عن حياة « الثلاثة » معاً إذا ما أَبْدَى

(١) الريبة : الشك والتهمة .

هؤلاء الثلاثةُ أدقُّ لَبَاقة ولم يبْقَوْا فى مكان واحد ، والذى يَثِق بنفسه و بمَنْ يُحِبُّها ثِقَةً كافية يَعْلَم كيف يَعْرِف الزمن الذى تَهْدأ فيه الزوابع فيؤدى هذا إلى اتصال هذه النفوس الثلاث اتصالا تنشأ عنه صداقة سريعة على مايحتمل، وهل تكون الرغبة الحادَّة فى المرأة بعينها سبباً للحقد أوللقتل؟ نعَمْ، للساعة الراهنة ، ثم قد ينحسر تبَلْوُرُ الرغبة حَوْلَ شخص واحد عن تشابه فى الخُلق غيرِ مقتصر على دائرتها ، وقد تنجذب على هذا الوجه إحدى المرأتيْن إلى الأخرى لأنهما تُحِبَّان ، أو لأنهما أَحَبَّتا ، شخصاً بذاته ، وهما إذا لم تقترفا خطأ الاعتراف أمكنهما العيشُ معاً كصديقتيْن حقيقيتيْن .

وكيفما كان الحال فإن من شأن الإرادة أن يُبْقِيَ الرجل أو المرأة بعد الفراق على ما للشهوة من جَذَل وقيمة ، ويكفى الرجلَ ، أو المرأةَ ، أن يكون واسعَ الذهن قليلَ الغرور حتى يَقْدِرَ ، بعد أن يَسْكُن غضبه ويَهْدَأَ كفاحه ، على الاحتفاظ بالذِّكْرَيات السعيدة عن الساعات والسنوات الثمينة التى قضاها فى كَنَف الوِصال السابق ، وليس سوى الحسد أو الغيْرة أو الإصرار على كَوْن الحقِّ بجانب الرجل ، أو المرأةِ ، ما يُوجِب إنكارَ ما حَصَل قبل الفِراق ، ومن قول غوته :

« هى قد خانتكَ ذاتَ فَيْنَة ، فترَى الآن أنها كانت وهْماً ، وماذا تَعْرِف من الحقيقة ؟ أ كانت لى دون ذلك لِذلك ؟ ! » .

وكيف يَتَلاحَى[1] الناس بما يُعْلِنون به من فَوْرهم أن جميع ما مَضَى كان

(١) تلاحي القوم تلاحياً : تلاعنوا وتلاوموا .

خطأً وأنَّ شقاء حياتهم فى سابق خيارهم ؟ أفلم يسيروا على هذا النَّمَط ليُخْفُوا ما مُنوا به من إخفاق آخر ؟ وهم لا يُعيدُون التوازن إلا بموت من أُحِبَّ فيما مَضَى مع أن الحياة تكون أسهل من ذلك لو صَنَعوا التوازن قبل ذلك الحين .

وكانت وطأة المجتمع ومطاليبُه الصادرة عن الكنيسة والبَلاط شديدةً فيما مضى حين كانت الأحاسيس التى تستحوذ على البالغين من الرجال والنساء تُنْكَر فتُفْرَض العقوبات ، واليوم يُسْفِر انحلال المجتمع الذى يَحْرِمنا كثيراً من الأمور المهمة عن مساواة الجماعات حيث عاد الفرد غيرَ مُكْرَه على إطاعة القانون، واليومَ غدا الرجل والمرأة فى كلِّ مكانٍ أ كثَرَ حريةً ولكنْ أقلَّ طُمَأْنينَةَ لِما تراه من ارتخاء الروابط التى كانت حريةُ الخيار الغرامىِّ تُعارَض بها ، واليوم تبصرهما يتسابقان عَدْواً[1] فى المَلْعَب ويُمْسِكان مَنْ يَرُوقهما فيه بعد أن كانا يشابهان التماثيل المستندة إلى جدار الكنيسة .

١٦

يخرج من ظلام الليل نَظَراتُ نُسْك لعاشقيْن غافليْن عن العالَم جاهليْن تعليقَهما بين الحياة والممات ، وذلك لأنهما حين يتركان كفاح الرجال وموانعَ عالَمٍ عَبُوس ، ولأنهما حين يحاولان الإبقاء إلى الأبد على وَجْد لا حَدَّ له ، يكونان مستعدين للموت .

ولا تجد بين قديم الأساطير ما يَقُصُّ عليك نبأَ مَوْت عاشقيْن اختارا الموتَ

(١) عدا يعدو عدواً : ركض .

وقَصداه لرَفْضهما مغادرةَ تلك الذُّرَى بعد أن بَلَغاحدودالارتفاع البشرىِّ ، وما حَملهما على الموت فهو على الدوام مَزِيجٌ من شعور القهر والتَّعَب والرَّغْبة فى الفِرار والوَجْد المزعج ، وهنالك ، إذَنْ ، عنصرٌ فى الحبِّ يَجب أن يُهَـيِّـأَ ويُرِىَ ، بلا انقطاع، تلك السبيلَ المؤدية من معاينةِ الله إلى طريق الحياة .

ويَبْدُو ذلك العنصر فى خَلْق جديد الأَحْياء ، فى صَوْلَة الحبِّ الخصيبة التى تُجَدِّد الأجيال ، فى نَظْرَة المرأة الشاخصة وَجْداً ، فى اختلاج الرجل تسليماً ، وذلك العنصرُ يَلْمُس الموتَ بلا تَعَب ويَهْدِى إلى الحياة بلا نَصَب ، وديُونِـيزُوس هو اسمُ الإله الذى يَحْفَظه ، وذلك لأنه هو الذى يموت عند قِصَر النهار حتى يَفيقَ من فَوْره مُجَدَّداً إلى الأبد .

وما يكون من تكرار ذلك العبثِ مراتٍ لا يُحْصيها عَدٌّ فينطوى على نصيب الإنسان مُتَّحِداً بالطبيعة ، وما يكون من رياح الربيع الكثيرة التى تورق بها الشجرةُ ثانيةً على الرغم من سِنِيها فيُشَبَّه بمئات ليالى الحبِّ التى يَخْرُج منها الرجل والمرأة نشيطَيْن كأنهما لم يَشْعُرا بمَسٍّ أجنحة الموت .

والرجلُ فى الأربعين من عمره يَجُوب الشواعَ زَاهِىَ البِزَّة رشيقاً لَيِّنَ الخُطَا مستقيمَ العَمْرة ، ويُدَنْدِن ذلك الرجل بلطف ويبتسم وهو يمشى ، ويَسْطَع أَدَمُه فى الريح وتلمع عيناه فى الشمس ، وكلٌّ شىء يلوح سابحاً حوله ، وهو إذا ما وُصِف نَثْراً قِيل إنه خارجٌ من حَمَّام تُرْكِيَّة ، ولـكنْ ، كلا ، فهو قد خَرَجَ من لَدُنْ خِدْنِه فى وَسَط النهار من غير أن يَطَّلِـع أحدٌ على ذلك ، وهو قد باغتها شِبْهَ عارية فحاولت مقاومتَه فلم يُذْعِن ، ثم ضَحِكا أمام كأسٍ رَحِيق ،

وهو حين نَهَض وَهَمَّ بالذهاب أَلْقَت بنفسها بين ذراعيه ساكنةً عِدَّةَ ثَوَانٍ لتَسْمَع دَقَّاتِ قلبه .

والآن يذهب مُنَغِّماً برِفْقٍ ، والآن تَلْبَس ثيابها هادئةً ، والآن تنظر إلى خيالها فى المرآة باسمةً .

مِنَ السَّعَادَة

تَجِد كلَّ شيء يَنْشُد تمَامَه بجُهْد يَعْظُم بلا انقطاع ، وتَجِد الحواسَّ والباصرة ترْغَبان فى حياة لا حدَّ لها ، فإذا ما جَنَحَت هذه إلى المقاومة حين تَحْفِزنا الزوابع أمْكَن الإلٰهَ أن يستريح ، فنحن الذين يُبْدِعون العالَم (غُوتِه)

من المؤسف أن كان عِلْم السعادة خاصًّا بالفيلسوف ، فرجلُ الشارع والشاعر يَعْرِفان عن السعادة أموراً أكثَرَ من معرفة غيرهما بها ، والسعادةُ لا تُنال بالتَّعَلُّم فى الغالب ، وعلى ما ترَى من رغبة الناس فى السعادة ، لا فى الحِكْمة ، تُبْصِرهم يُحِبون ، أحياناً ، اتباعَ المُفَكِّر فى دائرته ، ولكن المُفَكِّر إذا ما تكلم فى السعادة لم يَجِدوا هذا العالِيَ الجبين حُجَّةً فى ذلك ، وإنما يَجِدون الفيلسوف ، وهو يَسْتوحى وَضْعَه الخاصَّ ، يُبْدِع تسلياً باسماً أو عابساً صادراً عن عِلَل فردية وأحوال شخصية وإن جَعَل منه عقيدة عامة .

حتى إن أبيقور ، على ما فى أفكاره عن السعادة من عُمْق كبير ، يكتفى بمَنْح كلٍّ واحد نصيحةً بالهُدُوء العزيز عليه شخصياً : غير أن أبيقور يُغْفِل الأمر الجوهريَّ ، أى يُغْضِى عن اختلاف الأخلاق ، ويقول أبيقور بالاعتدال فى الاستمتاع وبازدراء الطُّمُوح وبِهُجْران الأنانىِّ فى سبيل الرُوحانىِّ ، ويَبْدُو سُقْراط[1] ، وتعاليمهُ

(١) سقراط : فيلسوف اليونان الكبير الواضع لعلم الأخلاق .

كتلك ، ولكن مع اتخاذ الفضيلة نقطة البداءة ، من الحذق ما لا يصرح معه أن الفضيلة هى الوسيلة الوحيدة لبلوغ السعادة الشخصية ، وما مثل تلك النصائح إلا كمثل إنذارات الأب الذى يحاول صيانة أولاده من المخاطر فيمنعهم من الزلق ، والزلق مما يحبون .

والآن ، وقد أبصرنا تعذر تعليم السعادة ، نرى فى العوامل التى تؤدى إليها ما قد يخفف عبء الفضيلة .

١

تجد فى اختلاف الأخلاق أصول السعادة ، ومن الممكن أن تجمع أفراداً كثيرين وأن تصنفهم بحسب الأمزجة والأحاسيس والأوهام ، ولكنك لا تظفر بترديد لأروع المناظر ولا لأدعاها إلى العجب ، فتلك أحوال نفسية لا يستطيع أحد أن يقسمها إلى مراتب ، وما السعادة إلا على لون النفس ، فلا فضيلة ، ولا صورة حياة ، يمكن أن يقال إنها تجلب السعادة إلى كل إنسان ، وأكثر الناس سعادة هو الذى يجد فى نفسه من الموانع الباطنية القليلة وفى العالم من الموانع الخارجية الطفيفة ما يحول دون ازدهار طبيعته .

ولنا فى حكاية الإسكندر وذيوجانس[1] ما يدل على أن العبرة فى الكيفية لا فى الكمية ، فلما سأل سيد العالم ذلك هذا الفيلسوف المقيم ببرميله[2] عن الذى يمكنه أن يصنعه له أجابه بقوله : « نعم، ألا تحجب الشمس عنى ! »، فما كان هذا المتسول

(١) ذيوجانس : فيلسوف يونانى (٤٤٣ – ٣٢٣ ق . م) .

(٢) البرميل : وعاء من الخشب يتخذ للخمر ، جمعه براميل (التاج) .

الحكيم أقل سعادة من ذلك العاهل ، فكل منهما اختار الحياة التى تلائمه ، ولم يكن ذيوجانس ليظهر أدق من عقبه الذين هتفوا لذلك المنظر عند ازدراء الإسكندر زاهياً بسلاحه .

وقد توجد أويقات حسد فى غضون تلاقى مختلف الطبائع ، ومن المحتمل أن تستحوذ على رجل العمل رغبة فى ترك جولانه باحثاً عن السعادة فى زاوية رعائية حينما يجوب العالم على مركبته ، فيمر فى طريقه على بيت ريفى رائع ، فيبصر تفتح تنومه[1] العالى ويرى امرأة قوية تقشر لوبياء على عتبته على حين يلعب ولدان مرحان فى الحديقة ، وهو ، عندما تترك يده اليمنى دولاب المركبة ليستند إلى يد رفيقته الفتاة ، قد يتولد فيه وفيها ميل إلى استبدال حياة من هم فى الحديقة بحياتهما ، ومما قد يقوله فى نفسه ذلك الزارع الذى يصل إلى المنزل فى تلك اللحظة تعباً من حقوله فيضطر إلى إمساك السياج اجتناباً للمركبة : « هما يتنزهان هنالك بلا هم ، وهذا ما يجب أن أتمناه لنفسى » ، ولكن ما أعظم البلية عند استجابة هذه الأمانى العابرة ولدى تبادل المقادير !

وفى الأساطير خبر عن الأمراء والصعاليك وعن طراز تبادلهم حيواتهم ، وحارس الإوزون[2] الصغير وحده هو الذى كان من الوثوق بطبيعته ما يقاوم به ذلك الإغواء ، فلما سئل عما يكون إذا غدا فارساً ساطعاً من فوره كان جوابه : « وى ، سأحرس إوزى راكباً فرساً إذن ! » وقليلون هم الذين يقاومون مغريات هذه الدنيا ، وهم إذا ما قاوموها فلما يقيدهم من إرادة ، وعلى أن يساورهم الندم كثيراً فيما

(١) التنوم : الكبير من دوار الشمس ، وهو نبات يميل زهره حيثما مالت الشمس .

(٢) الإوزون : جمع الإوز .

بعد ، ولاشىء أضرُّ على السُّعداء من النَّدَم الذى يُحاوَل به إبطالُ ما يُعْمَل على الدوام ، والذى يُؤَدِّى إلى السَّوْداء أو إلى الجنون لتَعَذُّر بلوغ ما يُهْدف إليه .

والشعورُ بالفضيلة يَجْعل الإنسان سعيداً فى أكثر الأحوال ، ولو لم يكن غيرَ نتيجةِ رِئاء ونِفاق ، ولذلك لا تَجِد ما هو أشدُّ إيذاءً للإنسان من الذى يحاول تجريدَه من أوهامه أو الذى يكون كبعض شعراء الروس أو أطباء الأعصاب المعاصرين حين يستأصلون من أعماق القلب البشرىّ خَفِىَّ العِلل بدلاً من تركها راقدةً فى ظلامها الدُّنيوىّ .

وإذا حَدَث أن جاوز مسافران الحدودَ فطَمِع أحدهما فى تهريب بعض الأَطْياب الباريسية هديةً إلى زوجته وظلَّ الآخر مُخْلِصًا لمبادئه فصَرَّح بجميع ما ابتاع فلا يكون الأول بخِدَاعه أسعدَ من الآخرِ فى دَفْعِه مَكْسًا ، وإذا كان الأولُ يُفَاخر فى عَرَبَةِ القِطَار بمهارته فإن للآخر راحةَ ضميرٍ بما صَنَع ، أىْ بدَفْعه بضعةَ فرنكاتٍ فى مقابل راحة باله ، وفى الواقع أن أحد الرجلين كان يَنْشُد فَخْراً بالحيلة وأن الآخر كان يحاول زَهْواً بالاستقامة ، وكلاهما سعيدٌ بسَيْره وَفْقَ غريزته .

أَوَ يكون المُبَذِّر أسعدَ من البخيل ؟ إن الرجل الذى يَفْتَح أحسن ما عنده من عُلَب التَّبْغ قبل حضُور ضيوفه بعد أن كان يَضَنُّ بها على نفسه إلا قليلاً يَشْعُر بسرور كالذى يَشْعُر به مَنْ يُخفى التَّبْغ الجيد مستبدلاً به تَبْغًا رديئًا .

وكيف يُمكِن الإنسانَ أن يعيش على ذلك الوجه ؟ هذا ما يتساءل عنه الناس عند ما يُلاقون أمزجةً مخالفة لأمزجتهم ، وبهذا يريدون أن يقولوا إن هذا الرجل لا يستطيع أن يكون سعيداً ، وإن المُتَحَذْلِق الذى يُدَقِّق منذ سنوات كثيرة فى ترتيب

رُبُط رَقَبَته وفى ترتيب أَقْمِصَته ومِرْفقته[١] وأقلامه وسَغَايره وشَرابه ليَشْعُر بمَسّ شعوره وإيذاء أَنْفه وناظره إذا ما زار غُرْفة نُورِىّ[٢] ، فهو لا يُبْصِر ما فى التشويش من دُستور خَفِىّ ، ولا يُبْصِر ما يساور ذلك الساكن من سرور رقيق فى تَعَهُّد أكداس المخطوطات وآلات الحلاقة وأنواعِ الكَعْك والتصاوير والرَّماد تَعَهُّدًا فنيًّا ، أى فى التَّمَتع بالفراغ المُهَذَّب ، ولا يستطيع ذلك الآخر الذى يعيش فى قُطْب معاكس أن يُدْرِك صدور سعادة عن نظام دقيق إذا ما رَدَّ الزيارة فرأى ذلك المتحذلق يَجِد ما يَبْحَث عنه بحركة بسيطة فى بضع ثَوَانٍ وأَبْصَرَه يُعِيد إناء إلى مكانه الصحيح على حين يَسْكُون فى تَرْك هذا الإناء منحرفاً قليلُ مُوادعة لَضيفه .

أوَقد يكون الرجل النَّفُور أقلَّ سعادة من الرجل الأنيس ؟ أَجَلْ ، إن مما يُحْرَمه ذلك الرجل النَّفُور أحاسيسَ الوَلاء البهيج التى يُبْصِرها تَسْطَع من وجه طليق حينما يَتَعرف بصاحبه ، ولكنه يَتَذوق ، فيما بعد ، نَصْرَ الحَذَر الذى أوجب تحفظه من البُداءة وصانه من خَيْبة الأمل التى جعلت من ذلك الأنيس حكيماً بعد الأوان .

وهل تكون سعادة كلٍّ منهما أعظمَ مما هى عليه إذا ما عَلَّمهما واعظ أو مَثَلٌ ألاَّ يُبْدِيا كثيرَ اعتمادٍ أو يُظْهِرا كبيرَ حَذَر ؟

وانْظُرْ إلى شخصيْن مُحِبَّيْن للحيوان ، فيَحْفِز كَلَفُ أحدهما بالحرية إلى عدم وَضْع عُصْفور فى قَفَص ويَحْفِز وَلَعُ الآخر برفيقِ حياةٍ إلى صُنْع حَظيرة طيور فى

---

(١) المرفقة : وسادة من ورق نشاف يكتب فوقها — (٢) النورى : واحد (النور) محركة ، جيل من الناس معروف دأبهم الترحال والتطواف من مكان إلى آخر يوجدون فى آسية وأوربة وإفريقية وأمريكة ، لهم لغة خاصة ويعيشون فى الغالب على السرقة والتكدى والتنبؤ عن البخت وعمل المناخل والغرابيل ونحو ذلك ، والمؤلف قد قصد بالنورى الرجل القليل النظام والترتيب .

حديقته ، تجدُها كليهما يُسَرَّان بمشاهدة هذه الحظيرة ، وذلك لأن نُغَيْراً(١) يَقِفُ على يدِ أحدهما ناقراً(٢) مطمئناً، ولأن الآخر لا يحتمل ما فى حَبْس تلك المخلوقات من تَبِعَة.

والأخلاقُ هى التى تَرْبُك الأمور قبل كلِّ شيء ، فهى تُعلمنا الإعجاب بالشهداء بدلاً من أن نَعْلَم بها أن سِرَّ آلامهم فى أعمالهم وأن سعادتهم فى أوصابهم(٣) من أجْل مثُلهم العليا ، والشهيدُ ، إذا ما دَخَل ميدان التنفيذ فرِحًا مطمئنًّا إلى أنه سيلاقى مُخَلِّصه فى ملكُوت السماء بعد هُنَيْهَة لم يكن أقلَّ سعادةً بالحقيقة من القيصر الذى يُمتِّع ناظريْه بذلك المَنْظَر جالساً مستريحاً على عرشه بعد غَدَاء فاخر مُحاطاً بحَظِيَّاته ورجال بَلاطه محروماً ، مع ذلك ، بعضَ اللذة لِما يراه من ثبات جَنان ذلك الشهيد عند موته .

وهكذا يُمْكِن المتناقضاتِ أن تَقْمَع حسَّ السعادة أو تُقوِّيه ، وإن حياة الأَسَى والتفكير ، والتَّحدِّى والتسليم ، پروميثوس(٤) وإپيميثوس(٥) ، كثيراً ما كانا يَختِمان اجتماعاتِهما بأن يَحْمَد كلٌّ منهما النجومَ على أنه ليس كالآخر .

وذوو الطبائع الضعيفة والنفوس المضطربة وحدَهم هم الذين يَرْغبون فى التَّحَوُّل والتغير دَوْماً بدلاً من أن يعترفوا بأنه لا يمكن اقتطاعُ جزء من حياة الآخر من غير إضاعة توازننا ووسائلِ سعادتنا ، فالخمرُ التى تُراق من زُجاجة فى كأس مَعْدِنية تَخْسَر عِطْرَها .

وليس لأيَّة واحدة من منافع السعادة قيمةٌ متساوية عند كلِّ إنسان ، فترى بعض الناس يَزْدرون شيئاً من هِبات الحياة كالحُبِّ والمَجْد والثَّراء والولد والسلطان

(١) النغير : تصغير النغر وهو طير كالعصافير حمر المناقير – (٢) نقر الطائر الحب : لقطه منهنا وهنا – (٣) الوصب : الوجع الدائم – (٤) پروميثوس : إله النار الأسطورى لدى اليونان .
(٥) إپيميثوس : هو أخ لإله النار ذلك .

والكرامة ، وليست رغبة الجميع واحدةً أيضاً فى أثمن المحاسن وهى ثلاثة : الصحةُ والجمال والحرية ، فما أَلْفَيْناه(١) وجودُ أناس يألَمون فلا يريدون أن يفارقوا وَهْنَهم ، وقد قُيِّض لنا من العُمُر ما رأينا فيه أناساً يُقوِّضون الجمال عن غَيْظٍ بتشويههم النساء وجعلِهم طائفةً من المعابد قاعاً صَفْصَفاً(٢) ، وأما الحرية ، فقد عرَفْنا أناساً يُوَلُّون وجوههم شَطْر طُغاة جُدُد وعرَفْنا عبيداً يَعُودون إلى سادتهم بمَحْض إرادتهم ، وما كان لصَنَم السعادة أن يَخْرُج من قالَب واحد ، فعلى كلِّ واحد أن يَصُبَّ سعادته ثانيةً .

٢

حتى إن درَجاتِ السعادةِ متفاوتةٌ شكلاً وشِدَّةً ما دامت زيادة السعادة ممكنة ، لا فى وَجْه الاستمتاع فقط ، فالنشيطُ ينال لذةً أقوى مما يناله الغَبِىُّ على العموم ، والوارثُ الذى يَعْرِف ما يُخَبَّأ له يكون له من السعادة نصيبٌ أقلُّ من نصيب الذى يُكافِح ويبحث عن الثَّراء فى الخارج أيام فَتائه(٣) على الأقل ، ومن يعتقدْ أن الحَمِيَّة تُورِثُ قَلَقاً تَشْرُدُ منه السعادةُ لا يُبْصِر أن سعادة الغَيُور تقوم على هذا القلق أكثرَ من قيامها على هَدَفه .

وهل حِسُّ السعادة أعظمُ لدى الصائد الأبيض مما لدى الزِّنجىِّ الذى يَدُلُّ على الطريق المُؤدِّية إلى عَرِين الأسد ؟ يَنْدُر ذلك ، وذلك لأن كِلَيْهما يَعْرِف وَجْدَ التَّسمُّع والتَّقصى والتَّرصد ، ولأن كليهما يرتعشان فى الأَجَمة(٤) عند ما يرتفع صوت

(١) ألفاه : وجده – (٢) قاعاً صفصفاً : أرضاً مستوية ملساء – (٣) الفتاء : الشباب .
(٤) الأجمة : الشجر الكثير الملتف .

الصيد[1] فى المكان المُعَيَّن ، ولأن كَلَيْهما يترقب حركاته مذعوراً وَيَزْحَف إلى حين يُحْدِث إطلاق النار وزئيرُ الضَّارى الجريح وضجيجُ الزُّنُوج الوثَّابين سُعْراً[2] خَمْرِياً[3] ، ولكن حسَّ الفرَح فى الزِّنْجىِّ يَهْدأُ فى أثناء المأدبة على حين يَزيد سرور الصائد كلما قابل ذلك الصَّيْدَ بالطرائد التى قرأ عنها غيرَ قصة و بغَزْو امرأة عاتية ، أوْ كلما تَمثل نوع الأثَر الذى يوجبه جِلْدُ ذلك الضَّارى فى صديق لُنْدُنىّ له لا يزال يَعُدُّه ضعيفاً .

وفى أحوالٍ كتلك كثيرةِ البُعْد من الهَوَى ينشأ حسُّ السعادة حتى عن تبديل الوَضْع المعتاد ، ويمكن تقسيمُ الناس إلى صنفيْن ، صنفٍ يَخْفِض بَصَرَه ليُسَرَّ بسعادة مَنْ حَوْلَه ، وصنفٍ يَرْفَع بصرَه ليَطْلُب الزيادة ، ويَنْجُم عن العَزْم على زيادة ضروب السعادة ، ولا سيما غيرُ المادىِّ منها ، قوةٌ تَضْمَن النجاح ، وذلك كقول أبيقور ، « يُمْكنكم أن تَجِدُوا اتِّفاقاً مَسرَّاتٍ صغيرةً ، ولكنه يجب اكتساب السعادة الحقيقية » .

و بعضُ الناس يَعْزُون إلى أعمال البَرِىء والمجنون والقدِّيس والولد السَّاذَج الخفية سعادةً تَمُنُّ السماء عليهم بها من غير جُهْد يَأْتُونه ، ففى مثل هذه الأحوال تنتقل مَسَرَّةُ المُشاهِد إلى قلب مَنْ يُشاهِدهم ، فيكون السؤال : هل النصيبُ عذراءُ بريئةٌ حقَّاً أو امرأةٌ يانعة تَعرِف الحُبَّ ؟

(١) الصيد : ما يصاد – (٢) السعر : الجنون . – (٣) الخمرى: المنسوب إلى الخمر.

٣

كَلَّا ، هى ليست عذراء ، وذلك لأن العِرْفَةَ أو الاعترافَ يُقرِّران مستوى السعادة ويُعيِّنان الشعور بها أكثَرَ من حِسِّ الموت الذى أرَى فيه الفارق القاطع بين الإنسان والحيوان .

وقليلٌ أولئك الذين يُقدِّرون الأموال الثابتة ، والجُمهورُ يُرَجِّح جَمْعَ الأموال السريعة الزوال ، ولو لم تَكْتَرِث الآلهة الأُومبيريَّة للحبِّ والطُّموح والغَيْرة ، ولمصير الناس المتقلب على الخصوص ، لاعتراها السَّأَم كثيراً فى الأُولِنْبِيا[1] كالقدِّيسين فى الفِرْدَوْس ، ويدلُّ مُعْظَم الأنكحة على مقدار مافى ضمان التصرف ضماناً لاحدَّ له من جَعْل الرجل كَلِيلاً ، وأولئك الذين يَهُزُّهم شعورهم بعدم الضَّمان شعوراً لا يسيطرون عليه تماماً هم الذين يحافظون على سعادتهم .

والشعور بالموت هو الذى يُدْنِى الهمجىَّ من الفيلسوف ويَفْصِلهما عن أذكى الفُيُول فيرْفَع سعادتنا من الحسِّ العابس باليُسْر إلى تلك الأحاسيس الكبرى التى تَصِلُنا بقُوَى ما بعد الطبيعة فى الحين نفسه ، ولا أحدَ يَعْرِف سعيدَ الساعاتِ من غير أن يَمْزُج بها شعوراً بالدَّيْن نحوَ قوةٍ خَفِيَّة ، ولا يُسْفِر إنكار هذه القوة مع التَّحَدِّى عن غير الإشهاد على إيلاع دينىٍّ أكثَرَ من قبل ، ونحن إذا ما اعترفنا بما فى السعادة من طبيعةٍ شَرُودٍ بَلَغنا من النُّضْج درجة تكفى للاستمتاع بها تماماً .

ومن وجوه السعادة البريئة نذكر لك مَنْظَرَ السِّنَّوْر[2] المُستلقى على وِسادة

(١) الأولنبيا : اسم كثير من جبال اليونان حيث تستقر الآلهة كما جاء فى الأساطير .
(٢) السنور : الهر .

تحت الشمس ، ومنظرَ الفَراشة التى تحوم حَولَ السَّوْسَن[١] ، ومنظرَ النَّحْلة التى تَجْرِسُ[٢] كِمَّ[٣] الزَّنبَق ، ومنظرَ الصبىِّ الذى يَرْمى كُرَتَه فى الهواء مسروراً ، ومنظرَ الفتاة التى تَجُوب مَرْجاً وهى تَترنَّم وتَهُزُّ على ذراعها برِفْقٍ قُبَّعةً صَيْفِيَّة ذاتَ شَرِيط .

ولا نَقْدِر على سؤال الحيوانات ، ولكننا إذا ما اجتمعنا بذلك الصبىِّ وتلك الفتاة بعد عشرين عاماً قلنا لهما كيف ظَهَرا لنا بالكُرَة و بالقُبَّعة ، فهنالك يَتبسمان كالذى يُفيق فيَقُصُّ علينا ما قاله ليلاً فى أحلامه الحُمِّيَّة ، وهما يَصِفان لنا مناظرَ قريبةً من حياتهما الراهنة عند سؤالهما عن أوقات سعادتهما .

وذلك لأن الشعور يَنْمُو بانتظام من ظِلِّ الطُّفولة إلى نور الرُّشْد ، ويتألف من المعرفة والغَيْرَة ، ومن القياس والتأمل ، ومن تلك النَّظْرة الوَجِلة أو ذاتِ الفُحُولة إلى رَحيل الإنسان المحتوم ، أساسُ سعادة نُلقِّح عليها أوقاتاً فريدةً كأزهار فى حديقة ، وهنالك ، حين تَذْبُل زهرة ، يَتَّحِد عِطْرُها الأخير بزهرة جديدة ، وينضمُّ قديمُ النبات إلى جديده بالتدريج ليُؤلَّف منه منظر ، فإذا أدرَكنا تلك الروائح فى حديقة سعادتنا واجَهْنا مصيرنا .

ولذلك لابُدَّ لنا من معرفة طبيعتنا الخاصة ، وترى الفِطْرىَّ ، وهو من المستوى الأدنى ، ذا اطِّلاع على ذلك كأحد علماء النفس ، والإنسانُ إذا ما كان من المستوى الأعلى تَعلَّم كَشْفَ نظامه الخاصِّ ، فيُسَجِّل رُدُودَ فِعله ويَعْرف ماذا يجب أن يَنْتظر من نفسه ، وهو ، إذ كان يلاحظ ، عن تجربةٍ ، ما يَرُوق ذوقه ويُؤذى

(١) السوسن : نبات من الرياحين برى وبستانى — (٢) جرس : رعى — (٣) الكم : وعاء الطلع وغطاء النور والغلاف الذى ينشق عن الثمر ويحيط به .

مَعِدته تراه يَتعلم طلب المُهَيِّج أو اجتنابه ، ومن معرفة الإنسان لأخلاقه وشَهَواته واندفاعاته وأذواقه ومَكْرُوهاته ، ووَهَناته على الخصوص ، يُقيم كلٌّ نظامَ سعادته ، والأمرُ كقول غُوته : « إننا سعداء بنقائصنا وضَعْفنا لا بفضائلنا ، ومَنْ يعتقدْ أنه يَبْلغ الفَلاحَ بالفضيلة يغرُّ نفسَه ، فما يَحْمله من الزَّهْو فى نفسه هو الذى يُوحِى إليه بالفضيلة ، ولْتُعْرف الفضيلة بذاتها ، ولكن شعور الإنسان بها لا يَجْعَله سعيداً » .

وليست تلك المعرفة خاصة بالكِبَر وحدَه ، فالشبابُ إذا ما استيقظ حَلَّل نفسه فى كل مستوًى وكلِّ وقت ، وقد كانت مزاولة تحليل النفس وصنعتُها بالغتين درجةً من التقدم فى الأزمنة القديمة كما فى الزمن الحاضر ، والإنسانُ لم يَقُمْ نظامُ سعادتِه مطمئناً إلا فى زمن متأخر على الخصوص ، والإنسانُ ، لما كان من تعليمه بعد محاولات عقيمة ما يلائمُه أحسنَ من سواه فى البحر أو الجبل وفى المِصْر أو الحقل وفى المجتمع أو الانعزال ، تُبْصِره يَعْرف كيف يملأُ يومَه بساعاتٍ أكثرَ انسجاماً بادئاً بأتْفَه حركة .

وما يأتيه الإنسان من تَحَوُّل بفَضْل حَذَره وقدرته المُلْتَوية فيُشابهُ سقوط الأزهار عند ما تترك مكاناً للثِّمار ، ومن القليل أن تَجِد نباتاً يَحْملهما معاً ، فترانى أدعو مَنْ لهم مِثْلُ هذا الامتياز بذَوِى الطبيعة البرُتقاليَّة .

وكما أن الرُّوح اليَقِظة وحدَها تدلُّ الإنسان على ما يلائم طبيعته تَجْعَله تلك المعرفة قادراً على إقامة مِنْطقة بروجٍ ملائمة له ما أمكن فى الغالب ، وهذا ليس خاصًّا بالمَشِيب أيضاً ، فما كان الفِتْيان فى حَيْرةٍ وَجْدِهم الأول ليَتَمنوا غيرَ التكرار اليومىِّ الخالد ، وهم يرتجفون عند ما تَعِنُّ لهم فكرة التبديل ما داموا لا يَعْرِفون سوى منظر واحد للسعادة ، ولا تَجِد كالعاشق الشابِّ مَنْ هو أشدُّ حَذْلقةً .

والإنسانُ ، بما لديه من تربية راقية ، قد يقابل حياته بحياة أجداده فيَعْرِف بتكرار بعض الحوادث كلَّ ما فى وَضْعه من عدم ثبات ، وكلُّ أثرٍ مباركٍ يُضِيف شيئاً من اللذة مع السنين ، والإنسانُ ، بالمقابلة ، تزيده شدة شعوره شكراً لطالعه ، وكلُّ سعادة هى حالٌ بين الازدهار والاستتار ، وما لدى الشخص من حِسِّ الزوال يجعله مُتقبِّلاً ما تحْبُوه به الطبيعة من المِنَح غير المُرتَقَبَة .

وهكذا يَهُبُّ الإنسان من نَوْمه فى الصباح شاعراً بالسعادة فى أنه لا يزال متمتعاً بصحة جيدة مالكاً لجميع قُوَاه ، وما يَقَع تحت نَظَره ويُضْحِى قَبْضته فيَغْنِى رِهانَ سعادة يومئذ ، يَعْنِى رِهاناً قد يطالِب بها على شكل أولاده وقدرته ومنزله ، وهكذا يُوطِّن نفسَه على العمل بكبيرِ جهدٍ فينتفع بذراعه المفتولةِ صانعاً وبروحه متفنناً مُبْدعاً ما وَهَبهما القَدَر له .

وإذا كان عالِم الأخلاق يدعو ذلك كلَّه « فضيلةً » فإننا نَوَدُّ تسميته «سعادةً »، لما فى هذه من مناسبة للنوع الإنسانىّ .

٤

وجميعُ الوسائل صالحةٌ لتقوية ذلك الشعور ، ولا سيما العصريُّ منها ، والإنسانُ ، وهو يجْمَع مع السنين صُوَراً كثيرة فيستطيع أن يُسَجل مناظرَ وأصواتاً بفضل السِّنَما والفُونُوغْراف ، يكون بهذا قد ضَمَّ إليه ذكرياتٍ تكتسب بها حياتُه وجهاً أُسْطُورياً ، وإن صَنَع ذلك من أجْل نفسِه ، وإن كان عمله يَفْنَى معه ، وهو يُشَبَّه بالمتفنن الذى يُهَيِّئ مُجْمَلاتٍ (١) بلا انقطاع ليضع أثراً فنياً قد لا يُتِمُّه .

(١) Croquis, Sketches.

ورغبةُ الإنسان فى وَصْل حياته بشعور الموت وَصلاً مستمراً كانت تُحَرِّك القدماء كما تُحَرِّكنا ، وما كان من التَّغَنِّى بمغامرات أبطال أُومِيرُس فى حَضْرتهم لِيَشُدَّ شعورهم بالحياة أقلَّ مما توجبه المُذَكِّرات التى نكتبها فينا ، ولمّا بَلَغ كازانُوفَا من الكِبَر ماأقعدَه دَوَّن أعماله الغرامية فصَنَّفها زيادةً فى غِبْطته الخاصة، لا تسليةً للأعقاب .

ذَرُوا الفردَ يَفْحَص نفسَه أو يدافع عنها فى مفكرة يوماً بعد يوم ، ودَعُوه يتجرد ترَوْه قد وُفِّق دَوْماً لتخليد الساعات الحاضرة وجعلِ ذَيْل لها ، على حين تجِدون دُون جُوَان أو أحدَ القادة ينتقل من حادث إلى حادث ، ولم يَجِد نابليون غيرَ قليلِ وقتٍ ليتأمل نفسَه فأنجزَ مثل ذلك الفحص فى منفاه .

فهنالك تَكلم عن « أُنْشُودة » حياته ، وبمثل ذلك الشعور تتضاعف أوقاتُ المَسَرة ، وفى كلِّ عام تزيد الشجرةُ حَلْقةً فى ساقها فتدوم بتأنٍّ ، والإنسانُ يَعُدُّ سِنِيه .

وفحصُ الإنسان لأحواله الخاصة يُذَكره من فَوْره بموسم حياته ويُنْذِره بضرورة إشرافه عليها مُعْتَنِياً ، وهو إذا ما شَعَر بزوال قُوَى الخريف كان ما يَذكُره من ساعات المَسَرة تلك موجباً لرِضاه بذهابها .

والذى ينظر بعين الشكِّ إلى ما فى الأمور من طبيعة عابرة هو الذى يَمْسك بأوقاته المباركة أكثرَ من سواه ، وما كان غُوته فى جميع حياته ليستطيعَ أن يتغلب على شعوره بإفلاتها ، وغُوته كان يستدعيها أيامَ كان فى السادسةَ عشرةَ من سِنِيه ويَعُدّها معاً ، وهو حينما بلغ الثمانين من عمره لم يَجِدْ فى آخر رواية فاوْست غيرَ مَهْرَب ، ونرى هذا الرجل الكبير الواقف على المصير قد خَلَّد الساعة الراهنة دَوْماً فى يَوْمِيّاته التى هى أصدق ماأُعْطِى لنا من كَشْفٍ فى التاريخ ، فأضافها إلى سلسلة السنين .

والرجلُ الجافِى اللاذعُ ، شُوبِنْهاوِر، قد عَرَّف السعادة بعدم الغَمِّ ، ومن المحتمل

أن كانت السعادة فى الحياة أمراً وَضْعيًّا ، أى مجموعةَ أوقاتٍ مباركة ، أو من أبرك الأوقات ، ولو كانت قليلة .

وما مَثَلُ الذى يَنْساها إلَّا كمَثَل المُقامر الذى يُبذِّر ما يَكسب فى كلِّ يوم ، فمَنْ يَذْكرْ ذلك يجْمع فى نفسه ثَراء ، ولِمَ لا يحْسُب ذلك فى آخر كلِّ نهار ؟

ولْنَتَمثلِ الساعة التى نكون عليها قبل النوم لِنَجِدَ جمًّا غفيرًا يُحْيِى الصُّوَر السَّارة التى تواترت فى اليوم المنصرم .

وتُفكِّر امرأةُ رجلِ العمل قائلةً : إن الوزيرَ كلَّمه مدةَ عشرين دقيقةً ودَعاه إليه فى الغد ، فأما وقد شقَّ طريقه ترانى سعيدة إلى حدٍّ ما !

ويُفكِّر الصَّيْرَفىُّ بقوله : لو أبرقتُ بعد ساعة ، أى عند هبوط الأثمان فى سوق نيُويُورْك لنَقَصَ نصيبى ثلاثةَ آلاف جنيه !

ويُفكِّر الطالب بقوله : يا لَلحظِّ حين أبْصَرْتُه يُحوِّل ناظره إلىَّ فطلبتُ المعذرة ، وإلاّ لَمُنِعْتُ اليوم من الخروج !

ويُفكِّر العاشق بقوله : إنها أمالتْ كتِفَها إلى يَدِى حينما أعَنْتُها على لُبْس مِعْطَفِها ، فمن المحتمل ألَّا يَنْقضى حُلُمى !

ويُفكِّر البُسْتانىُّ بقوله : يدُلُّ ميزان الحرارة على أنها دون الصِّفْر ، فالحمد لله على أننا ستَرْنا كلَّ شىء فى هذا اليوم !

ويُفكِّر المريض بقوله : لم أجِدْ تَشَنُّجًا بعد الظهر ، وهذا لأول مرة من يوم الأَرْبعاء ، فقد أكون مُتَّجِهاً إلى الصحة !

ويُفكِّر الشائبُ بقوله : يالَهَا من مصادفة سعيدة أن أنال زجاجاتِ خَمْرِ رُومانهِ العشرين الأخيرة ! فمن يَعْلم أنه لن يَرِد منها شىء فى إبَّان الحرب !

ويُفكِّر الراهب بقوله : بينما كنت أتلو كتاب الأَدْعِيَة للمرة الثالثة قامتْ عليه فَرَاشة فلْيُبارِكْها الرَّبُّ ، آمين !

ويُفكِّر الشاعر بقوله : أَلَمَّ الغَمُّ برأسى وقت الصباح ، والآن يرتفع القمر فيَلُوح كلُّ أمْرٍ أيسرَ من قَبْل ، ويبدو وجودُ شىء فى جانِبيَّة(١) أتِينه(٢) !

فما هى السعادة حقًّا ؟

٥

الوَلَعُ وَجْهٌ من السعادة المُشْتدة ، وما الفلاسفة الذين يُحَذروننا منه إلا كذوات الظَّرْف اللائى يَمْتدحْن الفضيلة عند ذُبُول قُدْرَتهنَّ ، ولا يستطيع الفَتَاء والإنسانُ فى تَمام قُوَّته أن يبْلُغا مرحلة السعادة المطلقة الخالية من الوَلَع إلا إذا جعلتهما الطبيعة عُذْرِيَّيْن(٣) .

والوَلَعُ لا يُحَذِّر منه الحكيم إلا لِما ينطوى عليه من خَطَر ، والخطرُ ، بالضبط ، هو الذى يُحْدث سعادة ذوى الوَلُوع ، ولا وجودَ للسعادة بلا خطر فى الأُولنْبيا حيث تلجأ الآلهة فى خُلُودها بعد كلِّ حبوط ، ومما يَتَّفِق أحياناً للحَذِر المُحِبِّ لحَذَره أن يشاهد حوله أناساً من ذوى الجُرْأة مع ذلك الغَمِّ الذى يستحوذ علينا عندما نُعْجَب ، مُتَرقبين لابسين مِعْطفاً من فَرْو ، بوُثُوب الزالق مرتفعاً بين الأرض والسماء .

ومما يقال أن الذى يَجْتنب الوَلَع يَجْهَل النَّدَم ، ولكن مَنْ ذا الذى لم يُمْسِكه

(١) Brofil — (٢) أتينه : كاتب إغريقى ظهر فى القرن الثالث من الميلاد .

(٣) Platonique

عدوُّ السعادة الأزرقُ[١] هذا ؟ أفلا يَقْبِض على الرجل بلا وَلَعٍ كما يقبض على الذى يبيح كلَّ شىء لنفسه ؟ رجلٌ ذو وَلَد وغَمٍّ يَزُورُ رفيقَ صِباً له أعزبَ ذا هَيَف ، هو قد ثَرْثَر نصفَ ساعة معه ، هو قد رآه يَنزِل من السُّلَّم رشيقاً ، هو قد أبصره يَثِب فى سيارته مبتسماً ، ثم ها هو ذا يَنْظُر ببرارة إلى امرأته التى أثقلتها السُّنون ، وذلك حين دخولها حاملةً قوائمَ بيدها .

بَيْدَ أن ذلك الصديق فى سيارته الرائعة يَشْعُر بحسرة مماثلة لتلك عندما يتمثل ابنَ صديقه الصبيَّ مُصانعاً أباه ، وهو مُحتَضَنٌ بين رُكبتيْه ، طمعاً فى نَيْله تُفَّاحةً منه بعد الغَدَاء ، فكأن كلاًّ من الصديقين يقول للآخر : « ذلك هو الذى يَفُوتك » ، وليس الخوف من النَّدَم سبباً كافياً فى اجتناب الوَلَع .

وهنالك ، أيضاً ، تتَوَقف قوة السعادة على انتباه الرجل ، والذاكرةُ هى التى تجدِّد صُوَرَ الأوقات الجميلة لدى المُضارب الذى جمَع ، ثم خَسِر ، كلَّ ما يَعُده ثَرَاءً وَفْقَ طبيعته الطَّمَّاعة ، وفيما يَسْقُط ورق الجُدُر فى غرفته القَذِرَة بالفُنْدُق ، ويكاد غِطاءُ سريره الوطيبُ يستر مِبذَله الذاوى ، تَجْعَل الذِّكرياتُ منه ذلك المَلِكَ ذا الاستقبالات التى يتهافت عليها الحِسان وذا التشريفات التى تُرْسِل إليها دوائرُ الصحف مُصَوِّريها ، وقد يَشُدُّ هذا التَّضادُّ عزائمَه مُجَدَّداً فيَثِبُ من فراشه مملوءاً أملًا سابقاً قادمَ المَسَرَّات .

والوَلَعُ سيدٌ يَسْطَع كوكب لامع سائر من الرغبة فى المال إلى الزَّهْو فإلى الطموح فإلى السلطان ، ولم يَصِفْه أحدٌ كما وَصَفه بَلْزاك[٢] .

---

(١) العدو الأزرق : الشديد العداوة .

(٢) بلزاك : كاتب روائى فرنسى كبير (١٧٩٩ – ١٨٥٠) .

والمالُ هو أعمُّ الغايات ، وتشتمل وسيلة المبادلة هذه على تحقيق جميع الأحلام التى تَغْدُو بها أمرًا واقعياً ، وقد يكون الزَّهْو ذلكَ الأمرَ حين يَغْتَذِى بدِهانِ ضَيْفَنٍ[١] أو رهبةِ مرؤوسٍ أو ترديدِ اسمٍ بين الجماهير ، فيزيد الاعتدادُ بالنفسِ تِجاه العالَم وكذلك تِجاه القَدَر الذى يبتسم لحسو به كما يَلُوح .

والسعادةُ فى المدن هى التى تجتذب مِثْلَ أصحاب تلك الطبائع ، وتُعَدُّ الجُزر القَفْرُ أعظمَ عَدُوٍّ لهم ، والواحدُ من أولئك تَغْدُو أُبَّهَتُه عاطلةً من المَغْنَى عنده إذا لم يَسْتطِـع أن يَعْرِض أمام الآخرين ما لديه ، وهو ، لذلك، على خلاف البخيل الذى يُلْصِق ورقاً على نوافذه ويَحْفَظ سنداتِه الماليةَ فى خِزانة من حديد والذى يَزِيدُ شعورُه بالسعادة عندما يُضِيف فى آخر السنةِ صِفْرًا إلى الأصفار التى يَرَى فى منظرها البَيْضِىِّ صورةَ البركة .

ومن يَنْشُد السعادة فى المُدُن يَقْضِ حياتَه ناظرًا فى مرآة ، وتَنْشأُ سعادته عن حَسَد العالَمِ المحيط به ، حتى إنه يُزَيِّن جمالَ خليلته الرائقَ بأزهى الحُلَل ما دامت ليست له بغير الغَيْرَة من الآخرين .

وأعظمُ وَلَعٍ اجتماعىٍّ هو الطمعُ فى السلطان مع ذلك ، وهذا الطمعُ ، إذْ يَتَقوى بعوامل السيادة و إرادة الإبداع مضافةً إلى الزَّهْو والطُّموح وحبِّ الانتقام ، يستدعى جميعَ وجوه السعادة ما أمكن نَيْلُها من العالَمِ الخارجىِّ .

ولا ينبغى لأحد أن يوازن شِدَّةَ السعادة لدى الطاغية بعزلته وعَطَله من الأصدقاء ، وذلك لأنهما ثَمَنُ السلطان ، لا شَرْطاه الطَّوْعِيَّان .

و إذا كانت السعادة تقوم على ازدهار طبيعة الفرد الخاصَّة فإن الرجل القابض على

---

(١) الضيفن : المتطفل .

السلطان نتيجة جِدٍّ ، لا إرْثٍ ، يَبْلُغ الشيء الكثير من الحُبُور ، وما يناله من نَصْر صامت على مُنافسه السابق ومن فوزٍ صاخبٍ على الجُمهور فيُضاف إلى لذة القيادة و إقامة عالَم خاصّ به ، فيَقْدِر فى نهاية الأمر على الانتقام من أولئك الذين عارضوه مُستعلين ، ولا جَرَمَ أن ذلك يكفى لتوكيد قَدْره فى نَظَره ولو لم يُقيَّض له أن يَعْرِف غيرَ خُضُوع الجميع له خضوعاً صامتاً ، وهو يَشْعُر بأن القدرة الإلهية كافأته على عزيمته حين يقابل بين شخصه و بين خصمه المقهور فيقول فى نفسه : « القَدَر يُسَيِّرُ المُخيَّر » .

ونَعْرِف من التاريخ الحديث والتاريخ القديم عن الملوك أو خَزَنة السلاح فى الزمن الحاضر أن أقوياء الأفراد يَبْلُغون أقصى درجات الوَلَع فى الانتقام من خصومهم ، ونحن ، حينما نقابل بينهم و بين قَيْصَر الذى لم ينتقم لنفسه قطُّ والذى كان يَنْسَى أسماء أعدائه ، تَجِدُنا نَتَوجه إليه بأبصارنا مُعْجَبين ، ولا علاقة بين ذلك و بين أحاسيس أولئك فى السعادة ما دام ذلك ينشأ فى ذوى النفوس الكبيرة عن سلوكٍ نَبيل كما ينشأ عن إطفاء العطَش إلى الانتقام بالقَتْل أو بالقَذْع[1] ، وما يتمتع به الطاغيةُ الذى لا يَرَى أحداً فوقه من اللذة فيتوقف على حِذْقه فى عدم دُوَاره فى المَعالى .

٦

وصيادو الحظِّ فى عالَم الآخرين أولئك يُعَارَضون بذوى الوَلُوع الباطنىِّ ، كأهْل الجُزُر الذين ينالون السعادة بلا مجتمع ، وعلى الرغم من المجتمع .

(١) قذعه : رماه بالفحش وسوء القول وشتمه .

وعاشقُ الطبيعة يَتَذوق السعادة بلا التواء عند ما يَرْقُب هادئ البال رافعَ الرأس هيئة صَنَوْبَرة أو يُبْصِر خافضَ الرأس تشابكَ جُذُور الخَنْشَار[1] بين العَوْسَج[2] أو يلْقِى السمعَ إلى صوت شُحْرُور باحث عن صِغاره وقت الغروب ، و ينقلب هذا الوَلَع الذى هو أشدُّ ضُرُو به صَمْتاً إلى سعادة مباركة حينما يَبْحَث ذلك الشخص فى بيته ليلاً مستعيناً بمُعْجَمه ومُجْهِره ، الذى شَرَاهُ بما اقتصده ، عن الحَشَرات وقِطَع النبات التى جَلَبها معه .

وحبُّ الاطلاع فى بعض هؤلاء الرُّوَّاد اشتدَّ حتى وَصَل إلى سعادة التأمل فى أعمال الطبيعة ، وحُبُّ البحث ، عن أَثَرة ، لدى الآخرين تَحَوَّل إلى رغبة فى المجد ، ومما يُنْمِى هذه الأحاسيسَ الخفيةَ التجريبُ القائلُ إن الحقيقة تُعرَف ذات يوم ، و إن الذَّرارِى هم الذين يكتشفون العظماء ، ومن المحتمل أن تُخَامِر هذه الأفكارُ العالِمَ الشائب فيُلْقِى نَظْرَةً من وراء منظاره على حفيده ، وهو يَتَأَوَّه على جداوله الأولى فى نِسَب الأعداد ، فيبصر اسمَه مُكَلَّلاً بالفَخَار يوماً لِما كان من حسابه موقعَ نجم غير منظور .

ولكن البحث عن المعرفة ليس أعظمَ وَلَع كمصدر للسعادة ، و إلى إيرُوس[3] الأمير بلا إمارة تَتَّجِه جميع الأبصار عند ما يَمُرُّ ، وترى سِرَّ سِحْره فى أنه الوحيدُ الذى وَجَد سعادته مُعطِياً لا آخذاً ، وبَداءةُ هذا فى الصداقة ، أى فى الثِّقة ، ولا حَدَّ لهذه الحال المباركة القائمة على كمال التَّقبل والمقابلة ، والمُكَرَّرة على الدوام كما يلوح ، فلا يُكَدِّرها ولا يُقَصِّرها أىُّ رأى مُبَيَّت كان ، وهى تُبْدِع جَوًّا شِعْرِيًّا

(١) الخنشار : نبات — (٢) العوسج : من شجر الشوك .
(٣) إيروس : اسم لإله الحب لدى الأغارقة .

لا يَقضِى عليه سوى الموت ، ولكنك بينما ترى القدماء يمدحون الصداقة كأصفى مظهرٍ لإيرُوسَ يَبْدُو لنا رجوعٌ عن عناصرَ أساسيةٍ هنالك ، وذلك لأن الطبيعة تَرْفَع صوتها مطالبةً بتحابِّ الجنسيْن قبلَ كلِّ شىء ، و بعضهم يَتَّهم الطبيعة بأنها مُرائيةٌ مُراوِغة ، وذلك لأن الحبَّ يُرَوِّج سَوْقَه الشيطانىَّ وشَوْقَه الدائم إلى جديد الأجيال تحت ستار كبيرِ الأحاسيس ، كما لو أن أىَّ وجه للسعادة يَخْسَر حِدَّتَه ، ولو لدقيقةٍ واحدة ، من غير أن يُؤَدِّىَ إلى نتائجَ مفاجئةٍ ، ولذا لا تمنحنا الطبيعة شعوراً تامًّا بالسرور ، و يظلُّ شكل الاقتران الكامل محظوراً علينا ، وتَحِلُّ الأهواء محلَّ الذاكرة ، ويخَلِّد الشَّبَقَ الزاهقَ[1] نَسِيجٌ من مشاعر التسليم والأحلام والمقارنات .

وأبيقُورُ ، عند ما نصحنا بألا نُذْعِن للرغبة إلا إذا ظهر بعد فحصٍ عامٍّ للوَضْع إمكانُ اشتقاق بقيةٍ بهجة منها ، قد حال دون مقاصد أناسٍ كثيرين فى زماننا يعيشون وحيدى الزوجة ، و إن كان هذا مع هَمٍّ و إشفاق ، وما يحيقُ بصحة الرجل من خَطَر من وراء الرغبة فيَحْفِزه إلى التضحية بحظٍّ من أجْل حَظٍّ ، وما يقتسمه شخصان من سعادة فيُمَزِّقه تنازع الحياة اليومية ويُقوِّضه المجتمع ، وهنالك قد تَصْدُر رواية اجتماعية عن العلاقات الكوكبية بين الشخصيْن .

ولا يمكن الروايةَ الحقيقية القائمة على تقابل الأحاسيس أن تَظْهر إلا فى عهد الشباب وعن غرامٍ مُقْتَسَمٍ لِما يكون بين فَتَيَيْن من رغبة فى امتلاك أحدهما للآخر على أتمِّ وجه طبيعىٍّ ، وتعود رغبة العُشَّاق الأكبرِ سِنًّا إلى تلك الأوقات الأولى ، وكلما قلَّ شعورهم بسعادتهم وَصَفُوها وصفاً رائعاً ، و يُسْفِر هذا الزِّنْجار[2] ، الذى تُزَيِّن

(١) الشبق الزاهق : الشهوة الهالكة — (٢) الزنجار : صدأ النحاس .

به الذاكرةُ أُولَى الصُّوَر لحياتنا الغابرة ، عن حسٍّ سعادةٍ جديدٍ شبيهٍ بالذى يَنْجُم عن الإقلاع والامتناع ، فكلاهما من فصيلة الأحلام ، فإذا كان الأولُ يَصْدُر عن الذى وَقَعَ فإن الثانى يَصْدُر عن الذى لم يَقَعْ ، ومن العبث أن يُبْحَث عن معرفة الذى يَجْعَل الإنسانَ أكثرَ سعادة ، فلا قيمةَ لأىِّ تعميم فى موضوع السعادة .

وذلك لأن السعادة ليست استمتاعاً ولا امتناعاً ، و إنما تقوم على اختيار الفرد لأحسن ما يلائمه .

٧

آلاستمتاع ؟ ولِمَ لا تقول الوَلَع ؟ الفرقُ بينهما واضح ، وعلى مافى كلِّ وَلُوع من مَيْل إلى تحقيق رغبته تُبْصِر إقصاء الوَلَع إلى الدائرة الدنيا من حيازة السعادة ، وترانا نُصَنِّف الأحاسيسَ الشَّهْوانيَّة دون الأحاسيس التى هى فوق الشَّهْوانيَّة .

ويَنْدُر أن يكون فَخْر العقليين الذين يَتَمثلون ذلك المقياسَ ملائماً لِما يَفْعَلون ، ففى الغالب نَرَى طائفة من الحكماء وعلماء الأخلاق يُبَاهون بدعوتهم إلى مافوق الشَّهْوانيَّة من الأحاسيس و بإدارتهم دَفَّة المناظرات فى أثناء المآدب حَوْلَ ذلك ، و بذهابهم إلى مبادئ الخلود والطُّهْر والزُّهْد ، ونَسْمَع أنهم فى الحين نفسه يُفْتَتَنون بلَذَّةٍ نَفْحَةٍ ، وما نَعْرِفه عن حياة قدماء الفلاسفة ، من أبيذِقْليس[1] إلى سِينيكا[2] فيَدُور على الأكثر حَوْل ملاذِّ الحواسِّ فى الولائم والأعياد أكثرَ مما حَوْلَ الزهد .

(١) أبيذقليس : فيلسوف يونانى كبير ظهر فى القرن الخامس قبل الميلاد .

(٢) سينيكا : فيلسوف رومانى مشهور (٢ — ٦٦) .

ومع ذلك لا نزال نُعانى تلك الخُرافةَ القائلة إن الجُهُود الروحية لا تُناسِب الرغبة فى الاستمتاع لِمـا فى هذا من جعل الحـكيم مَوْضِـع رِيبَةٍ ، والأممُ اللاتينية فى هذا أشرف من الأمم الجرمانية التى تَمِيل ، وهى أسوأُ سَرِيرَةً ، إلى إخفاء بواعث السَّيْر فيها و إلى سَتْر الأَثَرَة الخاصة بالفرد أو بالشعب .

ومن ذا الذى يَجْرُؤ ، إذَنْ ، على رَسْم الحدِّ بين الاستمتاع الروحىِّ والاستمتاع الحِسِّىِّ ؟ لامِرَاء فى أن مائدة الطعام لأَحَد الطرفيْن وأن الموسيقَى للطرف الآخر ، ولـكن ماذا يُقَال فى أمر الخَمْر بينهما ؟ تغدو الخَمْر جزءاً من الملاذِّ الحِسِّيَّة بانتقالها من الفَم إلى المَعِدَة فيَدْنُو هذا من ظَمَأ الحيوان ، بَيْد أنها تَتَحول إلى لذة روحية لإنعاشها النفسَ ولإمْكان مساعدتِها على البناء أو الهدم ، والخمرُ ، على الطريق التى تَقُود العَطْش إلى النَّشْوة ، تَنْهَض بالسعادة من طَوْرها الأدنى إلى طورها الأسْمَى حتى تَعُودَ بها إلى مظهرها الأول مثبتةً بذلك من جديد أنه لاشىء خالص الروحية فى ذاته ولا شىء خالص الحِسِّيَّة فى ذاته .

ويرى أستاذ التاريخ الذى يَهْدِف إلى نَيْل نفقة من الدولة فيُؤَلِّف الـكتاب الأول بعد المئة عن كُرُومْوِيل[1] ، على أَثَرِ بَحْثه فى مئة كتاب عنه ، يَقْضِى حياةً أكثرَ ماديَّة من بائع الخَلْع[2] المتأمل الذى يحاول فى أيام الأحد أن يَطَّلع على طبيعة النصرانية من كُتُب ابنه المدرسية .

ومَنْ يُزَاوِلِ المسائل العقلية يَدْع من يَنْشُد المَلاَذَّ الحسية بـ « الوَلُوع » أو

(١) كروموِيل : زعيم الثورة الإنكليزية التى أدت إلى إعـدام الملك شارل الأول (١٥٩٩ — ١٦٥٨) .

(٢) الخلع : لحم يطبخ بالتوابل فى وعاء من جلد ، وقيل القديد المشوى فى وعاء بإهالته أى بشحمه المذاب .

« الخَلِيع[1] » ، وذَوْقُ عاشق اللذة يلائم مبادئَ مَنْ هم على مذهب أبيقور لِما يلوح من طلب كلِّ إنسان مُتَعاً أعْدالاً[2] بأَقْنِعة مختلفة وأسماء مُتنوِّعة ، ورَبَّةُ البيت التى تَحْفَظ تَوَابلها فى عُلَب حسنة الترتيب أو تُعْنَى بدحرجة أسمالهـا[3] فى سَلَّة تَجِدُ فى ذلك من اللذة كالتى يَجِدها مدير البَلاط فى تنظيم استقبال الملك عمَّا قليل .

ولا تُؤدِّى الرِّقَّة نفسُها إلى زيادة اللذة ، ويَحْضُر بائعُ حُلْويَّاتٍ ثَرِىٌّ مع أُسرته عَرَضاً ذات مساء ، ويتَعَشَّى ويَشْرَب كما يشاء ويستمع بأُذُنٍ إلى جَوْقة موسيقية ، ثم يَرْقُص ويرتشف قليلاً من الـكُوكْتِيل[4] ويتحدث مع امرأة يَعْرِفها حول ممكنات الجرب ، ثم يعود إلى منزله فيضطجع على السرير قريباً من زوجه التى وَجَدَت فى ذلك المساء ما طاب أيضاً ، وفى ذلك اليوم يدعو طبيب إحدى صديقاته إلى العَشَاء ويُهَيِّئُ طعاماً نفيساً ، فيبادلها رقيقَ العبارات ويُمتع ناظريْه برأى هذه المرأة الهيفاء الأنيقة الرِّداء على حين يَشْرَبان ويبتسمان ، ثم يَعْزِف لها بلحن « الوَداع[5] » المُفَضَّل عندها على حين تستلقى على مُتَّـكأ فى إمْلاس[6] ، ثم يَجْلِس قريباً منها ويتناول يدها ويحاول أن يقرأ أثَرَ الموسيقَى فى وجهها المُنقاد للخيال ، وهما يحاولان على الشُّرْفة أن يُعَيِّنا بِمِرْقَب[7] موضعَ المشترى ويبحثان فى أمر القمر ، ويَشْرَب كلٌّ منهما نَخْب[8] الآخر من الرَّحِيق العتيق الذى يزعمان

(١) الخليع : المتهتك — (٢) الأعدال : جمع العدل وهو المثل والنظير .

(٣) الأسمال : جمع السمل وهو الثوب الخلق — (٤) Cocktail : هى كلمة إنكليزية معناها ذنب الديك ، وهى تدل على شراب مهيج مسبب للدوار مركب من الأبسنت والويسكى والزنجبيل والكونياك والشنبانية إلخ — (٥) لبتهوفن — (٦) أملس الظلام : اختلط — (٧) Téléscope .

(٨) النخب : الشربة العظيمة من الخمر وغيرها يشربها الرجل لصحة حبيبه أو عشيرته .

أنه يغدو فاتراً عند ما تمسّ أصابعُهما المشتبكة كأسَه ، ويقودها ذلك المساء إلى أحاسيس الرغبة التى تتحول مزدهرةً إلى هَوَى الأحلام .

وأين تجد حَدَّ الحِسِّىِّ فى تلك الحال ؟ ومن ذا الذى يُبيح لنا أن ننتظر أعمق شعور للسعادة عند الزوجين الأخيرين لكون مستوى لذتهما أسمى من ذلك ؟ ألَا إن أولئك الأربعة جميعَهم بَلَغوا فى ذلك المساء وَجْهَ السعادة التى يمكن أن تَمُنَّ طبيعتُهم بها عليهم ، ألَا إن كلاًّ من الفريقين وَجَد فى دور الآخر ما يُثير تنادرَه .

وهكذا كَدَّست كليوباترة ، التى قادت عُبُداً لا عَدَداً ، ملاذَّ فى رِحْلتها النِّيليَّة مع قَيْصَر ، وهكذا أتى لوكولوس[1] كثيراً من مَسَارِّ الحياة بعد عشرات الوقائع والمعارك ، وهكذا صَنع فردريك فون هُوهَنْشتاوْفن[2] وتيشيان فوق البحر المتوسط وصَنَع رُوبِنْس فى الشمال وأوسكار وايلد[3] فى لندن ، وما عند هؤلاء من عرفانٍ جميل بالفنِّ والغرام فذو صُوَرَ فى ألذِّ الأوقات أعلى مما اتفق للآخرين ، وذلك كتفوق السِّماط[4] الناعم المصنوع فى بروكسل على النسيج الرِّيفىِّ المحُوك باليد ، والناسُ ، مع ذلك ، لا يَنْشُدون غير الشِّبَع بعد الجُوع ، سواءٌ عليهم أجلسوا حولَ مائدة فاخرة أم فى مَطْبخ قَرَوِىّ أَلْبِىّ[5] ، ويَخْضَع كلٌّ من هاوِى السَّلْوَى[6] الحَنِيذ[7] وطاعِم[8] الرِّيزُوتو[9] لنصيب واحد .

---

(١) لوكولوس : قائد رومانى – (٢) هوهنشتاوفن : اسم الأسرة الإمبراطورية المشهورة التى جلس أفرادها على العرش بين سنة ١١٣٦ وسنة ١٢٥٠ – (٣) أوسكار وايلد : أديب إنكليزى (١٨٥٦ – ١٩٠٠) – (٤) السماط : غطاء المائدة .

(٥) نسبة الى جبال الألب – (٦) السلوى طائر أبيض مثل السمانى .

(٧) الحنيذ : المشوى فى خد من الأرض فيه حجارة محماة – (٨) الطاعم : الآكل .

(٩) الريزوتو : طعام طليانى مؤلف من خليط الأرز المطبوخ على أن يظل جافاً سليماً وأن يلون بالزعفران والسمن والجبن المصنوع فى جوار پارمة .

وفى كلِّ زمن وتحت كلِّ سماء يحاول الناس أن يَجِدوا لأنفسهم ساعاتِ سكونٍ سعيدةً كلَّ يوم من حياتهم تقريباً ، وهنالك يَبْدُو الانهيار أو العاصفة أو الحرب فلا يُفكِّر الناس فى غير إنقاذ أنفسهم حُبًّا للحياة ، وواحدٌ من مئة ألف إنسان فقط يَبْلُغ من القنوط ما يَضَع معه حدًّا لذلك بيديْه ، والآخرون يَرْجِعون عن المَمَرّ الفاجع ، والفردُ إذا ما عاد إلى منزله بعد تشييع جنازة استحوذ عليه شعور بأفضليته أحياناً لِما كان من عدم وفاته !

من أجل ذلك يُحِبُّ الناس رؤية المأساة فى دار التمثيل ، وقليلٌ مَنْ يَعْرِفون أنفسَهم على المَسْرَح فيغادرون القاعة مُفعَمين بأعمق الأفكار حَوْلَ السعادة ، وكثيرٌ مَنْ يَرُوقهم صِراع البطل فلا يَفْتأون يطلبون المَسَرَّة فيما بَقِىَ لهم من وقت قصير بعد موته .

والذين يَشْعرون بأنهم حُرِموا السعادة يبحثون عن الألم ، وقد سار ألوف من الناس المضطهدين والمُهانين والمفضوحين ، الذين طال كفاحهم لطالِعِهم مع شعور ببراءتهم فلمَّا أُنْقِذوا بغتةً وَجَدوا أنفسهم وحيدين بلا نصير ، على غِرار الزَّارِع الذى تقول القِصَّةُ إن حُورِيَّةً سَلَبَت صَلِيبَه فأخذ الحُزْنُ يساوره لعدم تمَكُّنه من حَمْله ، وهذا ما يُلْقِى نوراً على ما يَسْلُكه الأنبياء من سُبُل حافلة بالأسرار .

بَيْد أن ذوى النفوس الضعيفة وحدَهم هم الذين يطالبون القَدَر بالتَّعَس ليَجِدوا السعادة فيه ، ولم يكن لدى الأعمى ، الذى كتب فلسفةَ تَعَسِه ليَجْعَل من ذلك شرطاً مُقَدَّماً للسعادة الحقيقية ، تلكَ القناعةُ عند قُدْرته على البصر ، ونحن قد نَتَلَقى هذا الدرس شاكرين ، وذلك من غير أن نرى أن الحرمان يوجب من الأحاسيس ما هو

أعمق مما توجبه المِلْأة ، وليس هذا جديراً بغير ذوى الطبائع القَمَرِيَّة الذين يُخِيفهم مصدر نُورهم الخاصّ .

والآن إذا كانت جميع الآلام ، حتى آلامُ الشَّقِىّ ، تستطيع أن تتحول إلى فرح فإن واحدًا منها لا يؤدى إلى غير القضاء على سعادة الإنسان وهو : الحسد .

وقد يكون الحقد خصيباً ، ومن الناس من لا يُزْهِرُون إلا به ، ولـكن الحسدَ الذى هو ألمٌ سَلْبىٌّ ، لا يكون إلا جَدِيباً دَوْماً ، والحسدُ والغَيْرَةُ التى هى بنتٌ له لا ينقلبان إلى مَسَرّة حتى لدى أتمِّ صانع للحياة ، وهما يُقوِّضان كلَّ دِعامةٍ للسعادة ويَمْحُوان ضحاياهما .

٨

تُبْصِر بجانب الأتراح والأفراح ووراء المُثُل العُلْيا ، والشعورِ أيضاً ، طوراً للسعادة يُغْنِى الإنسان ويقوم مقام الوَجْد الذى تؤدى إليه الآلام على وجه آخر ، وهذا هو الجَذَل(١) المُبْدِع ، ويتمتع صانعُ الحَلْوَى الذى يقضى مساء أَحَدِه كئيباً كليلاً بسعادةٍ غيرِ تلك إذا ما هَيَّأ أمام فُرْنه كَعْكًا بديعاً ، فهو يتَّزن هنالك ويَشْعُر بأنه حُرٌّ حتى من غَمِّ عدم رواج تلك الحَلْوَى لأنه صنعها بلا طلبٍ ولأنها ستغدُو كَشَراً(٢) فى الغد ، ويُوَجِّه بصره إلى الدقيق والسكر والسمن والقِرْفة ، ويَرْقُب الميزان ، وتَتجمع حواسُّه فى لسانه الذى يَذُوق به المزيج ، فحينئذٍ يصبح ابناً لبرُوميثُوس ، وحينئذٍ يصبح متفنناً .

وهل تجِد للرجل الذى يُبْدِع فى سكونٍ أو حركةٍ نظيراً بين فُرْسان الحظّ ؟

(١) الجذل : الفرح — (٢) الكشر : الخبز اليابس .

يصير الحَلْوانىُّ والعالِمُ والمِيكانىُّ(١) بين توابلهم وخَلِيَّاتهم ولَوالبِهم(٢) آلهةً صغيرة تَضَع الأمور وَفْقَ خِطَّة خَفِيَّة معروفة لديهم فقط ، وهم يجمعون مُبَعْثَرَ القِطَع ويتغلبون على ما اختلط ويأتون بالنظام إلى ما ارتبك ، وسواءٌ على المُبْدِع أعمِلَ فى السِّنَان(٣) أم فى الأبدان تبدو سعادته فى النُّور الذى يَصْدُر عن ذوى الفعل من بنى الإنسان ، وكلُّ شخص جميلٌ فى تلك الحال النفسية لتَحَرُّرِه من كلِّ مُحرِّك ومن كلِّ ألم فى سبيل الإخلاص الرُّوحانىِّ مهما كان الهَدَف ، ولتَخَلُّصه من الطموح والطمع اللذيْن يطبعان سِمَتَهما على الوجه بغير ذلك ، وليس النَّجَّار الشابُّ الذى يُسَمِّر سياجاً للدَّجاج إلا كالـكيماوىّ الذى يَصُبّ محلولًا فى أُنْبُوب ويَهُزُّه على النار مراقباً اللونَ الذى يكتسبه فيه .

ويكون حسُّ السعادة لدى المتفنن أنْمَى مما لدى العمال لشعور المتفنن بإبداعه كرَمْزٍ فى الوقت ذاته ، ولا تَعْرِف نَفْسٌ مبدعةٌ مثلَ ذلك الفُتُون الذى يُجَدَّد فى كلِّ مرة ويُوضَع خَلْفَ كلِّ قلق وإخفاق ، وهنا تزيد مقداراً فمقداراً ، فى ساعاتٍ وأسابيعَ ، مَسَرَّةُ الرجل المُبْدِع الذى يَفْقِد شعوره فى أسنى أحايين الإلهام فيَبْلُغ دائرة الحسّ قبل الوقوع كالرجل الذى يَوَدُّ أن يُبْصِر ابنَه معلَّماً مهذَّباً عند ولادته ، وما فى المتفنن من تَلَوُّن وحرية وعبادة للجمال وسلطان طليق وهَوًى غير مقيَّد فيجعل منه حين إبداعه سيداً للدنيا فيُصَفُّ بمشاعر سعادته عند الطاغية والفيلسوف ، ولـكنَّ ما يكون من رغبته عن أىِّ أمرٍ ، خلا الحُسْنِ العقيم ، يؤدى إلى تمتُّعه بأصفى سرور .

(١) mécanicien — (٢) اللوالب : جمع اللولب وهو آلة من خشب أو حديد ذات محور ذى دوائر ناتئة وهو الذكر أو داخله وهو الأنثى ويعرف بالبرغى — (٣) السنان : نصل الرمح .

ويا لَبُعْد مَدَى التجربة التى يُصيبها ما دام لا ينزوى ، ضِمْناً ، لينام على ماله وأكاليل نَصْره فى عيشٍ رغيد ، وما كان هذا الحافزُ العميق ، المتجددُ متواتراً ، إلى زيادة ما يُبْدِع لِيَنْشَأَ عن إيمان دينىّ أو عن طموح مَجْدٍ ، وإنما هو نتيجةُ وفاء قريب من الأحاسيس الأُولَنِيَّـة ، وللمتفنن بعِرْفان المستقبل هذا صفةُ الساحر فى القرون الأولى أو بين القبائل الفطرية .

والإبداعُ فعلاً ، لا الإبداعُ تأملاً ، هو الذى يُذَبِّه تلك السعادة عند كلِّ واحد من الحَلْوانىِّ إلى رانبرانت ، ولم يكن باخُ[1] الذى سَجَّل على الورق فى ثلاثين عاماً مُعْظَمَ القِطَع الموسيقية التى ارتجلها على الأُرْغُن أكثرَ سـعادةً من سِزَار فرَانْك[2] الذى لم يُسَجِّل شيئاً فى ثلاثين عاماً فلم يَصْنَع ذلك فى نهاية الأمر إلا لِحَمْل تلاميذه إياه على ذلك ، وقد ظَلَّ دماغ بَلْزَاك بعد مئة وعشرين رواية كالبوتقة[3] المُتَّقِدة فلم يَفْتَأ يُخرج المُتَحَجِّرَ من الرُّؤَى والموضوعات ، فـكان سعيداً سعادةَ شَكْسبير الذى كَفَّ وحدَه من عظماء المتفننين عن الدوام على عمله مختاراً .

وتقوم سعادة أولئك على ما يُلاَقُونه من قُرَّةِ عَيْنٍ فى الإبداع ، وقديماً كان الأبطال يَرْغَبون فى منافسة الآلهة ومباراة مغامراتها، فتُبْصِر المتفننين يحاولون تحقيقَ مثلِ ذلك فى آثارهم ، والرجلُ الذى يَوَدُّ الإفلاتَ من الهلاك التامِّ بإصدار صُورَته هو فى الواقع مثالٌ جوهرىٌّ للمتفنن الجادِّ بما لا ينقطع من جديد المناظر فى بلوغ ذلك

(١) باخ : موسيقى ألمانى مشهور (١٦٢٤ – ١٧٠٢) – (٢) سزار فرانك : ملحن فرنسى (١٨٢٢ – ١٨٩٠) – (٣) البوتقة : الوعاء الذى يذيب فيـه الصائغ معرب بوتر بالفارسية .

الخُلُود الذى يَدْفعه إليه يَقِينُ الموت ، وهكذا ترى إنذار الموت يُقَرِّر السعىَ إلى السعادة مرةً أخرى .

وعن ذلك تنشأ الأحاسيس الرَّمْزِيَّة لدى المتفنن الذى يُحَوِّل كلَّ صُنْع له إلى صورة عن حياته الخاصة .

ولكن المتفنن لا يعيش وحيداً ، بل يترك مسارَّ عُزْلته فى عمله من أجْل مَخَاطِرِ مجتمعه ، والمتفنن إذا ما أَبْحَر وحدَه إلى جزيرةٍ قَفْرٍ مع كَمَانه غدَا سعيداً وعَزَفَ لنفسه وفَسَّر للحيوانِ ألحانَه كفرنسيس[1] ، ولم يُصْبِحُ عادمَ القرار راغباً فى الحضور ؟ ولِمَ يَبْحَثُ من جديد عمن كان قد سَحَرهم من الجماهير ؟ حتى المُصَوِّرُ والشاعر لا يَصْبِران على حياة الاعتزال إلى الأبد مع إلهةِ الفنِّ الجميل ، فـكلاهما يحتاج إلى ترديدٍ وإلى تأييدٍ فيَقْذِفان بنفسيهما فى رواية لهذا السبب العتيد .

وعلى الرغم من كلِّ شىء تَرَى المتفننين وحدَهم هم الذين يَزْحَفون من جديدٍ إلى حُجُراتهم ، ولم يَشْعُر الرهبانُ الذين يشابهون أولئك فى بعض الأحيان بمِثْل وَجْد أولئك إلا لاخْتِيان[2] أنفسهم فى حَوَاسِّهم .

بَيْد أن المصور الذى يَرْسُم حبيبته على مئة وضعٍ مختلف هو أغنى طُلَّاب السعادة وأكثرُهم شكراً فى الحقيقة لِما يُخَلِّد به صورَ أسعد أوقاته للأعقاب ، لا لشخصِهِ وحدَه ، ليُشْرِكهم فيها ، وهكذا يَشْمَل الجميعَ بنصيبه الخاصِّ ، وهكذا يَسْمُو بقَدْره الشخصىِّ فوق قَدْر الطاغية بعد أن يُبْصِر مقدارَ قِصَرِ عمر الدولة إذا ما قِيسَ ببقاء آثاره .

(١) فرنسيس : كاتب روائى فرنسى (١٧٧٨ – ١٨٤٠) – (٢) اختانه اختياناً : مثل خانه ، إلا أن الاختيان أبلغ ، وفى القرآن : « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » .

٩

لا يبالى الرجل القوىُّ بالمَرَض ، وإنما يشغَل باله بالموت ، وعكسُ ذلك أمرُ الضعيف ، وكلما عَرَف الفرد هذا الوجوب الأخير عَظُمت حُظُوظه من السعادة ، ويُسْفِر تناقص المَسافة إلى الموت فى كلِّ يوم عن زيادة الأُهْبة للمَسَرَّة ، ويُخْطئ مَنْ يقول إن الفَتاء أكثرُ سعادةً ، والفتاء يَبْدُو على ذلك الوجه عند الالتفات إلى الماضى فقط ، وذلك لِما يكون من تبسيط الأمور وتقصير الفِكر فى الفَتاء حيث جِدَّةُ(١) القُدْرة وسهولةُ البسالة أمام المخاطر ، والمرأة إذا ما بَلَغَت الأربعين من عُمرها فغدت تَتَرَدَّد أمام المغامرات نَظَرتْ إلى ابنتها بعين الغَيْرة عندما تقوم ابنتها بها مُجازفةً بلا وَجَل ، وهذه الفتاة لا تَعتَمّ ، مع ذلك ، أن تَنْسَى غَرابةَ تلك المغامرة من فَوْرها عن غرورٍ غير مُدْرَك ، وهى فى ذلك كالصَّادِيَة(٢) التى تَجْرَع كأسَ رحيقها دفعةً واحدة لتَعُود مسرعةً فتَرْقُص على حين تَرْتشف الكُبْرى قَدَح خَمْرِها قَطْرةً قطرةً مُتَذوِّقةً .

ومَثَل صِلَتنا بالموت كمثل أطوار السعادة التى تتغير بتغير المواسم ، والفَتاء قريب منه ، وفى الفَتاء يَكْثُر الانتحار عن وَلَعٍ لِما بين شِدَّة اهتزازاته ووقوفه المفاجئ من مطابقة ، وفى الكُهُولة ، حيث ينجذب الإنسان إلى كلِّ شيء حسن ، يَدُور الموت فى خَلَد المرء قليلاً ، وما يلوح من ازدهار الأولاد فيُؤدِّى إلى الترحيب بوَهْم الخُلود ، ثم يتراءى الموت بأشدّ ما يكون ، فتَثْقُل كلمة « أشدّ » الصغيرةُ فى الميزان .

(١) الجدة : كون الشيء جديداً — (٢) الصادية : العطشى .

والإنسانُ فى ذُرْوة معرفته أو ثَرائه أو قدرته أو فَنِّه يُشبِّه نفسَه جهرًا بمَنْ يعيشون حوله أو بمَنْ ظَهَروا قبلَه ، حتى إن الرجل غيرَ المُثقف البالغَ من العُمر خمسين سنة ، كمدير أحدِ المصارف مثلاً ، يسأل فى نفسه عن المال الذى أُعطِىَ لمَنْ هم فى سِنِّه من الناس على العموم فأَنْعَم الطالعُ عليه بمِثْله ، وتُزْعِج هذه المقايسةُ الغِطْريسَ(١) الذى تَعَوَّد أن يَنْظُر إلى ما فوقه على حين يَفْرَح الغبيُّ بما يراه من أناس كثيرين على مستوًى أدنى من مستواه .

ولا تُبْصِر سوى خُطْوة واحدة من هنالك إلى الوَصِيَّة ، وهذه هى ، أيضاً ، ذريعة لقهر الموت ، وهذه تكون إذا ما بَقِيَت الرغبةُ فى الرُّقْية حَيَّةً بعد وفاة الفرد ، والسعادةُ هنا تُخْرَج عَنْوةً من سكون الموت المُتَحتِّم كتلك المشاعر التى تُبْدِى نَصْرًا ، أو كَسْرًا ، لأناسٍ يَتَضوعون إيثاراً أو يَنْفِثُون ثأرًا ، والمُوصِى حينما يَتَمثل عيونَ أولئك الذين قَبَض عنهم ما يتطلعون إليه من أملاك وأموال ويَتَمثل غَيْظ خصومه الذين يَفْضَح للعالَم ضروب الضعف فيهم بمُذَكَّراته يكون بوَصِيَّته قد انتقم لنفسه ، كذلك ، من القدَر الذى حَرَمه نُورَ النهار قبل أولئك أجمعين .

وتَقُوم فِكْرة المجد بعد الموت على مستوًى أعلى من ذلك ، والذين أَحَبُّوا المجد لم يخافوا أن يُقْتَلوا ما دام القتل يَرْفَعهم إلى الذُّرْوة ويُخَلِّدهم ، وفِكْرةٌ كتلك تساور الثَّرِيَّ الذى يَطْمَع أن ينتقل اسمه إلى الأعقاب نَقِيًّا أحياناً بما يُنْشِئه من وَقْفٍ خَيْرِىّ ، وهو يَعْرِف سعادة المخترع الذى يعدُّه العالَمُ محسناً ، ويُعبِّر غُوتِه ، وقد بَلَغ الثمانين ، عن حِدَّة هذا الإحساس بالكلمة الآتية :

« لا يَقْدِر الدهرُ أن يَمْحُوَ أثرى فى هذه الدنيا » .

(١) الغطريس : المتكبر المعجب بنفسه .

ويمكن مقابلة تلك المظاهر الشعورية ، التى هى أسمى ما فى الحياة قبل فراقها ، بالحدِّ الآخر ، أى بسذاجة الثَّوْر الذى يُسَرُّ بالرَّعْى فى طريقه إلى المَجْزِر ، ونَنْعت ذلك الإنسانَ بالسعيد ، وهو ، لا جَرَم ، أسعدُ الناس إذا ما قيس بالمجرم الذى يُقاد إلى الكرسىِّ الكَهْرَبىِّ ، وبجانب أولئك يقفُ سُقْراطُ الذى سَمَا إلى تمام البَهْجة فى ساعاته الأخيرة ، ولكنه يَظَلُّ نَسِيجَ وَحْدِه تقريباً ، والآخرون ، حتى مَنْ بَلغوا غاية الرُّشْد ، حتى قَيْصَرُ الذى تكلم فى المسئلة عَشِيَّةَ قتله ، قد تَمَنَّوْا موتاً مفاجئاً ، وهكذا تَسْتَرِدُّ السعادةُ فى آخر الحياة ما كان لها فى الطُّفُولة من ظاهرة غير شعورية ، وفى نور الغَسَق[1] تُبْصِر أولَ الحياة وآخرَها ، ولكن المركز الأكبر يُلْقى أشعتَه على العالَم الواسع أو يَهَبُ له النهار على الأقل .

والقدماء ، حينما كانوا يقولون بتَعَذُّر عَدِّ الشخص سعيداً قبل موته ، لم يَقْصِدوا أن يجعلوا من هذا مبدأً سلبياً ، وذلك لأن أتمَّ حياةٍ قد تُلَطَّف بموت ملائم ، ومما لا مِرَاء فيه أن الحياة بغير عملها الأخير لا تُنْتَقَد بأكثرَ من نَقْد الرواية المحزنة ، ولكنك لا تجد رواية محزنة تُفْهَم بخاتمتها فقط ، وقد يحاول العالِم النباتىُّ مَدَى حياته أن يُفَسِّر ، مستعيناً ببعض المناهج ، أصلَ الأعشاب والطَّحالب الثُّنائيَّة فيُضْطَرُّ فى شَيْبَته إلى الاعتراف بخطأ جميع ما عَلَّم بعد أن أبصر ما تَمَّ لغيره من الاكتشافات فتَشُوبُ لذةَ رياداته[2] السابقة مَرارةٌ فى نهاية الأمر ، ويجب عَدُّ قيصرَ وفالِنْشتَاين[3] ولِنْكُولن[4] من السعداء لقتلهم بعد حياة حافلة بالنجاح وحين كانوا فى ذِرْوة معاليهم ، أَجَلْ ، قد

(١) الغسق : ظلمة أول الليل أو دخول أوله حين يختلط الظلام – (٢) راد الأرض يرودها روداً ورياداً : تفقد ما فيها من المراعى والمياه – (٣) فالنشتاين : قائد ألمانى (١٥٨٣–١٦٣٤)
(٤) لنكولن : أحد رؤساء جمهورية الولايات المتحدة (١٨٠٩ – ١٨٦٥) .

طعَن برُوتُوسُ قَيْصرَ بخَنْجَره فقَضى فى بضع ثوانٍ على أقوى رجال عصره ، بَيْد أنه لم يَمْحُ كلَّ سِحْر فى تلك الحياة الكثيرة البَرَكة ، ولْيَزُلْ ذلك السِّحْرُ بزوال مُوجِده ، فذلك هو مصيرُ البشر الدَّارِجُ ، لا نِتَاجُ القتل على الخصوص .

ومَنْ يُغادِرْ تمثيل رواية محزنة يَحْمِلْ فى نفسه آخِرَ صورة ، ويَعْرِفُ مدير المَسرح ما تقتضيه الخاتمة من جهود كثيرة ، والحضورُ لا يذكرون الرواية بأسْرها إلَّا فى وقت متأخر ، فالحياةُ السعيدة تَسْتَرِدُّ توازنها شيئاً فشيئاً ، حتى بعد خاتمة فاجعة، وذلك كالولد أو الصَّدِيق الذى لا يَسْتَبين أُمَّه أو صديقتَه فى أيام نضارتها إلا بالتدريج بعد وفاتها مُتَلَوِّيةً مَرَضاً ، ماحياً الخيالَ الأول المُؤلِم على هذا الوجه .

وكان القدماء يقولون : « من تُحِبُّه الآلهة يَمُوتُ فَتِيّ » ، ولنا فى حياة الإسكندر العجيبة أَرْوعُ مثال على ذلك ، وعاثِرُ الجَدِّ[1] وحدَه هو الذى قَدَر على ابتكار هذا المَثَل الهزيل ، والحقُّ أن الخير الذى كان أُومِيرُس يَتَمناه على الدوام هو الموتُ بعد طويل عمرٍ وبلا ألم ، ولا يَصْدُر الشوق إلى الموت الباكر إلا من الناظر ، ولا صِلَةَ بين هذا الشوق وبين ما فى الشخص المُوَرَّط من رَغْبة فى السعادة ، وليست أحوال السعادة الجديدة أو المديدة وحدَها هى التى تُزِيل ذلك الشخص ، وملامحُ ذلك الشخص هى التى تُشْعِر بموته قبل الأوان ، وفى الغالب نَعْرِف تلك السِّمات عند النظر إلى صور الشخص بعده لا فى أثناء حياته ، والموتُ ، حتَّى إذا ما استعار صوتَ شُوبِير العَذبَ مخاطباً الفتاة ، يَنْزِل على الشَّباب دَوْماً نزولَ العاصفة القاصفة فى يوم من أيام الربيع على حين يُنْتَظر الموتُ فى المشيب فيشابه الهدوء الذى يُنْتَظَر بعد كثير من السُّحُب والمُؤْتفِكات[2] .

(١) عاثر الجد : التعس – (٢) المؤتفكات : الرياح تختلف مهابها .

وآخرُ فَضْل للمصير على الإنسان هو إخفاؤه يومَ موته ، ولذا لا يكون جُرْم أنصارِ عقوبة الإعدام فى المطالبة بالقِصاص ، بل فى تعيين زمن للتنفيذ ، فى تعيين وقتٍ لولاه لطال الأَمَد كثيراً على ما يحتمل ، أو لنُفِّذَ الحُكم من فَوْره كما فى إبَّان الحرب ، ومعرفةُ مِثْل ذلك التاريخ ، فى بعض الأحوال على الأقل ، تَجْعَل من الطبيب ساحراً حقيقياً فتَهَب له ، كما يشاء أو كما يقتضيه مزاجُه ، حقَّ الصدق أو الكَذِب تجاه مريضه ، أى تُعْطيه قدرةً لا يَعْدِلها أىُّ أمرٍ بشرىّ كان .

وفيما يُمْكن سادةَ العالم أن يُقْصُوا مَنْ سواهم من صَيَارِفةٍ وناصحين وزوجات، وذلك من غير أن يُخْطِئوهم ، تُبْصِرهم ، إذَنْ ، ناظرين مضطربين إلى طبيبهم نَظَرَهم إلى عَرَّافة الحياة الكُبْرى .

والطبيبُ يُمْسِك ميزان السعادة بيديه ، والطبيبُ ، حتى عند حبوط علمه وفَنِّه ، يَبْدو ، كحاكمِ الكَوْن ، أنه لا يزال يُعَيِّن الزمن الذى يَظَلُّ الإنسان فيه متمتعاً بنعمة النور .

١٠

النور! بالنور نَتَنور فى نهاية الأمر أعظمَ آيات السعادة !

وذلك لأننا نُجَرُّ فى ذلك النهار إلى ليل الموت على أَسْتَرِ وَجْهٍ ، وهنالك يختفى النور وراء الجبال والبحار والمِهاد(١) ، وبالتدريج تتوارى الصفحة التى نكتبها والملامح التى نلاحظها واللوالب التى نُجَرِّبها ، وتغيب الحركات والانعكاسات ، وتنحلّ الاستدارات ، ونمُدُّ اليدَ إلى المِفتاح الكَهْرَبِىّ الصغير عن يميننا ونَغْمُر الغرفة بالنور

(١) المهاد : الأرض المستوية .

المصنوع فى أقربَ من لَمْح البصر ، بَيْد أن أجدادنا كانوا يختبرون المَنُون(١) حين انطفاء النور فى أعماق مَغاوِرهم ، فإذا ما بُعِثَ النور فى الصباح عرَفوا بهجة الحياة من جديد وعلى ما هو أبعدُ غَوْراً ، فرَكَعوا أمام الإله : الشمس .

ولعلك لا تجد سعادة كسعادة ذلك الذى يُصاب بإظْلام العدَسة ، فتُزال الغِشاوةُ عن بصره ويَعْرِف من فَوْره وجهاً بشريًّا ، أى وجهَ الطبيب ، أى وجهَ المُنْقِذ الذى رأى بفضله النور للمرة الثانية بعد غَلَس(٢) عِدَّة سنين ، وهو إذا ما أُمْتِع ناظريه مُجَدَّداً بالغاب والسحاب وبملامح مَا لَهُ من ولد وما فى حديقته من وَرْد لم يخالِجْه شىء مثل ذلك النعيم الذى يَشْعُر به فى ذلك الحين ، أليس ذلك ما يَتَّفق لنا كلَّ صباح عند ما نَفْتَح عيوننا ونَكْشِف الستائر عن نوافذنا فنشاهد فى النور سعادةَ الحياة تارةً أخرى ؟

وتَقُودنا تلك القُوَى الأصليةُ إلى السعادة بالانتقال من النهار إلى الليل ومن الصيف إلى الشتاء كاقتران الجنسين المُتمِّ أحدُهما للآخر ، وفى كلِّ حال تَنْشأ شروط سعادتنا عن الانتقال نفسه كما لو كانت الطبيعة تحاول أن تَدُلَّنا على اتجاه سَيْرنا ، والانتقالُ من السكون إلى الحركة هو الذى تُنْجِزه القُوَى الأصليةُ لنا . ومن بين ألوف الأشكال والألوان التى تَغْشَى سعادتَنا فيُمْكننا أن نُبْصِرها نرَى ثبات واحد منها ، وهو ما يسميه الأغارقة بانبساط للقلب وانقباضه، أى الشهيقِ والزفير ، وبالتحول من الحركة إلى السكون ، أى من العَزْم إلى التسليم ، ومن العمل إلى الكَسَل .

ترَى دوام تلك السُّنَّة فى جميع الأزمنة ولدى جميع الأمم ، حتى إن البُدَّهِىَّ (البُوذِىَّ) الذى هو أبعد الناس من الألم يتطلب الحركةَ لبَدَنه ورُوحِه بعد أن

(١) المنون : الموت — (٢) الغلس : الظلمة .

يقضى ساعات كثيرة وأياماً غير قليلة فى تأمل سرته ، ويحتاج الأمريكى المتبرم إلى أوقات من الراحة لا يأتيه بها حتى ألهياته ، وما كان للسعادة أن تزدهر إلا حيث يكون كل من الشد والإرخاء متمماً للآخر مقيلاً له .

وكلنا نكافح من أجل حدوث تجربة رائعة إلى أن يخلدها التكرار ، وبهذا وحده يتألف الخلق ، وسواء على التجربة الوحيدة المباغتة أكانت جيدة أم رديئة لا تؤدى إلى غير توجيه مفاجىء جديد ، وذلك لأن السعادة تسم طبيعة الإنسان كما أن الحياة تسم ملامح الوجه ، وإذا ما أثر فينا منظر والدة تقود ولديها بيديها من وسط حقل فلأن السعادة منظورة وإن لم يشعر بها الأشخاص الثلاثة .

وفى نهار ذى حبور ينير إرادة العمل فى المتفنن والصانع والمعلم والطبيب ، وفى غضون أسابيع وسنوات سعادة تجرى فى حياة عاشقين أو فى حياة ذات طبيعة ناعمة ، تجعل السعادة الشخص من هؤلاء أكثر كمالاً وجمالاً مما يستطيع الألم أن يصنعه فيه ، ويحقق النساء هذا الازدهار فى حبهن للرجل وفى حنانهن نحو أولادهن على الخصوص ، ويحقق الرجال هذا الازدهار فى عملهم وإبداعهم ، ومن ثم كان رنين شعور السعادة عميقاً كالذى توجبه فى الأرغن المجسدة[1] الملازمة للحن الحياة والمنقطعة بانقطاعه إذا ما حدث هذا بغتة ، ولكنه يندر أن يبلغ رجع صداه الأذن ، ولا بد من امحاء الغناء لوقوع هذا ، فهنالك يتبسم الإنسان أو يبكى .

بيد أن هنالك أوقاتاً نادرة تصدر بغتة عن حال السعادة فتتجمع عليها الإرادة ، وإذا كان المتفنن يركم مثل تلك الأوقات فيما يهبه للحياة من انعكاس رمزى فإن تلك الأوقات مما يناله ذوو النفوس البسيطة أيضاً وإن كان ذلك على قلة ، وعلى

(١) Note

ما كان من اختراع الدين والمجتمع للزواج والعماد والمآتم لم تعد هذه الأمور أحسن الأوقات ، وأدعى تلك الأوقات للعجب هى التى تصعد فجأة صعود أقواس قزح فى الأفق ، فلا يدق القلب بضع ثوان عند رؤية جسرها الرمزى .

وفى شهر فبراير ترى فتاة مدثرة بدثار من صوف ولابسة حذاء ثقيلاً فتجوب حديقتها المستورة بأوراق يابسة ، وإنها لتدفع بعصاها بعض الحصا عن الأعشاب الخضر إذ تبصر زهرة الربيع الأولى مصفرة جامدة شبه وجلة شبه حائرة ، فإذا جن[1] الليل جلست قريبة من النافذة مرتدية منتظرة حبيبها ، وهى تسمع ربع ساعة على الأقل قبل أن تسمع صوت فرامل[2] سيارته الذى تميزه من غيره ، ثم تسمع وقف الآلة والباب كما كانت ترقب وقع حوافر الخيل فى العصر الروائى ، ومن المحتمل أن ذهبت منذ هنيهة إلى وسادة ولدها ، ومن المحتمل أن أمسكت يديه الصغيرتين بيديها وأن تلوا دعاءهما حتى ينام ، فتلك هى أويقات ثلاثة لسعادة مطلقة ، وقد رفعت جميع الهبات فى ذلك اليوم إلى ذرى الآلهة ، وهل تمكن حيازة ما يفوق مثل تلك الأويقات ؟

وإليك الجراحى ، فهو بالأمس قد أبصر فى الصبى نزفاً قاتلاً تقريباً بعد استئصال لوزتى الحلق ، ولكنه قطع النزف بغرزات ثلاث فى أحرج حين ، والآن ، فى الصباح ، يرى منحنى القدر ينزل ومنحنى الحياة يرتفع فوق السرير حيث كان كل شىء فى البارحة يبدو قريباً من نهايته .

وإليك الجابى ، فهو قد شعر بفراغ بين نقود أغسطس الذهبية مع أنه لم يفقد غير قطعة نحاسية ، وهو فى نهاية الأمر قد وجد ذلك فى ظلام مخزن التاجر ، وهو قد

(١) جن الليل : أظلم – (٢) Freins Breaks .

لَمسه فأحسَّت أصابعه بفضاء مُميت يُسدُّ فى عالَمه الصغير .

أَوَ تروْنَ ذلك الشائب الخمس الواقف قريباً من الأكروبول(١) ؟ هو قد حَلَم منذ صباه أن يكون بجانب البارْتِنون(٢) ذات يوم ، وإن شئتَ فَقُلْ فى الرِّواق الأمامىّ الذى يَقع بجَنوب الرُّكن الغربىّ ، والذى كانت صورته تبْدو له على القِمطْر(٣) فى أيام دِراسته ، ولكنه أصبحَ معلمَ مدرسةٍ هزيلاً وكانت الحياة شاقَّةً عليه فلم يَسْطِعْ أن يَسيح حتى هذا الحين ، والآن يَقِفُ هنالك ، والآن هو فى جَنوب ذلك الرُّكن الغربىّ ، والآن تَهُبُّ الريح من تِلقاء سَلامين(٤) فتتخلل شَعْرَه الأَشْعَث .

ومن بين الصُّوَر التى تَرْقُص فى الذاكرة تَبْرُزْ صورةُ فتىً أشقرِ الشعر طويلِ الساقيْن فيَبْهَر بصرَه حائرَ الخطا نورُ مدخل بيت أبيه الذى يَقصِده فى عُطَله فيُمثِّل لديه كلَّ ما هو طيب لطيف ، كلَّ ما كان يَعُوزه فى مدرسته الداخلية البخيلة ، وهو يَدْخُل المطبخ من الباب الجانبىّ فيَقَع نظره على الكلب الذى يَثِبُ نحوه ، وعلى الهِرّ الذى يتطلع حَذِراً من مَكْمَنه ، وعلى الطاهية التى تمْسَح يدَيْها ، وعلى الأوانى النُّحاسية التى تَلْمَع فوق الفُرْن الكهْربىّ ، وكلُّ شىء هو له مرةً أخرى ، ويَغيب عنه أُوميرُس وعلمُ الحساب ، وفى الساعة العاشرة من الغد سيتناول طعام إفطار فاخر لا يرَى فى العالَم ما يعْدِله .

وهنالك صيَّاد السمك يرقُب عاضّاً على شَفَتَيه بُزُوغ النهار فى الأُفُق الذى لا يزال غير قادر على تَنوُّره ، وهو يُلْقِى بيده اليسرى شبَكته التى يُمْسِكها بيده

(١) الأكروبول : حصن أثينة القديم القائم على صخرة عالية يبلغ ارتفاعها ١٥٠ قدماً .
(٢) البارتنون : معبد أثينة المشهور — (٣) القمطر : ما يصان فيه الكتب .
(٤) سلامين : إحدى جزر اليونان .

اليمنى ، وهل يصطاد اليومَ ما يكافأ به على جُهْده ؟ وفيما هو كذلك إذ يَشُدُّ كَفَّه ، فقد شَعَرَت يَدُه اليمنى بشىء ثقيل ، فيَخْطَف بها خيوط الشبكة على حين تتردد يدُه اليسرى، وهو يَجُرُّ بجميع قُوَاه فيُبْصر سمكة عظيمة فى قَعْر زَوْرقه ، وهو قد يَخْفِق قَلْبُه ، فقد أَحَسَّ أنه سيعود غانماً .

وفى غرفةٍ عارية ينتظر البَحَّارُ أميرَ البحر ، فهو قد دُعِىَ إلى مقرِّ القيادة لأنه أغْرَق سفينة العدوّ بلُغْم أصابها به ، والآن يُفْتَح الباب ويَدْنُو أمير البحر فيُعلِّق وِساماً على بِزَّته ويصافحه كصديق له ، وهذا بعد ذلك الدَّوْر من حياة محدودة ، وانتظارٍ تحت الماء فى عِدَّة أيام ، وتَوَتُّرٍ لسماعِ ما يُخْبِرُ به القَيِّمُ على مِنْظَارِ الغَوَّاصَة(١) ، وإطماحِ(٢) بصرٍ إلى المَرْمَى ، وتَحفُّزٍ للصِّرَاع ، وشعورٍ بالترجُّح بين الموت والفوز ، وغارةٍ ، وثانيةِ الآن ، يتوقف عليها إصابة الهَدَف ، وصوتِ انفجار عميق ، ومنظرِ عدوّ غريق ، وشَكٍّ فى الأَثَر ، وقضاءِ أيامٍ أخرى تحت البحر ، ووصولٍ إلى ميناء وطنىّ ، وذُيُوعٍ لنَبَأ النصر .

ومن أولئك الذين لا يَحْلُمون إلا وقتَ الفجر نَعُدُّ أيضاً ذلك الرجلَ الذى يُوقِظه نور النهار فيُغْمِض عَيْنَيْه من فَوْره ليَعُود إلى حُلُمه ، وذلك الرجلُ يُعيد إلى نفسه لِحَافَه الذى يَنْحَدِر عنه ويُسَلِّم نفسَه مُتَلذذاً إلى مالم يكن حتى ذلك الحين غيرَ حُلُم فى الكَرَى ، وهو فى منتصف الطريق ، بين سعادة المنام ومَسَرَّة اليقظة ، يُبْدِع صُوَراً تُغَذِّيها عناصرُ حياته فتَبْلُغ ، مع ذلك ، حَدَّ الهَوَى ، أى حسّ نعيم يفوق الوصف .

(١) périscope — (٢) أطمح بصره إليه : رفعه .

وما الذى يجمع بين أولئك ومعهم مئاتُ الآدميين الذين يَشْعُرون بأنهم من السعداء ؟ انظروا إليهم تَجِدُوا الخبرَ اليقين فى ملامحهم .

هم يَبْتَسمون ، يَعْلُو الابتسامُ ، لا الضِّحْكُ ، وجهَ تلك المرأة التى تنحنى على زَهْر الربيع أو تنتظر بالقرب من نافذة ، ووجهَ الجِراحِىِّ والجابى والحَمِس والولد فى العُطْلَة والبَحَّارِ وصَيَّاد السمك والمُحْتَلِم ، ومن يَتَبسمْ يَنَلْ شيئاً من القَدَر على الرغم من المطَر والعاصفة والأَشْراك ، وهذا هو الذى تَنِمُّ عليه الملامح الطليقة عند ما تتجمع حالُ النَّفْس ذات حين .

ذلك هو وقت الاعتدال التامّ ، فالابتسامُ هو بشير السعادة على وجه الإنسان .

مِنَ العَظَمَة

العظماء هم من يبدون أكبرَ من سواهم ،
وللأكابر ، كالأصاغر ، فضائلُ ورذائلُ
على أوسع مقدار وإن أمكن أن تكون على
نسبة واحدة . (غوته)

أربعةٌ من جوّابي الآفاق مُسْتَلْقون على الرَّمْل ، هم قد أدخلوا سيارتهم إلى الكُثْبان مُشْرِفين على الشاطئ عازمين على قضاء الساعة الأخيرة من النهار في مشاهدة أمواج البحر ولَمَعانه ، هم قد أخذ جَلالُ العناصر الصامتة ورَوْعةُ المنظر بمجامع قلوبهم فيَنْسَوْن بذلك ما لاقَوْه في يومهم من كفاح ونجاح وخُسْران ، حتى إن الحرب كانت تَلُوح لهم غائبةً عن العالَم ، وما كان أيٌّ واحد منهم ليَشْعُرَ عند رؤية الماء بأن هذا هو المحيطُ الهادئ الذي تَشُقُّ عُبابَه مئاتُ السُّفُن المشحونة بالجنود فيُهَدِّدهم في كلِّ لحظة بابتلاعهم .

« اللهُ قادرٌ على كلِّ شيء ! »، هذا ما صاح به رجل العمل مع قليلِ حركةٍ نحو الفتاة المُضْطَجِعَة بجانبه على الرَّمْل ، وتَرْفَع هذه الكَمانيَّة يَدَها لتُظَلِّل ناظرَيْها فتَتَمتع بمرأى شُعاع الشمس الضاربِ إلى حُمْرَة عند الغروب .

« يا له من مَنْظَر رائع ! » ، هذا ما قالته بصوت عَذب .

وتلتفت صديقتها المُعَلِّمة الأكبرُ منها سناً والتي ظَلَّت حتى ذلك الحين مستلقيةً على بطنها ، وتُحِيط نظرةٌ منها بالمنظر مستطلعةً أكثَرَ من أن تكون مُرْتَعِبة فتقول بصوت عالٍ :

« ليس هذا منظراً ، بل الطبيعة ! » .

وترَغَب الفتاة عن النِّقاش حَوْلَ المسئلة فتقول : « هذا يتوقف على . . . » .

بَيْدَ أن الأخرى ، وهى أشدُّ لَجاجاً ، تتلفت إلى الفيلسوف البعيد قليلًا ، واللاعبِ مع الولد ، والذى كان الشّفق يُلقِى أشعّةً أرْجُوانيّةً على جبينه المُحدَّب ، فيرمى صَدَفاً إلى مَدًى غيرِ قريبٍ مع شَيْبَته فيرْكُض الولد باحثاً عنه .

المعلمة : « قُلْ لنا أيها الأستاذ ، أمِنَ الفنِّ ما نراه أم من الطبيعة ؟ » .

ويبتسم الفيلسوف ويلتفت إلى الجماعة ويقول بصوته المؤثِّر الموزون :

« ومهما يكن الأمر فإن ذلك شيء عظيم ، أليس كذلك ؟ » .

وكان صمتٌ ، ويتأمل رجل العمل قليلَ وقتٍ وينهض كرجل يُريد استقصاء شيء ، غير أنه يجلِس من جديد بين الاثنين فيَبْدُو الأربعةُ على شكل نصف دائرة ، وفى تلك الأثناء يعُود الولد بتؤدَة ويجْلِس على الرمل بجانب أمّه ليقابل بين الصَّدَف الجديد وما كان قد جمَعه منه ، ويُنغّم الولد تاركًا الكِبار فى حديثهم الغريب .

رجلُ العملِ بأسلوبه الناعم : « وهكذا ، يا جُون ، تُعدُّ ذلك منظرًا عظيماً ، فهل ترى مقابلةَ غروب الشمس بالرجل العظيم إذَنْ ؟ » .

الموسيقية مقاطعة : « تَظَلُّ الشمسُ عظيمةً مع الرَّجل الآفل ، حتى فى الموت » .

الفيلسوف : « والرجال عظماء أيضاً ، ويدلُّ موت الرجل حقيراً على أنه لم يكن عظيماً فى حياته » .

المعلمةُ مقاطعةً صائحة : « إذَنْ ، يتوقف كلُّ شيء على الساعة الأخيرة ، لا أوافق على هذا ، انظُروا إلى نابليون تجدوه ذا خاتمة بائسة » .

الفيلسوف : « أرى العكس ، فنابليون مات بطلاً كما عاش » .

المعلمةُ صائحةً : « مَهْلاً ، مَهْلاً ! مات بطلًا ! فما هو البطل ؟ أجميع الأبطال

من العظماء ؟ أتزْعُمون أن العظماء هم الذين تَدْعُونهم بالأبطال فقط ؟ لستُ من القائلين للأبطال ! » .

رجلُ العمل مُستَمِيحاً زوجَ دُولِى : « انتَظِرى يا دُولِى ، أرى ألا تخْلِطى الأمور بعضَها ببعض » .

« يَضْطَرب جاكُ ، دَوْماً ، عند ما أقول ما أفكِّر فيه » .

ويرتفع صوت الولد مُطْلِعاً أمّه على الصَّدَف قائلاً :

« انْظُرى ، انظرى إلى هذا هنا ! » .

الأم : « كن عاقلاً ، فالأستاذ سيَكْشِف لنا عن أسراره » .

الفيلسوف يقول وهو يَضْحك : « ليس عندى شيء من ذلك فى بدء الأمر ، وعلىَّ أن أعْرِف أىُّ الأسرار تَقْصِدين » .

رجلُ العمل : « إن الشمس هى آخر شيء تكلمنا عنه ، والشمسُ وَفِيّة لنظامها ونُورها » .

المرأة مقاطعةً : « كلَّا ، نابليون » .

الكَمَانيّةُ بصوت مُتَرَدِّد : « أرى أن العَظَمة هى الموضوع » .

المعلمة : « أجَلْ ، إن هذا هو الأمر ، فقُلْ لنا يا أستاذ ، ما هى العظمة ؟ » .

الفيلسوف متبسماً : « أىْ بُنَيَّتى العزيزة ! تتكلمين كما لو كنتِ صوتاً فى المذْياع يسأل : "ماهو الفيتامين[1]؟" أو يسأل : "مَنْ هو قاضى الجماعة ؟" فيتعذر علىَّ أن أعرِّف العظمة فى جملة واحدة تعذُّرَ تعريفى للجمال » .

دُولِى صائحةً : « ولِمَ يتعذر عليك تعريفُ الجمال ؟ لا شيء أسهلُ من هذا ،

(١) الفيتامين : مادة قاعدية توجد فى بعض الخضر والنباتات والخميرة والعضلات إلخ ، وهى لازمة لقيام الحياة .

فالجمالُ هو ... هو ... وَىْ ، نَعْرِف كُلُّنا ما هو الجمال ! » .

ويَضْحَك الجميع، ويُبْصِر الوَلَد اضطرابَ أُمِّه فيلْصَق بها كَمَنْ يَوَدُّ أن يَحْمِيَها .

الموسيقية : « الحقُّ مع جُون ، فهذه التعاريف لا تؤدى إلى غير تقييد الخيال ، ولا تساعد على أىِّ شىء كان » .

الفيلسوف : « ولاسيما عند الكلام حول تلك الموضوعات ، وآيَةُ ذلك ما تَرَوْنه فى المَوْسُوعات ، فإذا بحثتم فى إحداها وَجَدْتم مِنْ فَوْركم قُطْر الكُرَة الشمسية وحرارتَها و بُعْدَها من الأرض وما إلى ذلك من عَشَرات المعارف النافعة الأخرى ، وذلك من غير أن تتَعلموا شيئاً عما يَقَعُ تحت أبصارنا ، ومثلُ هذا ما تَجِدونه من المعارف عن عظماء الرجال ، ولِلْعَظَمة عِدَّة وجوه مع ذلك ، وللعظمة من المناظر بعدَد ما لها من ألوان ، والعظمةُ تتَحدَّى كلَّ تعريف ، وكان غُوته قد شبَّه العبقريةَ بالآلة الحاسبة ، فإذا ما أُدِير مِرْفَقها أَسْفر هذا عن جواب صحيح ، ولكن مع جهلها الكيفيةَ والسَّبَبِيَّة » .

دُولِى محاولةً إلقاء الفيلسوف فى الشَّرَك: «إذَنْ، تزْعُم أن العظمة ليست غيرَ شعور».

الفيلسوف : « العظمة أقلُّ من هذا وأكثر ، وذلك لأنها تُوجَد بغير مشاعرنا ، ويَنْدُر أن تُصِيب أبعدها غوراً فى الواقع » .

رجلُ العمل بأسلوبه الرَّزين : « والآن ، أىُّ الرجليْن أعظمُ من الآخر ؟ أنابليون أم هتلر ؟ » .

الفيلسوف : « نابليون ، لا هتلر ، لا ريب » .

دولى : « قد يكون شعورنا هكذا لأن هتلر عَدُوُّنا ولأن أبناءنا حُمِلوا على ترك أوطانهم بفعله ، وكيف تستطيع أن تُثْبت أن هتلر ليس عظيماً ؟ » .

نَهَض الفيلسوف قليلاً ونَزَع مِنْظَارَه ومَسَحه ، ثم وَجَّه نَظَره إلى البحر جمعاً لأفكاره وتقديراً لاستحقاق السؤال جواباً أَوْ لا ، ثم قال :

« لم يعْرِف هتلرُ غيرَ التخريب ، ويخالفُ الصوابَ فى زماننا طَمَعُه فى أن يسيطر على العالم شعب واحد ، وتَجِد فيه احتياجاً مَرَضِيًّا إلى الظهور سيداً للدنيا ، وهو ضعيف يَنْتفخ سَتْراً لعدم أَمْنِه ، ولن يبقى منه شىء » .

رجلُ العمل يسأل بجِدٍّ : « أَلاَ تَقْدِر أن تقول ، أيضاً ، إن نابليون لم يَرْغَب فى غير التخريب ؟ » .

الفيلسوف : « إن أول عمل صَنَعه نابليون فى ليلة انقلابه هو تأليفه لَجْنةً لوضع قوانينَ جديدةٍ ، وهو لم يأتِ بالفَوْضَى ، بل قَضَى عليها ، ولا تزال قوانينه نافذة فى غيرِ بلدٍ بعيد حتى بعد مرور مئة وخمسين سنة » .

الموسيقيةُ تسأل بصوتٍ يائس: « إذَنْ ، تَقُوم عظمته عندكم على تلك المجموعة من القوانين ؟ » .

الفيلسوف : « أَرَدْت ، فقط ، أن أُبيِّن لكم السبب فى أن هتلر يَتْرُك خَلْفَه الفوضى ، لا القانونَ ، وانظروا إلى صورته ، ثم انظروا إلى صورة نابليون ، تَعْرِفوا كلَّ شىء ! » .

دُولِى تسأل بحِدَّة : « تعتقدون أن سِرَّ عظمة الرجل فى ملامحه إذَنْ ؟ » .

الفيلسوف : « أَجَلْ، إن الملامح تدلُّ على العظمة ، ولا يكذب الرأسُ والملامح أبداً ، وتكفى رؤوس نابليون والإسكندر وقَيْصَرَ ودانْتِى وبِتْهُوفِن للإيحاء بالعبقرية لدى العارفين » .

رجل العمل مُصِرًّا : « ولكن ، لنَفْرِض أن نابليون لم يَسُنَّ تلك القوانين ،

ولكنه خرَّب كجنكيزخان ، فترَوْن ، إذَنْ ، أن الأفكار هى التى تُعيِّن سَيرَ الرجل وتجْعله عظيماً ؟ » .

الفيلسوف : « ليست الأفكار ، ولا القوانينُ نفسها ، هى التى تُوجب ذلك ، فإذا لم نرَ الاعترافَ بالعظمة لسوى الذين يبتدعون بعض الأشياء الدائمة لم نَجِدْ من أولياء الأمور من هو عظيم ، وذلك لِما يعتور فتوحَ وَلِيِّ الأمر من ضَياع وما يعتور دولته من تقسيم وقوانينَه من تبديل وأفكارَه من رَفْضٍ ما لم تَدْخُلْ فى مَنْطِق الأمور ، وما هو الأمَد الذى تُضْمَن فيه عظمةُ وليِّ الأمر ؟ خمسون سنة ، مئةُ سنة ، ألفُ سنة ؟ ليست العظمةُ فى دَيْمُومة العمل ، فليس هنالك عَمَلٌ دائم » .

الموسيقية بصوتها العَذب : « انظروا إلى البحر تُبْصِرُوه ذهبيًّا بأَمْره » .

دُولِي غيرَ صابرة : « أَجَلْ ، أَجَلْ ، إن هذا رائع ، ولكن اسْمَعوا لصديقنا وقولوا لى : أَوَلَمْ يَقَعْ فى شَرَكِ نفسه ؟ » .

جُون ضاحكًا : « لقد خَرَجْت من شَرَكِى مُقَدَّماً لاجتنابى كلَّ تعريف ! » .

رجلُ العمل : « وإذا كانت أعمال أولياء الأمور تزول فماذا يَبْقَى منهم إذَنْ ؟ ولِمَ نَدْعُو الملكَ أو الرئيسَ بالعظيم دَوْماً ، حتى بعد قرون ، حين تَغْدُو دولته ويغدو بَدَنه أثراً بعد عَيْن ؟ » .

زوجتُه موافقةً : « هذا هو الصواب ! وَلِمَ نتكلم عن عظمة بضعة ملوك دون المئات منهم ما دام كلٌّ واحد منهم قد شَقَّ طريقه فى العالم عن أَثَرةٍ خالصة أو عن غرور ؟ » .

الفيلسوف : « ذلك لِما أبداه أولئك القليلون من شخصية ، فليست المعاركُ التى كَسَبَها أولئك الرجال ، ولا الولاياتُ التى فتحوها ، هى التى ظَلَّت باقية ، وما تعنى

لدينا معركة فرسالوس[١] أو معاركُ السِّنْد[٢] أو معركةُ أُسْتِرْلِتز[٣] ؟ لا شىء فى نظرى ، ومع ذلك لا يُسْحَر حَمَلَةُ الديموقراطية الأمريكيون بأكثرَ مما بالطُّغاة والجبابرة كقيصرَ ونابليونَ على حين يجب علينا بالحقيقة أن نزدريَهم ونَفْضَح ذِكْراهم ما دمنا نكافح خلفاءهم الحاليين » .

دُولِي صائحةً : «هذا هو الصحيح ، فقد كانوا ، ولا يزالون ، أوغاداً مُخِيفِين!»

الموسيقية بحماسة كبيرة : « لا أعتقد ذلك ! » .

الفيلسوف : « انْظُر إلى من يدافع عن ذوى السلطان أولئكَ ! إليكَ هذه المتفننةَ التى لا يَلوح لنا ما يَرْبِطها بهم ! وَلِمَ ذلك ؟ ذلك لأنها تَشْعُر ، كامرأةٍ ، بقوة شخصية الرجل ، هى قد أبصرت فى صورة نابليون ما تَدُلُّ عليه نَظْرته ، هى قد قرأت فيها ما كان له من تأثير فى رجاله ، هى قد اذَّكَرَت جملةً أو جملتيْن من خُطَبه ، هى قد اذَّكَرَت بعض الأقاصيص عنه ، هى قد شَعَرَت بأن حياته كانت " قصيدةً " رائعة كما وَصَفَها بنفسه فى أواخر أيامه ، هى قد نَسِيت موت مليون من الرجال تحقيقاً لغاياته ، هى قد ذَهَب عن بالها أنه تَرَكَ فرنسة أصغرَ مما كانت عليه حين قَبَض على زمامها وأَفْقَر فأغضب ذلك معاصريه ، ولكنَّ عِظَمَ فكرته فى إقامة أوربة مُوَحَّدَةٍ ، وإقدامَ بصره الأساسيِّ بفُتُوحه وسرعةَ البتِّ فى قراراته ، والبأْسَ الذى تذرع به فى إيقاده ستين معركةً وقيادته لها بشخصه ، وإيمانَه بطالعه الذى أَمْسَكه سنين كثيرةً ، ولهجةَ رسائله الغرامية ، ووَحْيَ عبقريته الذى حَفَزه

---

(١) فرسالوس : مدينة قديمة فى تسالية من بلاد اليونان تم النصر فيها لقيصر على پومپى فى السنة الثامنة والأربعين قبل الميلاد — (٢) السند : نهر من أنهار الهند يصب فى بحر عمان وقد عبره الإسكندر فخضع له كثير من ملوك الهند فى القرن الرابع قبل الميلاد — (٣) أسترلتز : قرية فى مورافية قهر فيها نابليون النمسويين والروس سنة ١٨٠٥ .

إلى أخذ التاج من يدَى البابا وتتويجه نفسَه بنفسِه ، وما إلى ذلك من عشَرات الوقائع ، كلُّها أمور تُوصَفُ بها عَظَمة الرجل المعروف بنابليون فتَجْعَلُ منه بطلاً ، ولنا أن نُغْضِىَ عما فى حياته من تحَلُّل خُلُقِىّ لتَعَذُّر وَقْف رجلٍ ذلك مَدَى طبيعتِه عند حَدِّ المبادئ الخُلُقية كوقف أسَدٍ فى بيت عنكبوت .

المعلمة بعناد : « ولِمَ لا تُطَبَّق المبادئُ ذاتُها على هتلر ؟ » .

الفيلسوف : « ذلك لأنه لا يُعرَف عنه كلمةٌ أو منظر أو حركة تَحمِل طابعَ العظمة ، فلا تَجِد أحداً من المُعْجَبين به من روَى ذلك عنه ، وهذا لأنه لا يزال ، لأنه كان كما نستطيع أن نقول تقريباً ، حقيراً صغيراً ، ، حتى إن أعداء نابليون قالوا عنه أشياءَ كبيرةً ، أَفتَعرِفون ماذا صنع ذات يومٍ حينما كان يصطاد فمَرَّ أمام كُوخ شاتو بريان ، هذا الشاعر الذى كان قد نفاه ؟ لقد قَطَع غُصْناً من الغار ومَدَّه أمامَ باب عَدُوِّه ذلك ووَضَع عليه قُفَّازه ، أوَ تَعرِفون ماذا صَنَع عند ما أنجبتْ له زوجته بوارث عرشه ؟ قال له الطبيبُ : " إننا لا نَقْدِر على إنقاذ الأمِّ ما لم نُضَحِّ بالولد " ، فاسْمَعْ جواب الإمبراطور نابليون الذى لم يتزوج ثانيةً إلَّا ليُرْزَقَ وارثاً لعرشه : " أنقِذ الأمَّ فى بدء الأمر " ، فأمورٌ كهذه شاهدةٌ على عَظَمته أكثرَ من جميع معاركه ، ومما يَزيدها رَوْعةً فى النفس صدورُها عن محارب وعن رئيس » .

ويَقتحم رجلُ العمل بنفسه فى الأمر فيقول : « ولكن افترضوا ، افترضوا أن جنكيزخان كان ذا أحلام وأفكار ومشاعرَ كبيرةٍ كتلك ! » .

الفيلسوف : « إذَنْ ، كان سيِّء الحظ ، وذلك لأن تلك الخِلال لم تَصِل إلينا ، حتى إننا لا نَعرِف أمرَه معرفةً صحيحة ، وقد كان الإسكندر من الحكمة ما استصحب معه فى مغازى فُتوحه فريقاً من الرُّواة والمؤرخين الذين لولاهم ما أصبح

يُلقَّب بـ « الأكبر » ، ولو أبصر قيصرُ نشَراتِنا والوَجْهَ الذى نُسَجِّلُ به للذراري رِحْلَةَ رئيس للوزراء لجُنَّ من الحسد » .

دُولِى صائحةً : « إذَنْ ، تقوم المسئلة على الإذاعة ! » .

الفيلسوف مُصَحِّحاً : « ذلك هو عكس الإذاعة ، ذلك هو الصِّيتُ ، وما يبْدُو اليومَ أو غداً فيمكن كلَّ واحد أن يبتاعه ، ولذا يُنسَى بعد بضع سنين مَنْ يَلُوح اليومَ كبيراً ، بَيْدَ أنه إذا مضى مئةُ عام ، أو ألفُ عام ، فخرجَت أُسطورةٌ رائعة من القِصص القائمة توقفت الشهرة على تلك الأُسطورة حيثُ تُقرِّرُ شُهْرة رجل الماضى أو يُنْزَعُ منه حَظُّه فى عَدِّه عظيماً » .

رجل العمل : « المَغْنطيّة(١) تُقرِّر العظمة أكثر من الأفعال إذَنْ » .

الفيلسوف : « ليست المَغْنطيَّة عَظمةً ، وإنما تُوجِّه أبصارنا إلى منابعها كعصا السحر ، ومن الناس من يتّصفون بالمَغْنطيَّة فتَجِدهم عاطلين من العظمة ، ولكنك لا ترى عظيماً مُجرَّداً من كلِّ مَغْنطيَّة ، وهذا ما يُعيِّن أمرَ الشخصية ، وما عليكم إلا أن تقرءوا ما كتبه ألصق الرُّقباء بجفرسُن(٢) ولِنْكُولُن عنهما لتَروْا ذلك » .

دُولى تقاطع فتقول صاخبةً : « أستحلفك بالله أن تقول لنا لماذا تتحدث عن قدماء أولياء الأمور أولئك بلا انقطاع ، كأنه لم يظهر متفننون عظماء ؟ » .

الفيلسوف : « يَسِير بنا هذا إلى حقل آخر ، فوَصفُ المفكرين أو المصورين أو الشعراء الذين يَترُكون من بعدهم آثاراً باقية بـ " العظماء " أسهلُ من وَصف أولئك الرجال الذين يُعبَّر عنهم بأعمال زائلة ، وكلُّنا نجهل أوميرُس إلَّا ما كان مِنْ عبقريته عند ظهوره بالحقيقة ، حتى إننا عند عدم معرفتنا شيئاً عن شكسبير أو مُوزار

(١) Magnetism — (٢) جفرسن : هو الرئيس الثالث للولايات المتحدة (١٧٤٣ – ١٨٢٦) .

نَجِد أنه لم يَبْقَ منهما ومن أُوميرُس فى النفس أقلّ من أثر رجال من العظماء غير معلومين ، ولو انتهت إلينا مُغْفَلةً ألحانُ شُوبر المعروفةُ بالأُغْنِية وألحانُ بتهوفن المعروفة بالرُّباعِيَّات لقلنا عن مبدعيْها إنهما من عظماء الرجال كما نقول عن الجندىِّ المجهول ، أَجَلْ ، يَكْشِف لنا ما نَعْرِفه من حياتهما عن أمور كثيرة ، غير أن هذه المعرفة لا تزيد ولا تُقَلِّل شيئاً من قيمة آثارهما ، وللمتفنن المبدع مصيرٌ غيرُ مصير المُقَلِّد ما دام شخصه يتوارى خلفَ أثره ، ويعيش الموسيقار الكبير أو الممثل بشخصه ويزول بزوال شخصه تماماً ، وبين كبار الموسيقيين الذين عبَدهم معاصروهم لا نرى مَنْ عاش مع القرون غير باغانينى (١) ، وذلك لأنه ترك أسطورةَ ساحر وراءه ، ولأن النساء كُنَّ يُغْمَى عليهن عند سماعه ، ومواهبُ كازانوفا الغرامية وحدَها هى التى خَلَّدته » .

وتُصْغِى الفتاة الموسيقية إلى الكلمات الأخيرة هذه باهتمام فتسأل :

« إذَن ، ليست عظمة الإنسان وَقْفاً على من يَقْضى حياة ملائمة للأخلاق ؟ » .

الفيلسوف صارخاً : « كلاَّ ! ، هى ليست وقْفاً عليه » ، وعلى ما بين المرأتين من تباين وَجَدَتا سكينة فى هذا .

الفيلسوف مستأنفاً كلامه : « لا مِراء فى وجود عظمة خُلقية ، ولكن العظمة ليست خُلقية بحُكم الضرورة ، وهى على العكس كما فى الغالب » .

رجل العمل : « إذَنْ ، أنت لا تقول عن الرجل إنه عظيم لأنه يَسير وَفْقَ الوِجْدان والواجب ، وذلك كموظف اللاسِلْكىّ الذى يَظَلُّ مواظباً على عمله فى الباخرة المنسوفة بالألغام حتى غرَقِها . . » .

(١) باغانينى : كمانى إيطالى (١٧٨٤ – ١٨٤٠) .

الفيلسوف : « إذا شِئْت فقُلْ عنه إنه بَطَل ، ولكنه ليس " عظيماً " أبداً ، حَقًّا هنالك أبطالٌ كثيرون ليسوا من العظماء وعظماءُ كثيرون ليسوا من الأبطال ، فالجندىُّ الذى استطاع بجسارته ومهارته أن يُنْقِذ ثمانين جنديًّا من زملائه فى دَنْكِرْك ، وإن كان جديراً بأن يُعلَّق على صَدْره وِسَامٌ وأن تُنْظَم له أُنْشُودة وأن يُقام له تمثال ، لا مكانَ له فى مَعْرِض العظماء » .

دُولى بصوت عالٍ : « فيك تَعَصُّبٌ لِما هو ذهنىٌّ ، أنت لا تعترف بغير العظمة الذهنية » .

الفيلسوف يَرْفُض ذلك بعُنْف قائلاً : « إنى بعيد من ذلك ، ليس الذهن هو الذى يَخْرُج ظافراً دَوْماً فى مكافحة الأعمال ، ولا نَعْرِف غير القليل عن ماركوس أوريليُوس (١) عند النظر إليه كإمبراطور رومانىّ فقط ، وتقوم عظمته على " تأمُّلاته " وعلى كتابتها من قِبَل رجلِ أفعالٍ فقط ، وإذا ما صَدَّقْنا أفلاطون وَجَدْنا سولون (٢) أشدَّ عبقريةً من أوميرُس لو لم يَقِفْ نفسَه على الحُكْم فى أثينة ، وما نَعْرِفه من قليلِ علمٍ بالإسكندر كمفكر ليس سبب عظمته مع ذلك » .

الموسيقية بلطف : « غير أن الإسكندر كان ظريفاً » .

صديقتُها صارخةً : « كان ظريفاً ! حقًّا أنكِ تَسيرين مع خيالك ، لو نُظِر إلى الأمر من هذه الناحية لكان كلُّ ممثل سِينمائىّ شابٍّ رجلاً عظيماً ! » .

الفيلسوف ضاحكًا : « هذا ما يعتقدونه ، ولكن الفاتح إذا كان ظريفاً كما كان

(١) ماركوس أوريليوس : إمبراطور رومانى (١٢١ – ١٨١) – (٢) سولون : مشترع أثنى وأحد حكماء اليونان السبعة (٦٤٠ – ٥٥٨ ق . م) .

الإسكندر بَدَتْ ناحيةٌ من عظمته بالفعل ، وأَعَدَّ بذلك حتى الألحانَ الموسيقية التى ترنم بها فى حياته » .

الصبىّ : « ومن هو الإسكندر ؟ » .

الفيلسوف : « أتسمعون ؟ هو يُنْصِت لأنه سَمِع كلامنا عن رجل ظريف » .

رجلُ العملِ مستفهماً : « أأَفْترِض ، إذَنْ ، أنكم تزْعُمون عدمَ وجود رجل عظيم دَمِيم معاً ؟ » .

الفيلسوف : « كلاَّ ، فكثيرٌ أولئك الذين هم من هذا القَبِيل ، فانظُروا إلى تمثالَىْ ڤولتير ودانتى النصفيَّيْن تَقْرءوا فى وجهيْهما بعضَ ملامح العبقرية ، وفى دَمامةِ سقراطَ تَجِدون من العظمة ما تَجِدون فى جمال بِرِقْليس[1] » .

نَهَض أولئك وساروا بتؤدة على الشاطئ عند غروب الشمس ، وفى الحين بعد الحين كنتَ تُبْصِر الصبىَّ يَرْكُض أمام الجميع ويتأخر عنهم ، ولكنه كان يعُود إلى يَد والدته على الدوام .

الفيلسوف : « الشمسُ تَغْزوهم بأسْرهم ، الشمس تَغْزو جميع العظماء ، ومن المحتمل أن كان ذلك لِما يلوح من مَوْت كلِّ نهار ومن بَعْث كلِّ نهار » .

رجل العمل مُتَّزِناً : « دَعُونى أُلخِّص ، لقد بَيَّنْتم حتى الآن أن رُوح البِناء هى النامية لدى ولىِّ الأمر وأن روحُ الإبداع هى النامية لدى المتفنن ، ففى الحال الأُولَى ، لا فى الثانية ، تَرَوْن الفَضْل للشخصية ، فما الذى يُعيِّن ، إذَنْ ، عظمة المُمهِّد والرائد والمُبْدِع ؟ » .

(١) برقليس : خطيب أثينة وقطبها السياسى المشهور (٤٩٩ — ٤٢٩ ق . م .) .

دُولى صائحةً : « الحقُّ بجانبك ، والآن نَمْسِك بتلابيبك[1] » .

ضَحِك الجميعُ ، حتى الفيلسوفُ الذى أجاب بعدئذ عن ذلك بهدوء قائلاً : « الشخصية ، وماذا تَرَوْن غيرها ؟ ولِمَ غدا كُولُنْبُس[2] ، لاڤاسْكُودُوغاما[3] ، رجلاً عالَميًّا ؟ لو كان أولُ من نَزَل إلى سانْدُومِينْغُو نَكِرةً لوجدتَ فيها تمثالاً حَجَرِيًّا بارداً مكتوباً عليه : " ... مكتشف أمريكة " ، وما كان كُولُنْبُس لِيَبْدُوَ صورةً حَيَّة معروفة لدى كلِّ واحد من أبناء الدنيا إلا لشخصيته وتاريخه الرِّوائىِّ ، وما كان ذلك الولد الفقير الذى يَتَكَسَّب بضعةَ دَوانيقَ على الأرصفة ، وما كان ذلك الفتى الذى يَقْصِد أقاصِىَ البلاد حاملاً أحلامَه العجيبة ليجتذبَ الناس بعناد إلى خِطَطه الخيالية مدةَ عشرين سنة ، وما كان لِيَفْتِن فى نهاية الأمر أقوى مَلِكة فى عصرها فتُضَحِّىَ هذه المَلِكة بجواهرها فى سبيل ذلك الغريب وتُسَلِّم سُفُنها إلى ذلك الأفَّاق واعدةً إياه باللَّقَب والثَّراء ، وما كان من سَفَر ذلك المغامر إلى ما وراء البحار وكَشْفِه أرضاً وجَهْلِه أنه اكتشفها ومن عَوْدته إلى ذلك البلد الذى أصبح فيه شريفاً كبيراً ، وما كان من فَضْحه ووَضْعه فى سجن مُظْلِم حيث قَضَى نَحْبَه مُوثَقاً بالأصفاد[4] مجهولاً جاهلاً لِما أنجز ، فقِصَّةٌ عَيَّنَت عظمتَه ، فقصةٌ يُتَوِّجها الضلال ! »

الموسيقية : « وَلِمَ ؟ فأنت شاعرٌ ! » .

الفيلسوف مبتسماً : « أرجو ألَّا أكون شاعراً ، وذلك لأننى أبحث عما هو مخالف للشعر ، لأنى أبحث عن الحقيقة » .

دُولى صاخبةً : « أجَلْ ، أجَلْ ، ولكن رُوَّادنا ! أتودُّ أن تقول إن رُوَّادنا لم يكونوا من العظماء ؟ » .

(١) التلابيب : جمع التلباب وهو ما يعرف بالطوق — (٢) كولنبس : مكتشف العالم الجديد (١٤٥١ — ١٥٠٦) — (٣) فاسكودو غاما : ملاح برتغالى اكتشف طريق الهند (١٤٦٩ — ١٥٢٤) — (٤) الأصفاد : القيود .

الفيلسوف : « هم كانوا من الرجال البارزين ، وليس أيٌّ واحد منهم ذائعَ الصيت فى العالم كلِّه مع ذلك ، وليس لأحد من الرُّوَّاد الذين كانوا يَخْشَوْن الله ففتحوا هذه الأرض المباركة ، من الشُّهْرة مثلُ التى تَحُفُّ حتى اليوم بالأشرار وذوى الشؤم من الفاتحين الإسبان » .

رجل العمل مقاطعاً : « إذَنْ ، تَعُدُّ الشهرةَ مساوية للعظمة ؟ » .

الفيلسوف : « إن الذى أقوله هو أن الشهرة مع الزمن ، أى فى غُضُون القرون ، تُعيِّن مقام صاحب الشأن نهائيًّا،وما كانت عبقرية الفرد لتُنْسَى إلا فى جيل أو جيلين ثم تُكْتَشَف، فهنالك ينال الفرد حقَّه ، هذا ما حدث لكوبرنيكوس(١) وغاليلو(٢) اللذيْن عُدَّا فى بدء الأمر من الدَّجَّالين ، وهذا ما حَدَث أيضاً لبيزه(٣) نفسِه ولكثير من المتفننين والأنبياء ، وما أكْثَر ذوى النفوس الخصيبة الذين نالُوا إجلالاً عظيماً من قِبَل أبناء جيلهم ثم نُسُوا فيما بعد، وما أكْثَر الذين لم يُبَجَّلوا من قِبَل جيلهم فبَجَّلهم الجيل التالى ، وهذا يُفسِّر السبب فى العُزْلة التى يَنْشُدها ، دوْماً ، مَن هم فى الصفِّ الأول ، حتى مَنْ هم من رجال الحياة العامة ، على حين يَفِرُّ منها من يأْتُون فى الصفِّ الثانى، وقابلوا بين وجه شارْلكِن(٤) وخُلُقه ووجهِ معاصرهِ سِزار بُورْجيا(٥) وخُلُقه تَبْدُ لكم درجةُ اعتزال أقوى ملوك عصره ذلك ودرجةُ ما كان يسعى إليه نغيلُ البابا اللامعُ هـذا من الفخر والهُتاف ، وارْجِعوا البَصَر إلى ملامح

(١) كوبرنيكوس : فلكى بولونى مشهور (١٤٧٣ – ١٥٤٣) – (٢) غليلو : رياضى طبيعى فلكى إيطالى مشهور (١٥٦٤ – ١٦٤٢) – (٣) بيزه : ملحن فرنسى (١٨٣٨ – ١٨٧٥) – (٤) شارلكن : ملك إسبانية وإمبراطور ألمانية (١٥٠٠ – ١٥٥٨)
(٥) سزار بورجيا : من أفراد أسرة بورجيا الإيطالية المشهورة ، وقد كان كردينالا سياسيا ماهراً مع مكر وإجرام فمات سنة ١٥٠٧ .

مِيكِل أنجلُو وإلى ملامح حَبْره الأعظم يوليوس الثانى(١) تَرَوْا ما بين العبقرية الفاجعة والعزم الحىِّ من تباين ، ويمكن أن نضعَ بينهما لِيُونَارْدُو دَفِنْسِى وغُوتِه ، أى هذيْن الساحريْن اللذيْن التزما جانب الصمت حَوْلَ أجمل ما كانا يَعرِفان ، فالأربعةُ نالوا نجاحاً باهرًا، وأنتم تَكْتَشِفون لدى كلِّ واحد منهم تلك العُزْلة الثقيلة مع ذلك ، وإن شئتم فقولوا تلك العزلةَ المباركة التى عَرَفها العظماء على الدوام تقريباً ، أو التى ابْتَلَوْها فى بعض أدوار حياتهم على الأقل » .

رجل العمل يسأل : « وما قولكم فى أولئك الرجال الذين عَرَف لهم معاصروهم ما صَنَعوه فى أثناء حياتهم وعَرَفَت لهم الأعقاب ذلك بعد مماتهم ؟ » .

الفيلسوف مسرورًا: « أقول إنهم من ذوى الحَظِّ ، والذى أراه أنكم تفكِّرون، بحكم الطبيعة ، فى مُوزَار ورَفَائيل(٢) بهذه المناسبة ، ولكن لديكم هايْدِن(٣) وغلُوك(٤) أيضاً ، ومع ذلك إذا سألتمونى عن الرجل العظيم الذى كانت حياته أكمل حياة والذى سَطَع على القرون قلت لكم . . . »

الموسيقية ملَقِّنة : « آللورد بايرون(٥) ؟ »

المعلمة سائلةً : « أأغسطس(٦) ؟ » .

الفيلسوف : « كان يمكن ذلك لولا الظلام الذى سَوَّد أواخر أيامهم ، فالرجل الذى أراه ينطوى على أَتَمِّ عبقرية هو تِيسْيان » .

(١) يوليوس الثانى : من البابوات ، وقد توفى سنة ١٥١٣ .
(٢) رفائيل : مصور ونحات ومهندس إيطالى مشهور (١٤٨٣ – ١٥٢٠) .
(٣) هايدن : ملحن ألمانى (١٧٣٢ – ١٨٠٩) – (٤) غلوك : ملحن ألمانى (١٧١٤ – ١٧٨٧) – (٥) اللورد بايرون : شاعر إنكليزى مشهور (١٧٨٨ – ١٨٢٤) .
(٦) أغسطس : إمبراطور رومانى مشهور (٦٣ ق . م – ١٤ ب . م) .

رجلُ العمل قانطاً : « ماذا نعرِف عنه ؟ » .

المعلمة بنَزَقٍ : « إذا كان أمره كذلك فلماذا لم تُؤَلِّف كتاباً عن حياته ؟ » .

الفيلسوف : « حتى لا نُضِيعَه ، ومهما يكن الأمر فهو من أعظم المصورين بين النوع البشريّ ، وهو أعظمهم على ما يحتمل ، وهو فى الوقت نفسه قد عاش كَملك ، وهو قد جعل الملوك يَشْعُرُون بأنه أعلى منهم ، وهو قد كان كاملاً فى الفنّ والحبّ والصيت ، وهو يُذَكِّرنا بالدَّوْح(١) التى تُهَيْمِن على عَوْسَج الغاب ، وترانى فى جميع حياتى ، وبعد أن أَبْصَرْت إفْرِيقِيَّة ، قد رَصَدْت على حافَة غابتنا الخاصة تلك الهَيْئاتِ الهائلة فكان يَتَّفِق لى حيناً بعد حين أن أرى طيراً كبيراً يطير من واحدة إلى أخرى » .

رجل العمل : « وَلِمَ لَمْ تَبْحَث عنهم هنا ، بيننا ، فى بلدنا ؟ » .

الفيلسوف : « وَيْ ، لقدْ بحثت عنهم ووجدتُ عدداً منهم ، فكان أحدهم أعظم مَنْ رأيت » .

دُولِي غيرَ صابرة : « وَمَنْ كان ؟ أَوِيلْسُن(٢) ؟ » .

الموسيقية : « أكان يَدِرْفْسكِي(٣) ؟ » .

رجل العمل : « أهنرى فُورْد(٤) ؟ » .

« هنرى فُورْد ! » هذا ما هَتَف به الصبىُّ ، وقد كان يعرِف اسم فُورْد .

(١) الدوح : جمع الدوحة ، وهى الشجرة العظيمة المتسعة — (٢) ويلسن : رئيس الولايات المتحدة المعروف (١٨٥٦ — ١٩٢٤) — (٣) بدرفسكى : بيانى ووطنى بولونى كبير ، انتخب لرئاسة مجلس الجمهورية البولونية سنة ١٩١٩ (١٨٦٠ — ١٩٤١) — (٤) هنرى فورد : رجل الصناعة الأمريكى المعروف (١٨٦٣ — ١٩٤٧)

سكت الفيلسوفُ بعد أن قال : « عَرَفْت الثلاثة » .

أخذوا كلُّهم يسألونه بأبصارهم ، وقد ظلّ صامتاً قليلَ وقتٍ فَرِحاً بحُبِّهم للاطِّلاع ثم قال :

« لقد كان توماس إدِيسُن(١) » .

دُولِي تَصْرُخ يائسة : « ماذا ؟ ولِمَ تقول إدِيسُن ، أَجَلْ ، له الشّأن فى المصباح الكَهْرَبىّ والحاكِى ، وأظن أنه كان ذا عمل فى السِّنَما ، وفى الإذاعة ولكن . . . » .

الفيلسوف : « لم يكن شأنه فى المصباح الكَهْرَبىّ ولا فى الحاكِى ، وإنما كان ذا شخصية مهيمنة على جميع من يَتَّصِلُون به ، فلما وقع بصرى عليه ، وقد كان شيخاً ، وَجَدْتُ فيه نُبْلاً ، فما كان من جلال رأسه الأبيض المُشْتدّ الذى لم يَحْنه العُمُر ، ومن ضَحِكه الفَتِىّ ، ومن صَوْته الرَّخِيم مع سمع ناقص ، ومن عدم تَصَنُّعه على الإطلاق ، ومن تَهَلُّل(٢) وجهه ، ومن كلّ ما فيه الكفاية عند ما أراه جالساً على الرمل هنالك وقتَ الغروب جاهلاً من هو ، فما كان يَجْذِبنى جَذْباً مَغْنطيأً ويجعلنى أسأل: من هو ذلك الرجل الكامل ؟ هو يبدو كما بَرَأه الرَّبُّ ، ولكن أضف إلى هذا تحقيقَ عظيمِ عمله وتَلَوُّن طَبْعه ، ويَقْرِن خيالُنا صاحبَ تلك الناصية الكبير بجميع الأفعال التى دارت فى خَلَده وبضُروب الكفاح التى غَلَب فيها خصومَه وبأنوار العَبْقرِيَّة التى أضاء بها الدنيا ، ولا تَجِدون مثل هذا لدى أُورڤيل رَايْت الذى كان مخترعاً كبيراً أيضاً ، ولا لدى هَنْرِى فُورْد ، ولا عند يَدِرفْسكى ، ولا عند وِيلْسُن وإن كان هؤلاء كلُّهم قد حَقَّقوا أموراً عظيمة فى عصرنا » .

(١) إديسن : المخترع الطبيعى الكهربى الأمريكى المشهور (١٨٤٧ — ١٩٣١) .
(٢) تهلل وجهه : تلألأ من السرور .

رجل العمل : « وما قولكَ فى پاسْتور[1] ؟ » .

الموسيقية : « وما قولكَ فى دارْوين[2] ؟ » .

الفيلسوف : «هما عظيمان ، ومع ذلك لم يَقم مجدهما على ما اكتشفاه ولا ما اخترعاه ، وذلك لأنك لا تجِد غير شخص من عشرة آلاف من قرأ كتاباً لهما ، بَيْدَ أن اللَّبَن المُعَقَّم (المُبَسْتَر[3]) ونظريةَ داروينَ القائلةَ بتطور الإنسان من القرد مما حرَّك خيال ألوف الناس على حين لم يُعْرف كُوخُ[4] ولامارْك[5] تماماً مع أنهما كانا عظيميْن كذينْك الكبيريْن تقريباً » .

دُولِي مُتأَفِّفَةً هازَّةً كتِفيها : « كلُّ ذلك ذهنيٌّ عندى » .

الفيلسوف مُؤَكِّداً على خلاف عادته راغباً فى ضَمِّ سامعيه إليه ولو لم يُقنِعهم تماماً : « وكيف يكون الأمر على غير ذلك ؟ إن الشمس التى تَرَوْن هى أمر مَرْئِىٌّ ، و إن البحر المحيط الذى تُبْصِرون هو أمر مَرْئِىٌّ ، وإن العناصر التى تلاحظون هى أمرٌ كبير مَرْئِىٌّ ، ولكننا لا نستطيع سوى الإعجاب بها ، وهنا ، على الشاطئ أمام الشمس التى تَغْرُب ، لا نقْدِر على غير الركوع والوَجَل لامتناع العناصر علينا إلى الأبد ، وفى العناصر سُمُوٌّ أكثرُ من أن يكون فيها عظمةٌ ، وأعمالُ الإنسان وآثارُه هى التى تهزُّنا عند ما نتكلم عن العظمة ، وفى هذه الأمور نتأملُ لأن كلَّ واحد منا يكافح من أَجْل غَرَض واحد على مقياس ضيق ، ويَحْلُم الولد المُصْعِدُ ، بأنه سيصبح مديراً فى عشر سنين عند ما قرأ ارتقاءَ لِنْكُولْن ، وما نقوم به من

(١) پاستور : العالم الكيماوى الفرنسى المشهور (١٨٢٢ – ١٨٩٥) – (٢) داروين : العالم الطبيعى والفيزيولوجى الإنكليزى المشهور (١٨٠٩ – ١٨٨٢) – (٣) Pasteurized .

(٤) كوخ : طبيب ألمانى معروف (١٨٤٣ – ١٩١٠) – (٥) لامارك : عالم طبيعى فرنسى معروف (١٧٤٤ – ١٨٢٩) .

مقابلة ومن كفاح ومن خيال فهو الذى يَزُجُّ بنا بين العظماء ، لا النجاحُ الشخصىُّ ، وكلُّ رجل عظيم يغدو مثالًا بأعماله وآثاره ، حتى بحركةٍ تصْدُر عنه ، حتى بكلمة تخْرُج مِنْ فِيهِ ، ما اتَّخذ الألوفُ من معاصريه ومن الأعقاب أوضاعَه مثالاً ، وذلك لِما يكون من تقليده أو من دَفْع إلى السير على غِراره » .

رجل العمل : « نجد انعكاساً من أنفسنا فى معاصرينا على العموم ، ومن هو الزعيم المعاصر الذى تَعُدُّونه عظيماً ؟ » .

الفيلسوف : « لا أقْدِر على الجواب عما تسألون قبل سنة ٢٠٠٠ حين نَعُود إلى هذا الشاطئ ثانيةً لِما قد يكون من تغيير فى المحيط الهادئ آنئذ ، واليومَ يَجْعَل اشتراكُ كثير من العقول تحديدَ النجاح الفردىِّ أمراً صَعْباً ، ومن العسير أن يُعْرَف مَنْ أَبْصَر الخِطَط الأساسية لحرب الإنقاذ الحاضرة ومَنْ وافق عليها ،ولَدَىَّ رَيْبٌ ، ولا أستطيع إثباتَ شىء ، ومن المحتمل أن يُذْكَر ستالِينُ مع بطرسَ الكبير ذاتَ يوم ، وذلك لأنه أكثر زعمائنا إنشاءً ، ولأن الآخرين لم يَصْنَعوا غيرَ الدفاع عن تُراثهم ، وستالينُ وارثٌ سيكْسِفه لِنين مع ذلك ، ولِنِينُ بين رجال العمل هو مؤسسُ دولة مهمة ما دام الشعبُ كالفرد لا يَرْغَب فى غير والد واحد ، وعاصمتُنا تَحْمِل كما ترى اسمَ واحد من أولئك الرجال مع أنك تُبْصِر رجليْن ، أو ثلاثةَ رجال ، كانوا عظماء مثله ، ولدينا فى هذه الأيام أُغْنِيةٌ للزعماء ، وأحسنُ أُغْنِيةٍ هى التى لا يَعْلُو صوت مطرب فيها على أصوات الآخرين » .

دُولِي ضاحكةً صاخبة : «ولِمَ كلُّ هذا الحَذَر بَغْتةً ؟ قُلْ لنا بصراحة : أتَجِد تِشرْشِل ورُوزْفِلْت من العظماء ؟ » .

الفيلسوف : « لا أحدَ يستطيع أن يُجِيب عن ذلك قبل الاطلاع على الوثائق

القاطعة التى لاتزال سِرِّيَّة مع أوراقهما الخاصة أوَّلاً ، وقبل الوقوف على الوجه الذى سيموتان به ثانياً ، فالحياةُ بلا عمل تُختَم به تَظَلُّ كِسْرَة كالتمثال أو الرواية التى تُترَك ناقصةً ، ومن ذا الذى يَعْلَم مستوى العظمة التى كانت تتفَّق لويلسن لو قُتل فى نوفمبر سنة ١٩١٨ ؟ » .

الموسيقية مقاطِعَةً : « تَعُدُّون الموت ، إذَنْ ، جزءاً من حياة الرجل ؟ » .

الفيلسوف : « أَعُدُّ الموت أكثر من ذلك ، فالموت هو المِفْتاح الذى تُعْرَف به حياة الرجل ، وماذا يكون أمرُ يَسُوعَ لولا مَوْتُه الفاجع ؟ » .

رجل العمل مرتاباً : « ترون كلَّ شهيد عظيماً إذَنْ ! » .

الفيلسوف : كلاَّ ، ليسَ يَسُوعُ عظيماً لأنه صُلِب ، وإلَّا وَجَب أن يكون جميع ضحايا النَّازية الأبرياء الذين يُعَدُّون بالألوف من العظماء ، فعظمةُ يَسُوعَ فى أنه تَمثَّل مبدأً عظيماً ، وفى أنه أحياه ، وفى أنه جاد بنفسه فى سبيله أيضاً ، وأعظمُ من ذلك سقراطُ الذى مات بمَحْض إرادته ليكون مَثَلاً مع قُدْرَته على الفِرار ، على حين كان يَسُوعُ فى ذلك غيرَ ذى خِيار ، وقُلْ مثل ذلك عن لِنْكُولْن الذى قُتِل فى وقت كَسَب فيه حرباً عَيَّنَت مقامَه فى قلوب الشعب والأعقاب ، وقد يكون محمدٌ وأفْلاطون وجِفِرْسُن عظماء من كلِّ وجه كأولئك الثلاثة الذين ذكرتُهم ، ولكنهم لم يَتفِقْ لهم من تاج العظمة فى نهاية عمرهم ما اتَّفق لأولئك الشهداء الثلاثة : الإغريقىِّ واليهودىِّ والأمريكىِّ ، بقتلهم من قِبل أعدائهم » .

رجل العمل : « وما رأيُك فى غاندى ؟ أفلم يكن ، هو أيضاً ، نبياً كيسوع ، أو منقذاً كلِنْكُولْن ؟ » .

الفيلسوف : « أَجَلْ ، ولكنه لا يزال حياً ، وهو إذا مات فى أحد صِيَاماتِه

ألَّهَه الهندوس كما أُلِّهَ يسوعُ ، وهو إذا ما خانه الحظُّ فتَسلَّم مقاليد الحكم كان لمُرِيديه قنُوط فى ذلك ، وهو يُعَدُّ عظيماً خارجَ بلاد الهند لابتكاره مذهب عدم العُنْف ، وهو لهذا المذهب يُضاف إلى زُمْرة العظماء » .

دُولِى صاحبةً : « ولِمَ لا تتكلم عن غير الرجال ؟ كأنه لم يَظْهَر من النساء عظيمات ! » .

الفيلسوف : « ذلك لأن العظمة لدى النساء أندرُ مما عند الرجال وأعقد ، وفى التاريخ ترى عظيماتِ النساء مُقيَّداتٍ بأُنوثتهنَّ ، والعاملُ الجنسىُّ فيهن يُقرِّر من العظمة أكثر مما يُقرِّره فى عَبْقريَّات الرجال ، ولنا الأمثلةُ التامَّة على ذلك فى المَلِكات وخليلاتِ الملوك ، فانظروا إلى كَترينة[1] الكبْرى تَجِدُوا تأثُّرها القاطعَ بحياتها الجنسية أكثرَ من تأثُّر عدوِّها فردريك[2] الكبيرِ الذى كان داعراً ومن ثَمَّ أكثرَ ملازمةً للعمل الجنسىِّ من الرجل السَّوِىِّ ، وانظُروا إلى إليزابت[3] الإنكليزيةَ تجِدوها فى غيرِ حالٍ حاسمة قد سارت كامرأة أكثرَ من أن تسير كمَلِكة » .

دُولِى تقاطع بحِدَّة : « المسئلةُ هى : هل سارت كما كان يَجِب ؟ » .

الفيلسوف : « ماذا تَقْصِدين بكلمة " كما كان يجب " ، هى قد سارت على حسب طبيعتها ، ولا يستطيع الرجل العظيم أن يَصْنَع أكثر من ذلك » .

المعلمة مُتَحَدِّيةً : « أفلا ترَوْن بين النساء العظيمات من بَلَغْن من الحماسة ما كان لدى المحارب الصليبىِّ ؟ » .

الفيلسوف : « أَجَلْ ، وُجِد ذلك لدى الشعوب العاطفية كالفرنسيين واليهود

(١) كترينة الكبرى : قيصرة روسية (١٧٢٩ – ١٧٩٦) – (٢) فردريك الكبير : ملك بروسية (١٧١٢ – ١٧٨٦) – (٣) إليزابت : ملكة إنكلترة (١٥٣٣ – ١٦٠٣) .

والروس ، ولـكنه لم يظهر بين الأَنْغلُوسَـكْسُون مثلُ يَهُودِيت[1] وجان دارْك[2] وشارْلُوت كُورْدَاى[3] ، وأُعْجَبُ بالمرأة التى تَرْفَع العَلَم أو تَهُزُّ السيف دفاعاً عن الحرية أكثرَ من إعجابى بالرجل ، وذلك لِما يتطلبه عَزْمها من جُهْد مضاعف ما دام حملُ السلاح ليس من تقاليد النساء » .

الموسيقية : « وما قولُك فى كبْرَيات العواشق ؟ » .

الفيلسوف مبتسماً : « أَجَلْ ، إن المرأتين اللتين فَتَنتا معاصريهن والأعقاب أكثرَ من سواهن على ما يحتمل ، وهما كِليُو باتْرة ونينُون دُولَنْـكلو ، كانتا تتأججان بنار الحبِّ ، ولـكنهما ليستا أعظم من متفننات النساء الأُخْرَيات ما دمنا نَجْهَل شِعْرَ سافُو[4] تقريباً ، ومن النساء من كُنَّ شاعراتٍ ومُصَوِّرات ، ولـكنهن كُنَّ دون معاصريهن مرتبةً ، ولا نَحْـكُم الآن فى أمر المرأتيْن المعاصرتيْن مدام كُورى ومدام شيانْغ كاىْ شِك ، فنحن لا نَعْلَم بالضبط نصيبَهما فى أعمال زوجيهما » .

دُولِى تقول لصديقتها التى كانت مُتَلَهِّيةً ونصفَ مُصْغِيةٍ : « أتسمعين كيف يَعُدُّنا كَمِّيَّةً مُهْمَلة ؟ » .

الفيلسوف ضاحكًا : « أنتنَّ ، بالعكس ، من الطِّراز الأول ، فلأَكْثَر النساء من أسلوب فى الإشْعار بنفوذهنَّ ما لم يَتَّفِق لغير قليل من الرجال ، ولذا ترى احتياج النساء إلى العظمة أقلَّ من احتياجهنَّ إلى الجمال والفُتُونِ والسِّحْر ، وفى كل وقت تُؤَدِّى الشخصياتُ النِّسْويَّة الـكبيرة إلى إلهام قاطع ، ولا نَعْرِف عن هذا

(١) يهوديت : بطلة عبرية ورد ذكرها فى التوراة — (٢) جان دارك : بطلة فرنسية (١٤١٢ — ١٤٣١) — (٣) شارلوت كورداى : بطلة فرنسية قتلت مارا الجبار فى أثناء الثورة الفرنسية (١٧٦٨ — ١٧٩١) — (٤) سافو : امرأة يونانية شاعرة ذات ظرف ظهرت فى القرن السابع والسادس قبل الميلاد .

غير القليل لقضاء مُعْظَم ما يُحَقِّقنه خَلْفَ أبواب مُغْلَقة ، وما يُـكْشَف لنا من نُبَذٍ فيما يُفْشِيه بعض أصدقائهن أو عن غرورهن ، وما كان من تَلَفُّف كليُو باترة الفتاةِ فى بِساطٍ وحَمْلِها لتَخْرُج منه أمام قَيْصَر الذى استولى على عاصمتها هو من ضروب العبقرية التى أشْبَهُها باكتشاف كُولُنْبُس ، لا بخُطْبَة برلمانية من خُطَب اللَّيدِى أَسْتُور ، ويمكن الرجلَ أن يُظْهِر عبقريته جهراً فى كلِّ حَقْل ، ويَنْدُر أن تُعْلِن المرأةُ عبقريتها ما لم تكن ثَوْرِيَّةً ، وما تَمَّ على يد المرأة فى عالَم العمل ، حتى فى خلال السنين الأربعين الأخيرة ، لم يكن باتًّا مع ما نالته من حقوق مساوية لحقوق الرجل ، والمرأةُ ليست عظيمة إلا فى مِنْطَقة الحياة الخاصة فى الحقيقة ، وتزدهرُ عبقرية المرأة كمُغامَرة موائمة على العموم ، ومن أَجْلِ ذلك يَصْعُب كثيراً إحصاء النساء العظيمات حَقًّا ، ومن أجل ذلك أيضاً يُـكْتَشَف النساء فى الروايات والصُّوَر التى تُخَلِّدُهُنَّ فيها عبقرية المتفنن ، وما كان صوت الإلهام ليُسْمَع لدى المرأة إلا فى حَقْل الأُلْفة كذلك الصَّدَف الذى يُوضَع على الأُذن ليُسْمَع به صَوْت البحر » .

الصبىُّ مقاطعاً : « وأَىُّ نوع من الصَّدَف ؟ » .

ويضحكون ، غير أن الموسيقية قد انحنت فاحتضنته وأَرَتْه الشمس قائلةً :

« تَرَى أن الوقت هو وقتُ المساء ، وأن الشمس تقول لنا : إلى اللقاء ! » .

ويَمُدُّ الصبىُّ يَدَيْه إلى النور ويقول بصوت عالٍ :

« قِفُوه ! لا تَدَعوا الشمس الـكُبْرى تَذْهَب ! » .

ذاتَ يـوم

هذا يومُ رجل فَرْدِىّ قانط ، كما فى عشرة أشهر من سنة ، فإذا انتهت الحرب لم يَكَدْ يُدْرَك أمرُه .

نورُ الصباح ذُو فَىْء لكيلا يَبْهَر ، بل ليُحَيِّىَ النائم الذى دخل سَرِيرَه متأخراً على ما يحتمل ، ولذا وُضِع السَّرير على حال يَنفُذ الضياء بها من الجانب ومن خِلال خفيف الستائر ، ومن الكفر بالآلهة أن يُطال الليل بستائرَ قاتمةٍ كثيفة ، وترانى أسِير بنظرى الأول و بخُطُواتى الأولى إلى النافذة ، وقد وَرِثْت هذا الشُّكر السَّحَرِىّ(١) من أبى الذى كان للنور ذا حبّ سِرِّىّ ، وتكون سعادتُنا مزدوجة إذا ما شَعَرنا بها قبل نقصانها ، وأىُّ سعادة أسمى من صِحَّة البدن ؟ وما فائدة أدعى الأفكار إلى العَجَب مع عُسْر الهَضْم ؟ و إذا ما سَرَّحْتُ من خِلال النافذة بَصَرى القاصرَ فى الفضاء الذى لا نهاية له لم أسْطِعْ إدراكَ الدقائق بغير مِنظار ، ولكننى لا أشْعُرُ فى بِضْع لَحَظات بغيرَ سَناء رائع كرَمْزٍ واسع ، ثم أميز بمنظارى ماهو معروف من الألوان والخطوط وأقابلُ بينه فأجِدُنى طَيِّب المزاج ولو نزَل من السماء ماء مادام هذا الماء نافعاً للحديقة .

ألا إن الذى أبْصِر من النافذة منظرٌ مُحَيِّر ، ويقَعُ بيتنا على سَفْح جبل مُطِلّ على بحيرة ماجُور ، وفى الأسفل من بعيدٍ ترَى البحيرةَ راقدةً ، ترَى البحيرة ذاتَ الفُرَض الخُضْر والزُّرْق تجاورها سلاسلُ جبال مُتموِّجَة من الشرق والجَنوب والغرب ، وفى الشمال تَنظُر مُنْحَدراً وَعْراً للجبل ، وقد بَنَيْنا بيتنا على سَفْح الجبل

(١) السحر : قبيل الصبح .

منذ ثلاثين سنة ، وما أكثرَ ما تأملت فى تلك الارتفاعات وتلك الانخفاضات التى يمكننى أن أرْسُمها مُغْمِضاً عَيْنَىَّ ، ويُسْفر تكرار الأمور الملائمُ لأفكارنا عن استقرار فَنِّىّ للعيش مع السنين ، وجبالُ الألْب فى الجَنوب تَميل حتى سُهُولِ لُونْباردية(١) فتَحُول دون انطلاق بَصَرى ، وذلك من غير أن أرى انحدارها إلى السهل وإن كنت أتمثّله قليلاً فقط كما يُنظَر إلى الموت .

وما كان يَتِمُّ لى من هَبّ(٢) فى كلِّ صباحٍ بسويسرة فمن الأسباب العظيمة فى سعادتى ، وما يكون من قدرتى على توجيه بصرى إلى إيطالية ، كما إلى طَرَف قريب خَفِىّ ، فيؤكِّد لى أمرَ أوربة التى أُحِبُّها .

وعلى الشُّرْفة ، فى الأسفل ، كان الكلب السَّلُوقىُّ واقفاً ناظراً إلى نافذتى ، هو قد سَمِعنا فى أثناء الليل ، وكان هَمْسٌ وكان خَبْطٌ لِذَنَبه على رُخام الشُّرْفة كأنه يَوَدُّ أن يقول : « نَمْ مطمئنًّا ، أنا هنا ، أنا أحْرُسك » ، وهذا أمرٌ طيب لِبُعْد البيت والحديقة عن المنازل الأخرى ، وما كان سؤال أحد الجيران إياىَ بصوته الصَّباحىِّ : « كيف حالُك ؟ » إلَّا ليُوجِب فساد نهارى بأسْره خلا صوتِ زَوْجى التى تعْرِف كيف تلائم مزاجى ، وترى الطاهية والبستانىّ عندنا منذ عِدّة سنوات ، وهما يَعْرفان عادتنا فلا يُزْعجاننا صباحاً أبداً ، ومنذ ثلاثين عاماً لم يَبْدُ وجهٌ غريب فى الحديقة شِبْهِ القَفْر وقتَ الصبح ، فلا يُرَى آنئذ ساعٍ ولا حَلَّابٌ ولا خَبّاز ، ولا يَقْدِر أحد على المرور من الباب الحديدىِّ القديم الذى يَسُدُّ أقلّ فُرْجَةٍ فى الصَّوّان ، ولا يستطيع أحد أن يأتىَ فى السيارة من الطريق مادام الكَرَاجُ(٣) مستوراً فى الغابة على مَسافة نحو مئة متر .

---

(١) لونباردية : قسم إيطالية الشمالى وعاصمته ميلانو .

(٢) هب الرجل من النوم : انتبه واستيقظ — (٣) garage .

وفى ذلك المَنْزل الجبلىِّ الفَتَّان تُبْصِر أنواع التجهيزات الكَهْرَبيَّة ، وفى كلِّ صباح يذهب البستانىُّ بالعَرَبة إلى قرية أَسْكُونة القريبة منا فيَجْلِب إلينا جميع ما هو ضرورىٌّ لنا ، ولا يُسَلِّم ما يأتى به البريد أكثرَ من مرة فى اليوم الواحد ، وعلى البستانىِّ أن يَتْرُكه فى المَطْبخ ، وكلُّ عمل ذهنىّ يوضَع للسؤال ، وكلُّ خيال صَباحىّ يُقيَّد عند بَدْء النهار برُسُل العالَم ، لا برُسُل الطبيعة ، ويختلف الرجل الذى يَبْدأ يومَه من ثلاثين سنةً بسماع المِذْياع أو بقراءة الصُّحُف عن الذى يَبْدأ يومَه بنُزْهة فى الحديقة من غير أن يَسْأل عما حدث فى إفْريقيَّة عَشِيَّةً وعن كتابة أصدقائه وأعدائه إليه أيضاً .

وتَقَع نَظْرتى الثانيةُ على شىء أحسنَ من ذلك كثيراً ، فإذا نظرتُ نازلاً من الدَّرج الداخلية أبصرتُ السَّلَّة الواسعة على وَسَط المائدة الكُبْرى فى طَرَف القاعة أو المقصورة ، وترانى أَقِفُ على الدَّرَج دَوْماً لأتمتع بذلك المنظر ، فعندى أن مشاهدة تلك السَّلَّة المملوءةِ فواكهَ على نور الصباح من أعظم نِعَم الحياة ، فتلك السَّلة آيةٌ على كَرَم الأمور وطَعْمِها وحلاوتها ، وإذا حَدَث أن تَدَحْرَجت برتقالة وجَثَمَت بجانب السَّلَّة ، كما فى إحدى صُوَر فيرُونيز(١) ، كان سرورى مضاعفاً ، وغيرُ قليل أن أَضَع برتقالة على ذلك الوجه مُتَمثِّلاً أنها تدحرجت من نفسها .

وإذا تَنَزَّهْت خارج المنزل أمكننى أن أُبْصر فى اليوم بعد اليوم انحراف الشمس نحوَ الشمال وعلى ذُرَى الجبال فعرَفْت أسماء القُرَى التى هى أولُ ما تُنار ، وكلما طَلَعت الشمس باكرةً وزادت عُلُوًّا كَثُر وَجَلى ، فأخشى النُّهُر(٢) الطويلة أكثر من النُّهُر القصيرة لتناقص الزمن مُجَدَّداً بعدئذ .

---

(١) فيرونيز : مصور إيطالى (١٥٢٨ — ١٥٨٨) — (٢) النهر : جمع النهار .

وتقوم حوادث الصباح على تغريد الطيور فى الحظيرة الصُّغرَى والحظيرة الكبرى ، وإذا وقع فى الحين بعد الحين أن رَقد طيرٌ مَيِّتاً على الأرض كان ذلك حادثاً مهمًّا ، وتسأل زوجى بعينيها عن مقدار ما برْعَمَ[1] من الأرْطاسيا[2] فى هذا الصباح ، فهى التى غَرَسَتها ، وهى تَقِفُ منحنيةً حاملة مِسْحاةً[3] صغيرة بيدها ، وفيما هى تَحُلُّ الأرضَ إذ تَنزل خُصَلُ شعرها البِيضُ على وجهها كما كانت تَنزِل أيام كانت قاتمة .

ولا ينبغى لأحد أن يأكل من الغَداء الموضوع عادةً على مائدة من حجر تحت شجرة الكَسْتَناء الكبيرة ، وأتمتع بالحديقة أكثرَ من إصلاحها فأكتفى بالاقتطاف إذا لم أَسْقِها ، ولكننى أَصْنَع هنالك كما أصنع مع كتبى ، فلا آتى بالأعمال ولا أَجْمَع الأزهارَ لأرتبها فيما بعد ، بل ألتقط عِدَّة طاقاتٍ لبعضِ الإناء فى القاعة فتكونُ الواحدة بعد الأخرى ، وفى الربيع أقضى ساعة ، فى بعض الأحيان ، لأملأ اثنى عشرَ إناء ، وما كانت الطاقة لتتمَّ إلا حين تَجِد إناء لها كما تَجِد المرأةُ منزلَها .

ومن الطبيعىِّ أن يَحْدُث قليلُ ضَجر من دَوْس الكلاب لبعض النواحى ثانيةً ، ومع ذلك تَبْدُو الحياةُ لى مستحيلةً بلا كلاب استحالتَها بلا مُوسِيقَى ولا ثِمار ، وما يتَّصف به الكلب من قناعة ورَغْبٍ فى اللَّعْب وشُكرٍ ورَصْد وصَفْح فيجعل منه رفيقاً جديداً صامتاً فى كلِّ خُطْوة ، وأىُّ شىء أشدُّ إثارةً وأكثرُ تأثيراً فى أيام السنة من مكالمة مخلوق لا يَفْقَه ما أقول ولا يستطيع أن يُجيب عما أقول ؟ وإذا مات كلبٌ عن هَرَم أو فى حادث سألنا : « كم شخصاً ممن نَعْرِف مِنَ الآدميين مَنْ أثَّرَ موته

---

(١) برعم النبت برعمة : استدارت رؤوسه وكثر ورقه — (٢) الأرطاسيا : معربة من Hortensia ، وهى نبات زهرى — (٣) المسحاة : مايسحى به كالمجرفة إلا أنها من حديد .

فينا بذلك المقدار ؟ » ، فنرى قِلَّةَ عدد هؤلاء ، وفى ناحية غيرقريبة من المُتَنَزَّه تُبْصِر أسماء الكلاب على لَوْح من رُخام .

وفى هذه السنوات الأخيرة أتاح لنا زوجان أن نأتىَ عِدَّةَ مقابلاتٍ حُلُوليَّة فوَجَدْت كلب الصيد الكبير ، لِنْكُولن ، هو أوفى مخلوق رأيتُه ، وهو قد مات لأن زوجتى عادت وحدها من سياحة طويلة ، ولأنه لم يَعْرِف أننى سأرجع بعد بضعة أسابيع ، ولأنه اعتقد أننى فُقِدْت وأنه كلَّه مُلْكى ، وكان الكلب الأسود الصغير الأَوْبَر[1] ، كُونْغُو ، الرفيقُ لزوجتى ، أذكى الكلاب مُدْرِكًا لكلِّ شىء كالإنسان عارفاً بما حَدَث غيرَ مستنبط أكثر من ذلك ، وقد وَصَفْت كلا الكلبين فى إحدى الروايات .

وللهِرَرَة ، وهى ذاتُ حياة خاصة من غير أن تَعْرِف الصداقة الحقيقية ، تأثيرٌ فى النفس كَصُوَرٍ ونُقط مُلَوَّنة على وِسادَة وَرْدية أو بالقرب من نار ، أو كأوضاع مَسْرَحيَّة عند تَرَصُّدها صِغارَ الطير تحت شجر الغار فتُطارَد بغَضَب ، وتتمثل بتنازع الحيوان فى مثل تلك الغابة الرائعة ما يَقَعُ فى العالَمِ الخارجىِّ .

والمُتَنَزَّه هو غابة كَسْتَناء حَوَّلْناها ، فيَلُوح أنها تريد العَوْدَ إلى حالها الأولى ، وهى تتدرج صاعدةً إلى سفوح الجبال على شكل شُرَفٍ صغيرة تجرى المياه منها رويداً رويداً ، وفى بلد ككَلِيفُورْنية كثيرِ المَطَر يَظْهَر كلُّ شىء مُخْضَرًّا فينمو فيه مثلُ ذلك الشجر ، ويكون لشجر الغار ، الذى عَرَفْت عبادته صَبِيًّا ، كبيرُ أهمية ، ومن شجر الغار غَرَسْت شجرة منذ خمس وثلاثين سنة ، والآن حينما تَحْمِل ثَمَرَها الأسودَ الأزرقَ تقول زوجى ضاحكةً : « انظُر إلى هنا حيث تَجِد إتاوَتَك[2] ! »

---

(١) الأوبر : الكثير الوبر — (٢) الإتاوة : الخراج .

وصِوانُ حياتنا الحقيقُ فى الحديقة التى تستحقُّ أن يُكتب عنها وحدَها كتابٌ فوصفتُها نظماً بالألمانية فى رواية لى ، ويلوح المنزل كجزيرة فى حديقتنا ، ولكن كجزيرة مزخرفة نعيش فى داخلها ، وفى الحديقة انحداراتٌ شديدةُ المَيْل تُقْسَم بها إلى ثلاثة أو أربعة رِقاعٍ ، وترَى البحيرة والجبال من خِلال العريش المستور بالورد مُجَزَّأةً إلى عِدَّة مناظرَ ، ونحن ، حين نُنعم النظر فى الغرانيت ، والغرانيتُ يُؤَثِّر فى النفس البشرية مع الزمن ، نرى عَمَدَه أرخصَ من سوارِى(١) الخشب ، وهى التى تَمُدُّ على العريش بالمتانة ، وما يكون من إمكان النُّزْهة هنالك اثنين اثنين فقط فيدعو إلى المباحثات الفلسفية ، وتَجِدنى ، دَوْماً ، أخشى الساعة التى أقوم فيها بنصف طَوَافٍ لِما يوجبه هذا من نسيان أثمن ما لدينا من برهان ، وأُبصر امرأتى تنحنى فى الحين بعد الحين من أوعر ناحية لتَجْنِىَ البنفسج الأول المزدهر فوق الهُوَّة ، وهنالك فى الغابة ، حيث يَنْبُت الغار والسَّرْو والعُلَّيْق فى جمال ظليل ، تُبْصِر قاعدة من الغرانيت وتُبْصِر عليها تمثالاً نصفياً لبِتْهوفِن من البرُونْز الأسود ، وهذا المنظر مما يُفزِع القادم الجديد كما لو شاهد طَيْفاً .

والصباحُ أروع وقت على الدوام لمَنْحه الإنسان انطلاقاً جديداً فى الحياة ، وكلُّ ما يَطْلُع يجعل الإنسان سعيداً ، فإذا حَدَث فى بعض الأحيان أن أوجبت ريحُ جبال الألْب كَسْرَ شجرةٍ أو حَنْوَ سَمُرَةٍ(٢) ، وإذا حدث أن دِيسَتْ نَرْجِسةٌ ، وجب علىَّ أن أبحث فى الأقاصيص عن أمثلة لتَجِدَ امرأتى فيها من السُّلْوان ما تَجِد .

(١) السوارى : جمع السارية ، وهى عمود السفن عند الملاحين .
(٢) السمر : شجر من العضاه ، وليس فى العضاه ما هو أجود خشباً منه .

ولا أقوم بشؤون زينتى إلا متأخراً ، ومنَ الناس من قد يَسْعَدون على شاكلتهم إذا ما وَثَبُوا من سُرُرِهم واغتسلوا من فَوْرِهم ودَلَكوا أبدانهم وترَنموا وأفْطروا وأَصْغَوْا إلى المِذْياع ، ويلائمنى الانتقال الهادئُ من رُقَاد السرير إلى نُور الفجر لِما لى فى ذلك من حسن ملاءمة ولأفكارى من اتخاذِ وجهٍ ، وإذا عَنَّ لى فكر من تلك الأفكار فى أثناء تزيُّنى كان ذلك عند حَلْق ذَقَنِى ، وتسألنى زوجى بعد فَرَاغى من ذلك قائلةً : « هل بدا لك فكر فى هذا الصباح ؟ »

ويَقَع مُحْتَرَفى فى الحدِّ الغربىِّ الأقصى من المنزل حيث لا يُسْمَع ضوضاء ، ولا ضوضاء المطبخ ، ولا ضوضاء الأولاد الذين لا يُفْترَض طَوَافُهم فى الحديقة مبدأً ، أى من حيث المبدأُ الذى أخالفه مِثْلَهم فى الغالب ، وكلما قام البيت شيئاً فشيئاً وَفْقَ نَشْر كتبى فى غُضُون السنين نُقِل مُحْتَرَفى نحوَ الخلف ، ومُحْتَرَفى لم يُغيَّر منذ خمسَ عشرةَ سنة لتَعَذُّر التَّوَسُّع إلى ما هو أبعدُ مما وَقَعَ ، ومُحْتَرَفى واسعٌ ، وهو خالٍ تقريباً ، وهو غرفةٌ ذات ثلاثِ نوافذَ قُوطِيَّةٍ مُشْرِفَةٍ على شجر السَّرْو ثم على البحيرة والجبال ، وفى طَرَفٍ منه ترى باباً زُجاجياً مُؤَدِّياً إلى قاعة يقوم فى وَسَطها ، بين حجارة الغرانيت والأَعْمِدة ، عينٌ من البرُونْز مطابقةٌ ، مع صِغَرٍ ، لعين فِيرُوكْيُو(١) فى فلورَنْسة ، وهنالك تعيش الحمائم ، ولا أفتأ أراها وأسمعها لنَثْرى من الحبوب هنالك ما يجعلها حَوْلَ محلِّ عملى ، وفى الغرفة تشاهد صورتيْن مؤَثرتيْن ، وكلاهما نَسْخٌ للآلهة ؛ وكلاهما منقول عن الأصل فى البُنْدُقيَّة وفى فِيَنَّة ، أى عن صورة أَرْيانة(٢) لِتنْتُورِيتُو(٣) وعن الـ ١٠ لكُورِّيجْيُو ، وفى

(١) فيروكيو : مصور ومهندس إيطالى (١٤٣٥ – ١٤٨٨) – (٢) أريانة : ابنة مينوس الأسطورية – (٣) تنتوريتو : مصور إيطالى (١٥١٢ – ١٥٩٤) .

هؤلاء الفتيان والفتيات الذين قد يكونون إخوة وأخوات يجتمع كلٌّ ما يمثِّل الجمال والشباب والحبّ ، أى المُثُلَ العليا القديمةَ المُهْمَلة التى أرانى ثابتاً على الوَلاء لها فى هذا الزمن الذى تَسُوده صُوَر الهزْل الغليظة .

وتُبْصِر فوق الباب الزجاجىِّ تمثالاً نصفياً لغُوتِه فى أواسط سِنِيه ، وتبصر فوق هذا التمثال النِّصْفى جِسْراً محفوراً فيه بالحروف اليونانية الكلماتُ الخمس التى يتألف منها أساسُ فلسفة أُورْفِه[1] فكان يَجِد فيها خلاصة حكمته ، وتُبْصِر على أحد الجُدُر ، وفى الظلام ، وفى إطار زجاجىّ ، صفحةٌ أصلية من فَاوْست ، ولا بُدَّ من حَمْل هذه الصفحة إلى حيث النورُ حَلاً لِمَا خُطَّ فيها بالقلم الرَّصاصىّ فذَوَى بفعل الزمن ، ولا تَجِد لدَىَّ خطاً أصليًّا آخرَ لكاتب ما دمت لا أَجْمَع غير الآدميين .

وترى فى الغرفة مقعدَيْن فقط ، وترى الإنسان قادراً على ترتيب أكمل المحاورات فى مثل تلك الغرفة ، وترى على الرَّفِّ الغِرَانيتىّ أدواتٍ بِلَّوْرِيَّةً قليلةً نادرة ، وترى على مائدة « النهضة » الواسعة التى جَلَبْتها من رومة فيلاً عَظْماً مصنوعاً من خَشَب الآبَنُوس[2] فأُخاطبه فى الغالب ، وعليه أُرْكِب الأولادَ الذين تَتَرجح أعمارهم بين السنة الثانية والسنة الثالثة فيزوروننى ، وترى أيضاً خِزانتيْن سويسْريَّتيْن قديمتيْن أحفظ فيهما أوراقى ، وترى جميع ذلك يقوم على بساطٍ أزرقَ أتيتُ به من دِمَشْق فغدا رَثيثاً[3] بعد ثلاثين سنة فيَنِمُّ بذلك على تاريخه الطويل ، وترى استدارته مؤلفةً من أربعَ عشرةَ حاشيةً فيَضِيق بذلك رَسْمُه المركزىُّ ، وترى الغرفة كلَّها زرقاء وبيضاء ، ولا ترى فى الغرفة لوناً أحمرَ ، ولا ترى ورقاً مُلْصَقاً على أىِّ جدار منها .

(١) أورفه : ملك تراكية الأسطورى – (٢) الآبنوس : شجر مثمر عظيم يعظم كالجوز وأوراقه كأوراق الصنوبر معرب واسمه العربى سأسم – (٣) الرثيث : البالى .

ولا تجد فى مُحْتَرَفى كتاباً ، فجميعُ كتبى مجموعة فى مكتبتى ، وتجد فى كُوَّة ذاتِ ستة رُفُوف كتبى التى جُمِعَت فى غير لغة أجنبية والمطبوعةِ مثنى مرة أو أكثر من ذلك ، وأَشْعُر بأن أولادى يَرْقُبوننى من زاويتهم .

ومن المحتمل أن يَضَع البستانىُّ على مائدتى فى هذا الصباح رِزْمَتَيْن كبيرتيْن ، وذلك لأن كلَّ ما هو ضرورىٌّ لدراستى يأتينى من زُوريخ[1] ، ولا بلدَ ، كسويسرة والولايات المتحدة ، يستطيع الإنسان أن يُرْسِل فيه كتُباً إلى الأرياف مطمئناً ، وهكذا لم أَقُمْ بعملى فى مكتبة عامة قطّ ، بل فى منزلى الرِّيفى بعيداً من الجُمهور ، والكتبُ هى التى تأتى إلىَّ على الدوام .

وإذ أننى لا أُطيق وجود كتب حولى عند قيامى بعملى فإننى أتصفحها بما يمكن من السرعة مُقَيِّدًا اختزالاً ما أحتاج إليه عند المطالعة ، وتقرأ زوجى بعض هذه المصادر علىَّ ، وما كنت لأَتَّخِذ ما يُدْعَى بعمل الباحث الذى لا يَعْرِف ما هو مهمٌّ بالحقيقة فيجهلُ إمكانَ احتواء ما على هامش الصفحة أثمنَ الأمور فى بعض الأحيان ، وما كان لمتفنن أن يَرْضَى بعون إنسان غيرِ قريب لنفسه من ذوى الثقافة والمواهب ، ولذا كانت زوجى وحدَها ، ولا تزال ، شريكةَ عملى ، وهذا على مَدًى أوسعَ من نِطاق المباحث البسيطة بمراحل ، ولولا زوجى ما بدأتُ بوضع كتاب من كتبى وما أتممتُ واحداً منها ، ولم أكن بالذى يَطْبَع كتاباً له من غيرِ نَقْدها ، فالحقُّ أنك لا تجد ناصحاً أكملَ من المرأة الذكية التى يتساوق تقديرها بما يُحسّ ، والحقُّ أن قصة ذلك الاشتراك المؤثرة هى روايةٌ أطمع أن أضعها ذات يوم .

ولكنه يجب على الرجل أن يكون وحدَه حتى يَقْدِرَ على الكتابة أو التصوير

(١) زوريخ : إحدى مدن سويسرة .

أو التأليف ما دام لا يتطلب شهوداً على أعماله الغرامية ، والأمرُ هو هو سواء عليه أَكُتِبَ فى بيتٍ متفنن أم فى تلك الحُجَيْرة الرَّهْبانية العصرية التى هى غرفةٌ فى الفُنْدُق ، وليست الغرفة الجميلة مصدرَ إلهام ، بل هى مسئلةُ ذوق .

ومكتبى عارٍ تقريباً ، وفى مكتبى دقةُ نظام ، وفى الوَسَط تُبْصِر إناءً واحداً مُذْهَبًا غيرَ مشتمل على أزهار ، بل على غار ، معتقدًا أننى تحت ظلِّ الغار أُجيد العمل ، وأَضع أمام ذلك الإناء صورةَ البطل ، وقد كان البطل خريطةَ النيل ذاتَ مرة ، وفى بعض المرات أَضع بَطَلِى القادمَ كما لو كنت شاعراً من خِلال غرامى الخائر دُنُوَّ مغامرة جديدة .

ويغدو ذلك البطلُ موضوعَ دُعابةٍ لدى جميع الأُسْرة ، وتَدْنُو حماتى التى هى إنكليزية وتقول لى : « قُلْ لى ، هل مات على الأقل ؟ » .

ويَرْقُد على مخطوطى مِسْمارٌ حديدىٌّ طويل مصنوع باليد يَبْلُغ من القِدَم ثلاثةَ قرون على الأقل . ويشابه المسامير التى تُرَى فى صَلْب قدماء السادة والتى هى موسومة بسِمَة الشذوذ الذى هو من نُبْل عَمَل الصانع ، ولا يتركنى ذلك المِسْمار فى أية رِحْلة من رِحْلاتى ، وتراه بجانبى حين وَضْع هذا الكتاب ، وتاريخٌ روائىٌّ يُكْتَب عن شبابنا فى تلك الغابة يجعل ذلك المِسْمار شيئًا لا يقوم مقامه أمرٌ .

وفى دَفْتر لدىَّ أُدوِّن جميع ملاحظاتى وموضوعاتى اختزالاً ، وذلك الدَّفْتر هو الوثيقة الوحيدة التى لها مكان على مكتبى حينما أكتب ، وكيف يُصار إلى الكتابة عند عدم وجود الموضوع مُقَدَّمًا وعند عدم جَمْع جميع المصادر التى يجب أن يُغْتَرف منها ؟ وهكذا تُبْصر أمام المُصَوِّر نَمُوذَجه وألوانه ونَسيجه .

وناقوسُ الغَدَاء موضوع على الشُّرْفة حتى يُسْمَع صَوْته فى الحديقة كما فى المنزل، وناقوس الغَدَاء يَرِنُّ فى أُذُنَىَّ رنيناً غيرَ مُحَبَّب لَدَىَّ فى الغالب ، وإذا كان الضَّحْو(١) طالحًا(٢) ، وإذا كنت لم أكتب إلا لِأُرَمِّج(٣) شَعَرْت فى أعماق نفسى بأن النداء إلى الغَدَاء هو كصوت المُنْقذ ، ولكن الموضوع إذا كان مالكًا لجوانحى كاد ذلك النداء يَقْطَع إلهامى ، فأطلب أَلَّا يَنْتَظِرنى أحد .

ومتى فُتِح الباب الزجاجىُّ النافذ من القاعة إلى الحديقة الأمامية صارت المائدة البَيْضِيَّة الكبرى فى الخارج تقريباً ، وأَعُدُّ الخَمْر والموسيقى مما يُعْطَى فى المساء ويُحْفَظ لساعات الراحة والرُّؤْيا فلا تُقَدَّم الخَمْر مع الغداء ما لم يكن عندنا ضيوف، ويكون كلُّ شىء فى الغَدَاء حَسَنَ الإعداد جُهْدَ الاستطاعة ، ويكون كلُّ شىء فى الغَدَاء بسيطاً أنيقاً ، ويكون كلُّ شىء مكتوباً على لَوْح صغير أسود ، ولو لم يكن هنالك غيرُ طَبَق رِيفِىّ واحد ، وذلك لِأَعْرِف هل أُقَيِّدُ شهوةَ طعامى أو أُطْلِقُها ، ولا تُهْمَل تلك المائدة أبداً، فلا أُطيق مايُدْعَى بالأُسبوعىِّ ، ويجب أن تَبْدُوَ المائدةُ قطعةَ فَنّ ، فما عندنا من أدوات زجاجية وإناء صينىّ فأحسنُ ما لدينا ، وهو يكفى لإضْفاء رَوْعَة على مأكولاتنا اليومية ، ولِمَ أنتَظِر وجودَ ضيوف عندى حتى أتمتعَ بما هو حَوْلى من الأشياء الطريفة بدلاً من عَرْضها على أبصار مَنْ هم خَيْرُ مَنْ أَعْرِف معى ؟ وفى الغالب تَجِدُون ذَوْقاً فى مُخْتَرَف رَسَّامٍ مُونمارْترى(٤) أَكثرَ مما تَجِدون فى أحد القصور لِما يَسُود الأولَ من الجمال ويَسُود الثانى من السلطان .

(١) الضحو : ارتفاع النهار – (٢) الطالح : خلاف الصالح – (٣) رمج الكاتب : أفسد سطوره بعد كتابتها – (٤) مونمارتر : أحد أحياء باريس .

وأحبُّ الحين الذى أرى فيه رأسَ حماتى يرتفع من حول المائدة نحوى مستقيماً منتصباً كالشمعة فتقول لى لائمة لَوْماً خفيفاً : « لِمَ تأخرتَ هكذا مرةً أخرى ؟ » ، وتعيش حماتى معنا هنا منذ عشرين سنة ، وهى تزيِّن المنزل بمزاجها الاسْكُتْلَنْدِىِّ النَّـكَّات ، وتَدْخُل زوجتى البيتَ من الحديقة لابسةً دُرَّاعة[1] ، ويُتِمُّ الـكلاب والأولاد جَوْقةَ دارنا .

وهنالك ينتظرنى البريد ، ويعترينى حبُّ الاطلاع على مايحتويه مزعجاً زوجتى لبُرُودة عجَّتى ، ومن الغلاف والمظهر أستطيع أن أُخْبِر بما أتانى به البريد ، ولما فى مفاجئة البريد من عدم إيجاب على الخصوص أرانى على حقٍّ إذا لم أُعَرْقل عملى الصَّبَاحىَّ ، فهنالك ناشران أو وكيلان يكتبان إلىَّ من العالَم الخارجىِّ الـكبير فيقولان إنهما لايَدْفَعان إلىَّ قبل ستة أشهر ، وهنالك قُرَّاء يَقُوم مُعْظَمهم بضروب النصائح ويقوم بعضهم بنَقْد نافع ، وهنالك مقالات صِحافيَّة تَمْقُتها زوجتى ناعتةً إياها بـ« المجد الوَرَقِىِّ » ، وأقْرَؤها لاطِّلَاعى بها على قَدْرى فى البلدان الأجنبية .

وإذ لم أَجِدْ ما يَسُرُّ البال من الرفقاء ، وإذ لم أُعَدَّ فى عزلتى الرِّيفية تابعاً لأية جماعة ، ولا لأية نشْرة دَوْريَّة ، فإننى أطمع أن يكون لكتبى من القراء المجهولين لَدَىَّ أكثرَ من القراء المتخصصين ، ومن أسعد الساعات عندى تلك التى آخُذ فيها من بعض أرجاء العالم ما يَـنِمُّ على عُمْق فَهْم لما أكتب ، وأرانى مبالياً منذ ثلاثين عاماً بما يُوَجَّه إلىَّ من الرسائل الخاصة ، ولا سيما المشتملُ منها على نَقْد ، أكثر من مبالاتى بالعُرُوض المطبوعة ، وذلك لصدور تلك الرسائل عن دوافعَ ذاتية لا عن نَمَطيَّة مِهنيَّة ، ومن أمريكة يأتينى أحسن الرسائل .

(١) الدراعة : جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف .

ولا تعتِّم الخطوط المجهولة على الغُلُف أن تُحَلَّل ، ويتلقى الأولاد درساً صالحاً فى ذلك ، وامرأتى خبيرة فى الموضوع ، على حين دَرَسْت الأدمغة فى جميع حياتى واستنبطت منها أُسُسَ آثارى ، وإذا ما دار نِقاش حول موضوعِ خَطٍّ أبصرنا الحلَّ فى الإمضاء بأسفل الرسالة المفتوحة، وترانى على غير حَقّ فى الغالب، وذلك لأننى أَحْـكُم فى الخَطّ كحُـكْمى فى الأشخاص فتجىء النتيجة كثيرةَ المداراة على الدوام، ويُنِير جمال خَطِّ صديقنا القديم الفيلسوفِ لنا السبيل فى بعض الأحيان .

ومما يَرِدُ علىَّ أحياناً أيضاً كتابٌ من ذوى السلطان ، فهنالك تساورنى روحُ عصر النهضة ، فأُصبح مُصَوِّراً من مُصَوِّرى فِيرَارة[1] أو البُنْدُقيَّة[2] ، ونَضْحَك ، وذلك لشعورى نحو عظماء هذا العالم بمثل شعور رُوَّاد إفْرِيقِيَّة المعاصرين حول الفريسة الـكبيرة ، وإن كنا لا نصطاد بالبنادق بل بآلات التصوير ، وكذلك لا أَرْمِى تلك الطيور الرائعة ، وإنما أُنْعِم النظر فيها فأَطَّلع بالقياس على تاريخ زماننا وأَقِف على تاريخ الأزمنة الغابرة .

وقد تُوَجَّه إلىَّ دعوة مفاجِئة من باريسَ أو لندن حول تلك القَنِيصة الضخمة ، فيَرِد السؤالُ الآنى الخاطرَ وهو : هل فى تلك الدعوة ما يَحْفِز إلى ترك تلك الحياة الرِّعائيَّة فيُذْهَبَ يومَ الاثنين القادم إلى هنالك ؟ أو إن من الواجب أن يُتَذرع بالحـكمة فيُقاوم كلُّ ميل إلى الجاه والمال ؟ هذا حسابٌ يُوصَل إلى مجموعه نفسياً ، ويضاف إلى مجموعه هذا شىء إذا كان المرء ذا مزاج جَوّال ، ويُحْذف من مجموعه ذلك شىء إذا كان المرء ذا مزاج مِكْسال .

وفى الماضى كنت أُلَـبِّى الدَّعَوات على الدوام ما دامت الحياة الريفية تدْعُو إلى

(١) فيرارة : مدينة إيطالية — (٢) البندقية : هى المدينة الإيطالية المعروفة بفنيسية أيضاً .

اللهو، وتُحْزم الحقائب ، ويَغْدُو المنزل عَصَبيًّا ، وأذهب وأعود منهوكاً فى نهاية الأمر، ولو لم تكن زوجتى أكثرَ منى عَيْفاً(١) للفساد لقَضَيْت فى العالَم الموسوم بالواسع وقتاً أطولَ مما قَضَيْت ، والثمنُ دَوْمًا كثيرُ الارتفاع للساعات القليلة النافعة ، وإنى ، وإن أُتيح لى أن أشاهد فى تلك العواصم أَدِلَّاء الفكر وأقطابَ السياسة ، لم أَجِدْ فى هؤلاء ما أَجِدُه من فائدة فى دَعَة حديقتنا أيامَ الصيف، وهذا ما تَمَثَّل لى ، ولكنْ بعد الأوان .

وبينما ترى بعضهم يُنْبِئُ حول المائدة بحوادثَ الْتَقَطها من المِذْياع أو عَلِمها من صُحُف الصباح ترى وقوع هذا عادةً على دَرَج الحديقة حيث نتناول ما تَصْنَعه لنا زوجتى من القهوة التركية ، وقد غدا هذا تقليداً بفضل والدى الذى جَلَب من تركية منذ ستين سنة ما كان نادراً فى ذلك الحين من القهوة كما جَلَب من تركية إبريقاً صغيراً لها، ولامَعْدِلَ عن وَضْع هذا الإبريق على طَبَق شرقىّ لما فى الصِّينيَّة(٢) الوَرَقيَّة الصغيرة من الرَّوْعة ، ويجب أن تُصَبَّ القهوة حارةً جدًّا فى فَناجينَ(٣) أصليةٍ رقيقة ، وأجدُنى مَدِيناً لجميع ذلك ما دمت أتمتع بما يُؤْتَى إلىَّ به من المِنَح فى كلِّ يوم ، وقد وَعَدْت نفسى بألّا أُعَوِّدها ما طاب من الأشياء بدرجة الكفاية لكيلا تَعُدَّ ذلك حقًّا مُكْتَسَباً نهائيًّا ، وفى هذا سِرُّ فَنِّ الحياة .

ونرى الهاتف والمِذْياع مزعجيْن فى الحياة الحديثة فلا نَأْذَن فى ظهورهما بيننا متى بَدَا لهما ، بل عند رغبتنا فيهما ، ومهما تكن المكالمة خفيفةً حَيّة لا تَخْلُو من صوتٍ غريب يَقْطعها أو من جواب يَرِنُّ فى حُجْرة مجاورة ، وعندى أن ما فى صوت المِذْياع ،

(١) عاف الشىء : كرهه — (٢) الصينية : طبق يتخذ لتقديم الشىء عليه .
(٣) الفناجين : جمع الفنجان ، وهو إناء معروف من الخزف وغيره ، والكلمة من الدخيل .

وفى صوت الموسيقى أيضاً ، من إيذاء فى حياتنا اليومية، بسبب تحويل المِفْتاح إلى اليمين أو بسبب الغِناء فى غير الوقت المناسب مثلاً ، يَعْدِل اللعنة ، فأودُّ أن أَرُدَّها إلى الشيطان .

وإذا ما أجابت الطاهية كان كلُّ شىء طيباً ، وإذا لم يكن شخص هنالك تَرَكْتُ عَدُوِّى الخَفِىَّ يَرِنُّ دقيقتيْن ، ويَعْدِل هذا العَدُوُّ عن الرَّنين بعد ذلك لا رَيْب ، ولا أكون قد خَسِرْت شيْئاً ، وذلك لأن إنساناً يَتَلْفِن دَوْماً فيسألُنى عن شىء ولو عن زَمَنى ، ولا تَقُلْ إنى أَنْزَعِج بنداء أُنبَّأُ به عن شىء صالحٍ أو شىء نافع ، وعند ما أَرْغَبُ فى الحوادث يأتينى بها ابنى فى الوقت المناسب ، ومن شأنِ تحريك الأصابع المُعْجِز نحو الشمال خُفُوتُ الصوت كما جعلَت عصَا السِّحْر التى حَكَتْ عنها الأسطورة القديمة سِيغْفِرِيدَ(١) أمراً خَفِيًّا ، وفى كليْهما ضمانٌ للعُزْلة .

وفى الأصيل(٢) أَعْمَل قليلَ ساعاتٍ على الدوام ، وفى الأسبوع تجيئنى كاتبةٌ مرتين، وهى تَلْبَث فى غرفتها غيرِ المنظورة فعلاً ، وهى تَجِد أجوبتى المُخْتَزَلة فى سَلَّة ، وفى كلِّ صباح يأتى بستانىٌّ إليها بعشرين ، أو ثلاثين ، صَفْحَةً مُخْتَزَلةً حين نزوله إلى القرية فتَفُكّها وتُحْضِرها إلىَّ مكتوبةً على الآلة الكاتبة، وأُرْسِل الأسئلة المستعجلةَ بَرْقاً بالهاتف ، وكثيرٌ ما أُنْفِقه من المال فى هذا السبيل لرغبتى فى الشَّرَر الكَهْرَبىِّ والأسئلة السريعة والأجوبة الخاطفة ومحادثةِ أقاصى البلدان من قَلْب غابة، ويَعْرِف موظف البَرْق فى المدينة الصغيرة ما أصنع ، فما حدَث أن وَقَع خلاف بينى وبين ناشر ألمانىّ فأَبْرَق إلىَّ يقول إنه سيأتى شخصيًّا لوَضْع الأمر فى نِصابه بدلاً

(١) سيغفريد : بطل أسطورى جرمانى سكنديناقى — (٢) الأصيل : وقت ما بعد العصر إلى المغرب .

من الدَّفْع ، فتَلْقَنَ ذلك الموظف يقول لى قبلَ قراءة الرسالة البرقية : « ها هو ذا يجيء من برلينَ بذاته يا دكتور ! » .

وإذا ما حَلَّ فصل الصيف أخذنا نَتَنَزه بالسيارة فى أحد الأَوْدية بعد كلِّ ظهر، أو نتنزه مرةً أو مرتين فى كل أسبوع على زَوْرَق آلىّ فوق البحيرة ، وقد نَبْلُغ فى سيرنا مدينة لوكارْنو[1] الصغيرة حيث ترَى الحَلَّاق والكَهْربىَّ والحَلْوَانىَّ والطبيب والصَّيْدَلىّ وكاتبَ العدل أصدقاء قدماءَ لنا ، وفى مُعْظَم المرات نَقْضى عصرًا رِعائيًّا مع الأولاد والحيوانات، وغيرُ قليل أن تَنْبِح الكلاب بغتةً فتعترى الجميعَ رَعْشَة، ثم يَبْدُو وجهُ صديق فى الحديقة ويَبْدُو معه جارٌ أو شخص آخرُ يتكلم بلهجة محلية فنثرثر أحراراً فرِحين .

وإذا ما سِرْنا بالسيارة فلِما نَجِده حولنا من جَذْب لنا ، ويكتسب منظر تِيتِينُو، الذى وصَفْتُه عِدَّةَ مرات، سِحْرَه من التضادِّ بين شواطئ البحيرة المزدهرة المُوَشَّاة بالشجر ذى الثمر وبالأَوْدية الوَعِرَة البائرة[2] .

وإذْ قام هنا عالَمٌ ذهبىّ لامع ليكافح تصويرَ امتداد الظلِّ باللَّوْنيْن، الأبيضِ والأسود ، فإنى أُحِبُّ أن أقابل هذا العالَمَ المزدوج بالواضح الغامض لرَنْبرَانْت، وما يكتنف تلك القُرَى الروائية القليلة السكان من الفضاء والانفراد والسكون فيُبْهِجه مزاج أهل البحيرة المَرِح المِهْذار إلى حدّ يَشْعُرُ معه الإنسان بِتَضَادٍّ فى فؤاده من فَوْرِه، وما بين الشمال والجنوب من تباينٍ فذ وتأثيرٍ بالغ فى نفوس أولئك الذين يسيرون بالسيارة فى ساعتيْن من شاطئ البحيرة إلى شِعْب[3] سان غُوتار[4]

(١) لوكارنو : إحدى مدن سويسرة الصغيرة – (٢) البائر : مابار من الأرض فلم يعمر بالزرع – (٣) الشعب : الطريق فى الجبل – (٤) سان غوتار : مجموعة من جبال الألب تبلغ أعلى ذروة فيها ٣١٩٧ متراً .

ويَمُرُّون من نَوَامى جبال الألپ إلى سواحل البحر المتوسط كما لو وَدُّوا تكرار تاريخ عصور الأرض الأولى ، وقد أسفرت الحواجز الصخرية الوَعْرَة ووفْرُ مياه المطر عن جعل جَنوب سويسرة قُطْرَ شَلَّالاتٍ على أحسن ما يُرَام ، وحيثما تركتم السيارة أمكنكم فى أثناء نُزَهٍ وَئِيدة تقومون بها مَشْياً على الأقدام أن يتفق لكم أروعُ التجاريب .

وحافَظ أهلُ ذلك الشاطئ الذى قَضَيْنا فيه حياتنا على بساطة فى الطبائع يَنْدُر وجودها فى عصرنا ، وهنالك يعيش خَدَمنا معنا وَفْق نظام رِعائىّ، وقد مَرَّت علينا ثلاثة أجيال بين تلك الأُسَر فكانت صلاتنا بها قلبيةً ودِّيَّة ، وأرغب فى الغالب أن أمكث فى المطبخ قليلَ وقت ، فيُقَيَّض لى هنالك أن أزيد علمى بالأخلاق ، وقد أورثنى أصدقائى قنوطاً فألقى وفاءُ أولئك القوم فى فؤادى سَكِينةً .

وأَرانى مديناً بكل شىء لحياة الاعتزال فى الرِّيف ، ومن الطبيعىِّ أن تقتضى هذه الحياةُ تضحيةً من صاحب مزاج حَىّ أنيس كمزاجى، وفى هذا سرٌّ ماتَجِده من الإفراط فى تقديرنا للذين يُدْعَوْن إلى منزلنا ، وفى هذا سرٌّ عدم إدراك أمرى وسِرٌّ استغلال الناس لشخصى ، وإنى حينما أتمثل فى هذه السَّنوات التى أَقْضِيها بأمريكة أمرَ عودتى تَجِدُنى أحْلُم بأبناء تلك البُقْعة ، وهم الذين أَوَدُّ أن أراهم ثانيةً ، وفى فَتَائنا الغَنِىِّ الساكن وفى حال نفسية يتعذر إيضاحُها قد نَقَشْنا على غَرانِيت الرُّوَاق هذه الكلمات : « كُنْ مَرِحاً عند التَّرَح ، وتَرِحاً عند المَرَح » .

ولا أشتغل مساءً ، ولا تَعُدَّ هذه قاعدةً ، فإذا كان المرء فى الأيام القَذِرة لا يَصِل إلى غير رسمِ خطوطٍ طويلة فإن من الأيام ما يُعْمَل فيه مدة أربعَ عشرةَ ساعة ، وقد انقطعتُ عن العمل مساءً منذ خمسةَ عشر عاماً تقريباً .

وتَعْرِف زوجتى أنى أُعْنَى بما تَلْبَسه من أَجْلى أكثرَ من عنايتى بما تَلْبَسه من أَجْل ضيُوفى ، ومن طراز عيشنا تُبْصِر للشَّمَاعِد(١) على المائدة ولِقِرَاط(٢) رَبَّة البيت وللإناء البِلَّوْرِىّ أهميةً عظيمة ، ولستُ أُبالى بالذى يُفكِّر فيه ضُيُوفى ماداموا فَرِحين طَيِّبِى النفوس ، ولستُ أُبالى بثرثرة السيدة ما سَرَّنى أن أتأمل وجهها على نُور المَوْقِد ، وأُفَضِّل الضيف الرَّجْعِىَّ المُتَّصِف بالذوق والظَّرْف على الضيف الذى يدافع عن أفكارى بأسلوب غير مُحَبَّب ، ولا يكاد رجال الأدب يُطاقُون ، ويكون رجال الموسيقَى أقلَّ تَكَلُّفاً من أولئك ، وتبصر السائحين والباحثين والطبيعيين مُثيرين للنفس على الدوام .

ويزورنا أناس من جميع الأمم ، ولا يتكلم بالألمانية فى دارنا أحدٌ غيرُ أناس من النمسويين والسويسريين ، وإذا ما اجتمع أشخاص مُمَثِّلون لستِّ أمم حاولتُ فى بعض الأحيان أن أَحْمِلهم على التكلم بلغة واحدة ، ولكن على غير جَدْوَى ، فترى اختلاطاً بابليًّا يَسُودهم على الدوام .

وقبل الحرب كُنَّا نُنظِّم ولائمَ فتبدأ هذه الولائم وقتَ الظهر وتستمرُّ بالموسيقَى وتنتهى فى الليل ، وتكون يدى ويدُ النساء مملوءةً ، وأذهب إلى المطبخ لأضايق فى الغالب ، وتتوسل الطاهية إلىَّ بعينَيْها ألا أَزيد ضِغْثاً على إِبَّالة(٣) ، ولكنَّ هنالك مسئلةَ الخمر التى يجب أن تُحَلَّ ، ولكن هنالك حالَ الجوِّ التى يجب أن تلاحَظ ، ولكن هنالك أمرَ المائدة التى يجب وضعها على قِسْم الشُّرْفَة المُشْرِف على البحيرة والمُظَلَّل بقُبَّة من حرير مُذَهَّب ، ويتطلب ذلك نصفَ ضَحْوَة(٤) منى ، ولا يزال

(١) الشماعد : جمع الشمعدان ، وهو المنارة يركز عليها السراج ، وكلمة دان فارسية .
(٢) القراط : جمع القرط ، وهو الذى يعلق فى شحمة الأذن من درة ونحوها – (٣) ضغث على إبالة : بلية على بلية – (٤) الضحوة : ارتفاع النهار بعد طلوع الشمس .

يوجد عَمَلٌ فى الشُّرْفَة مع ذلك ، ولجميع وسائل المنزل من جِرَار(١) قديمة وأدواتٍ برُونْزِيَّةٍ ولُعَب رخيصة شأنٌ فى تقليد صورةٍ لِتِيشْيَان ، ولا يَفْقَه الضيوف شيئاً من ذلك على العموم ، غير أننا نصنع ذلك من أجل أنفسنا ، وتقول لى زوجى قبل وصول الضيوف : « من المؤسف أن يُقْلب جميع ذلك رأساً على عَقِب فى بضع ساعات » .

ولا أَصْبِر على غرفة بلا ترتيب ، وأقول ، مع غُوتِه ، إننى أُفَضِّل الظلم على الفوضى ، ويَحْرِمنى هذا الميل الهَوَسِىُّ نصفَ اللذة فى ولائمنا مادمتُ أحاول ، دَوْماً ، أن أُعيد النظام خلف الضيوف والخَدَم ، وإذا ما طُبِّق هذا على الحياة فى مجموعها أوجب فَقْدَ محبٍّ الجمال لنصف وقته فى إعداد حياته .

وإذا ما هَمَّ مَنْ بَقِىَ من ضيوفنا بالانصراف رافقناهم حتى محلِّ وقوف سيارتهم عند المدخل ويقولون لنا : « وَدَاعاً » ، ويَغِيبون عن الأبصار تحت جِنْح(٢) الليل ، وتكون من العجائب لحظةُ عودتنا إلى المنزل ، فتَبْدُو غُرَفُه الكبيرة ميداناً للقتال وتَظْهر غُرَفه الكبيرة كريهةً كما لو كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ونحاول أن نُعِيد النظام إليها ، ونرى مما لا يُطَاق أن يُبْصِر الخادمُ فى الصباح ما تمّ من تَلَف فنَجِدُ تلافى ذلك فى نصف ساعة .

ونَجْلِس فى بعض الأُمْسِيَّات حول المَوْقِد حيث نُشْعِل حَطَبنا الخاصَّ ، ونكون هنالك اثنين أو ثلاثة ، ويُحِبُّ الأولاد فى صِغَرهم أن يَشْوُوا حَبَّ الكَسْتَناء على النار ، فإذا ما التهب طارت أفئدتهم فَرَحاً .

(١) الجرار : جمع الجرة ، وهى إناء خزف له بطن كبير وعروتان وفم واسع .
(٢) الجنح : الكنف .

وفى المكتبة ترى الجرائدَ والمجلاتِ ، فيُؤلمنى عدمُ ترتيبها ، وينبطح الأولاد على الأرض أحياناً ليُقلِّبوا صفحاتِ كتاب مُصوَّر ، ولا يُهمُّنى من أمر الكُتُب سوى جِلْدِها على الخصوص ، وأصُفُّها دَوْماً على حسب حَجْمها ولَوْنها ، وإذا أننى أقرأ كثيراً من الكتب لكى أجِدَ فيها مصادرَ ما أكتب ، وإذا أننى أُحِبُّ الكتب عن الطبيعة ، فإننى لا أطالع رواية إلا نادراً ، وكتبُ غُوته ونيتْشِه(١) هى الكتب التى تُبصِرها مفتوحةَ الصَّفَحات عندى على الدوام .

وتُترك الطبقة الأولى من البيت مظلمةً فى بعض الأحيان ، وترانا وحدَنا فى مُخْدَع زوجتى ومعنا قِنِّينةٌ من خَمْر بُورْدُو(٢) ، ويدُور الحديث المُنوَّع حول ماشاهدناه من الوجوه والأوضاع ، وعندى أن هذه من التمرينات المشابهة للتى يَفُكُّ الكمانىُّ بها أصابعه فى كلِّ يوم ، ولكن دراستى لرؤوس أصدقائى وأعدائى ومعاصرىَّ ولأخلاقهم يساعدنى على فَهْم الوجوه التاريخية ووصفها كما لو كانت حَيَّةً ، ويَجْهل الضيف ، إذا غادَر دارنا ، درجةَ تحليلنا له .

ومنذ ثلاثين سنة لم نَقْضِ مساءً بلا موسيقَى إلا نادراً ، وإذ كنت أكْره أن يَخْتار البرنامجَ غيرى فإننى أفضل الحاكى على المِذياع ، وأعْرِف أننى أخْسَر شيئاً من رنين الصوت ، ولكننى آكل كثيراً من الرُّطَب الوارد فى الصناديق لعدم مُلاءمة العَوْدَة إلى صحراء لِيبِيَة حيث يكون الرُّطَب لذيذاً عند اقتطافه من النَّخْل .

وليست الجَوْقات الموسيقية مُحَبَّبَة لغير أهل الطَّرَب الذين يرغبون فى رؤية المُغَنِّى أو رئيس الجَوْقة من غير أن يُعْنَوْا بالأغْنِية نفسها ، وليس هؤلاء بالذين

(١) نيتشه : فيلسوف ألمانى (١٨٤٤ – ١٩٠٠) – (٢) بوردو : إحدى مدن فرنسة المشهورة .

يُبالون بمَلال الانتقال ، ولا بالمعاطف والقُبَّعات التى تُوضَع فى الصُّوان ، ولا بالثرثرات ، ولا بأطْياب النساء الجالسات أمامهم ، ولا بُهتاف الجُمهور ولا بالاستعدادات الهائلة ، وليس أولئك بالذين يُزْعجهم تَبَرُّم رجل يُوَلِّيهم ظَهْره ويُحَرِّك ذراعَيْه فى الهواء ، فهم يَوَدُّون مشاهدة ذلك ويُحِبُّون أن يُرَوْا ، والحقُّ أن الجَوْقة الخفية التى يُقَدِّمها فاغْنِر كانت مِثاليَّةً ، ولا سيما لدينا نحن الذين لا يَهُزُّهم نَجْم ، والذين يُنْكِرون وجودَ أهمية جوهرية للموسيقار ، والذين يَرَوْن تَمَاثُل ثمانين فى المئة مما يُنْجَز فى الوقت الحاضر .

وأستلقى على مُتَّكأ أمام الحاكى وأختارُ النُّور الذى يلائم الغرفة والدائرة والساعة وأستمع إلى ما يَرُوقُنى من القِطَع الغِنائيَّة ، وأرْشُف بلطف ما يلائم شُوبِن(١) من خَمْرِ سُوتِرْن(٢) ، وما يكون من هناءة تلك العُزْلة الخالصة ومن الضياء الكثير المُناسَبة ومن وَضْعى ومن مدة الإنجاز ، كالملك لُودْفيغ الباڤارى ، ومن غياب الجَوْقات ، فهو من الأهمية بحيث أرْضَى معه طائعاً مختاراً ذلك الرُّطَبَ الذى يكاد يكون أقلَّ لذةً مع عَطَل من نَكْهة مافى الصحراء .

وأروعُ الأَمْسِيَة(٣) هو مساءُ الرُّباعيَّات الغِنائيَّة ، ولا ندعو إلى ذلك أحداً لتنافى الموسيقَى والرِّفَاقة(٤) ، وإذا مَرَّت ثلاثُ دقائقَ على الجزء الأخير من القطعة الموسيقية (رقم ١٢٧) لبتْهُوفِن فسمعتُ شخصاً يُبْدِى رأياً سياسياً بَدَوْت له غليظاً غيرَ مُهذَّب ، ويمكن الإنسانَ أن يُوَجِّه الدعوة إلى نفر قليل يَتذوق الموسيقى .
ويبدو العَشَاء عيداً صغيراً أيضاً ، ويكون للرَّحيق كبيرُ شأن فيه ، ويُحَلَّلُ مُحَلَّل

(١) شوبن : بيانى وملحن ولد بالقرب من وارسو ومات بباريس (١٨١٠ – ١٨٤٩) .
(٢) سوترن : ناحية من مديرية جيروند الفرنسية مشهورة بخمرها البيضاء .
(٣) الأمسية : جمع المساء – (٤) الرفاقة : جماعة ترافقهم .

السيدة المِضْياف من قِبل الخبراء ما لم يكن سَمَكُ البحيرة ومَرَقُه الخاصُّ موضوعَ البحث كموضوعٍ لبرهِمس(١) ، ونستمع إلى الموسيقَى فى ساعة ونأكل ونشرب فى ساعتين ، وجَعَل ڤاغنر نفسَه غيرَ ذى صفة لِما كان من عدم تأليفه موسيقَى مطلقةً والحمدُ لله ! وفى بعض الأحيان ننتقل من الموسيقَى الإليزية الكلاسيَّة(٢) إلى الأغانى العصرية .

وإذا جلستُ فى زاوية وترَصَّدْت الكلب الأَوْبَر الجاثم بين الموسيقيين ، عند توافق الآلات الأربع فى وَسَط قاعة الموسيقَى ، شَعَرْت بأننى سعيد حتى قبل البدء .

وتنار صُوَر أجدادنا الاثنتى عشرةَ من عَلٍ ، وهى تلوح أنها تُطِلُّ على ظِلِّ القاعة مُصْغِيَةً إلى الجَوْقة التى يُقَدِّمها الحَفَدة إليها ، وكيف تتساوق تلك السيدة الاسْكتْلَنْدِيَّة الوالدة لزوجتى ، واللابسةُ ثوباً أزرق ، هى وجدتى اليهودية السِّيليزيَّةُ(٣) الهائجة ؟ وكيف يتلاءَم هذا التاجر الإنكليزىُّ الصامت الجليل هو ووالدى الأصلىُّ الصاخب ؟ أَجَلْ ، إن هذا من شأنهما .

وهنالك أمرٌ واحد قد يُريح الخاطر ، وهو ما كان من صُنْع جَدِّى منذ مئة سنة لأثاثه الخاصِّ بخَشَبٍ جَلَبه من أمريكةَ الجنوبية ، وفيما تُنَشِّط(٤) الموسيقَى عِقَال النفوس فتَصِير طليقةً يعود أولئك الموتَى إلى الحياة ، على ما يحتمل ، حتى تنطفئَ المصابيح ، ثم تَسْكُنُ الموسيقَى فيَرْجِع كلُّ شىء إلى رُقاده الفاتن .

ونَجْلِس بين الفصول على قِسْمِ الشُّرْفَة المُنِيف(٥) على الوادى ولا نَرْضَى

(١) برهمس : ملحن ألمانى (١٨٣٣ – ١٨٩٧) – (٢) classique .
(٣) سيليزية : إحدى ولايات پروسية – (٤) تنشط : تحل – (٥) المنيف : المشرف والمطل .

عن نور النجوم بديلاً ، والنجومُ مما تَعْرِف زوجتى ، وزوجتى تَعْرِف بعض أسرار النجوم فتَدْعُوها بأسمائها الأولى كما قال بعض الضيوف ذاتَ مرة ، وفى بعض الأحيان يَنْشأ حديث أُنْسٍ بين ضيفيْن مستلقِيَيْن على مقعدَيْن طويلين فيَدْنو أحدهما من الآخر فى تلك الليلة لأول مرة على ما يحتمل ، ومن الموسيقَى والنجوم ومن منظر الجبال البائرة ومن الحديقة الخيالية نَبَتَ كثير من الأقاصيص .

ولِلَّيل مزيَّة عدم الانتهاء ، فإذا خُتِم النهار ظهرت حالٌ سِمَتُها المصابيح والطَّرَّاء وإغلاق الأبواب وتبديلُ الثياب وتغييرُ المِزاج ، أَجَلْ ، لا نهايةَ للَيْلٍ ، والليلُ لا يخشى اضطراباً من الخارج ، فيلوح لنا إمكانُ بقائنا فيه أَيْقاظاً إلى الأبد .

وأُحِبُّ لياليَ الصيف ، ولا شىء فى العالم أَرْوَعُ منها ، ولا نزال نَتَمتَّع فى الهواء البارد بدِفْءٍ من الشمس ، ويَحُفُّ بنا ظلام رِوائىٌّ مع ذلك ، فترتفع من خلاله أصوات جديدة ، فما كنا لنسمع فى النهار خريرَ السَّوَاقى غيرِ البعيدة من بيتنا فتَنْزِل كَشَلَّالَاتٍ لتَنْصبَّ فى البحيرة ، والآن يَلُوح أن الأفكار تَنْحَلّ فتَقِلُّ حِدَّتها ، وتصير أبعدَ غَوْراً ، وما تَجَنَّى علينا من الشِّعْر والقوافى نهاراً فينشأُ ليلاً ، ويكون للكلمة معنًى جديدٌ ، ولِما تَرَى من توارى كلِّ منطق فى ليالى الصيف ، ولِما تُبْصِر من تحرير هذه الليالى لمُتَدَفِّق الأحاسيس من قيودها الأخيرة يَبْدُو كلُّ سرور أنه ينتقل إلى دائرة أخرى ، وهكذا نَدْنُو من الآلهة التى تتلألأ فى النجوم .

المحتوى

للأستاذ المترجم :

١ ــ أصل التفاوت بين الناس		لجان جاك روسو
٢ ــ إميل أو التربية		» » »
٣ ــ كنديد أو التفاؤل		لفولتير
٤ ــ تلماك		لفنلون
٥ ــ روح الجماعات	(طبعة ثانية)	لغوستاف لوبون
٦ ــ السنن النفسية لتطور الأمم	(طبعة ثانية)	» »
٧ ــ فلسفة التاريخ		» »
٨ ــ النيل		لإميل لودفيغ
٩ ــ البحر المتوسط		» »
١٠ ــ كليوباترة		» »
١١ ــ بسمارك		» »
١٢ ــ الحياة والحب		» »
١٣ ــ حديقة أبيقور		لأناتول فرانس